الوصف في شعر المتنبي

تأليف

الدكتور محمد السعدي فرهود

الجزء الأول

القاهرة

١٣٩٠ هـ - ١٩٧١ م

مطبعة الرسالة

٣ شارع [illegible] عابدين

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

باسم الله ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله ، وعلى آله وصحبه ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد ، فهذا بحث من عدة بحوث ، يختص بالوصف في شعر المتنبي . ومازال المتنبي إلى الآن يفرض اسمه وشعره على التاريخ الأدبي . وما زال فيه جوانب تستحق الدراسة ، على الرغم من الدراسات المستفيضة التي حظي بها على امتداد ألف سنة ، ولم يحظ بمثلها غيره من شعراء العربية .

وللمتنبي أشعار في أغراض شتى ، اتصلت جميعها بشخصيته ، وبيئته ، وتأثرت بظروف حياته . والوصف واحد من هذه الأغراض ، ولكن المتنبي لم يقصد إليه من حيث هو فن يطلب لنفسه ويتخذ إلى الجمال الحسي ، وإنما كان يتخذه وسيلة إلى مايثور في نفسه من العواطف والأهواء ؛ وإلى هذا الرأي انتهى الأستاذ الدكتور طه حسين ، ولكن هذا لايقلل من درجة إحسانه وإبداعه في الوصف بعامة ، وفي وصف المعارك والحروب بخاصة ، حيث كانت نفسه مهيأة – منذ الصغر – للخوض فيها ، فان لم يخضها بالسلاح ، فيخضها بالمنطق والشعر

عاش المتنبي أول أمره في البادية ، وانتقل منها إلى الحاضرة ، ثم تنقل من حاضرة إلى حاضرة ، وجاز الصحارى والبوادي ، وشهد المعارك القتالية واشترك فيها محاربا ، ولزم سيف الدولة الحمداني برهة « طويلة » وصحبه في معاركه وحروبه للعصاة الخارجين عليه ، وللروم الطامعين في الدولة العباسية . وأقام في الشام معظم حياته ، وعلى ضفاف النيل عدة أعوام ، واجتاز شعب بوان في طريقه إلى عضد الدولة بن بويه في شيراز ، ومع ذلك لم يظفر منه النيل بشيء ، ولم

تقل منه ربوع الشام إلا قليلا حين وصف لبنان وبحيرة طبرية . أما الشعب فقد ذهب بدونيجه الرائعة :

مغانى الشعب طيبا فى المغانى بمنزلة الربيع من الزمان

وفى صحبته سيف الدولة فى حروب الروم شهد المتنبى أرضا جديدة وسماء جديدة ، لم تشغلاه عن وصف المعارك ، ولقد يتناولهما من خلال هذه المعارك فيأتى وصفها جزءا من الوصف المقصود وبقدر الحاجة .

وفى الحواضر عرف القصور ، وألم بما فيها من : أنس ، وبهجة ، وطرب وسمر ، ومقصورات ، وخدور ، وستور ، وأرائك مصفوفة ، وزرابى مبثوثة ، وبساتين ، وأطيار ... الخ . فلم يكن لها من شعره نصيب ، إلا ما اضطر إليه وفى ظروف خاصة من وصف أطراف من مجالس الرفاهة والخمر وأدوات الزينة واللعب ، ولم يطل نفسه فى وصفها ، إذ لم يجاوز البيتين أو الأبيات القليلة . وكأنه ربأ بشعره أن يبتذل فيها ، وأبقاه لأحاديث المجد مادحا أو فاخرا

والمتنبى فى وصفه لم ينسلخ من شخصيته البدوية ، فظهرت فيه كما هى فى سائر شعره — وأعنى : قوة فى اللفظ ، وجزالة فى الأسلوب ، واستحصادا فى المهارة . ولقد يظن الأمر على نقيض ذلك إذا تعلق الوصف بالمرأة ومجالس الشراب وأدوات الرفاهية وغيرها من الأشياء الرقيقة بطبيعتها ، ولكن ذلك لم يكن ؛ لأن البادية سيطرت على المتنبى سيطرة كاملة وأثرت فى قوله وفعله وفكره وتصوره وتصويره ، ولعله كان سعيدا بهذه السيطرة ، راغبا عن الانفلات منها على الرغم من تردده على الحواضر فى : الكوفة ، وبغداد ، وطرابلس ، واللاذقية ، وطبرية ، وحمص ، وأنطاكية ، ودمشق ، وحلب ، والفسطاط ، وأرجان ، وشيراز ، وواسط .

ونستطيع أن نلمس طريقنا إلى قاعدة عريضة اعتمدها وصف المتنبى وهى مهارته فى ربط الحقائق بالصور وقدرته الجريئة على تصوير هذه الحقائق ، وإشاعة الحياة فيها .

وفي الوصف لم تتخل عن المتنبي طبيعته الحكيمة ، فأشاع الحكمة فيه كما أشاعها في سائر شعره . وهي حكمة النفس الإنسانية التي عرفت بالنظر والتجربة مما أمور الحياة ، واضطربت فيما يضطرب فيه الناس ، ولكنها اتسعت للوجود ومظاهره ، واهتاجت لمختلف الانفعالات والخواطر ، فسقطت هذه الانفعالات والخواطر في أعماقه ، وكان لا بد أن تتحول إلى أدب يمثلها قضايا ومسلمات . وهكذا جاءت حكمة المتنبي .

وقد أقمنا البحث على عدة فصول ، يسبقها فصل تمهيدي في حياة المتنبي . وهي حياة يمكن أن تلقي الضوء على أوصافه ، واختياره موضوعاتها ، وانتخابه معانيها ، وطريقة تصورها وتصويرها ، وإن لم تفدنا شيئاً من هذا أفادتنا — دون ريب — مسيرتها التاريخية .

وهذه الفصول هي : وصف المرأة — الوداع والرحيل والفراق — الصيد والطارد — الحروب والمعارك — الحيوان — المجالس — أدوات الراحة واللعب — أماكن الراحة والنزهة والرحلة — أراذل الناس — الحمى — الشيب — الشعر والأدب .

ونسأل الله العون والتوفيق ؟

المصري

القاهرة في { الثالث من ذي القعدة ١٣٩٠ هـ
الأول من يناير ١٩٧١ م

فصل تمهيدى

حياة المتنبى[1]

ولد المتنبى سنة ثلاث وثلثمائة من الهجرة ، وتوفى سنة أربع وخمسين وثلثمائة . وهو فيما بين هاتين السنتين عاش رحلة حياته .

فى صباه كان يتلقى مبادىء العلم فى إحدى مدارس العلويين بالكوفة . وله فى هذه الفترة شعر يعتمد على تقليد القدماء والمعاصرين الذين سبقوه بوقت قصير . وهذا طبيعى فى أمر الابتداء الفنى ، فالأصل فى الابتداء الفنى التقليد بحيث يقلد المبتدىء واحدا أو غير واحد من الذين سبقوه فى الفن الذى يزاوله ؛ يلتمس نفسه فى هذا التقليد ، حتى إذا وجدها استقل قواها وعواطفها ، واستثمر كنوزها ودخائلها ، واستخرج منها شخصيته التى تنمو على مر الزمن وطول المزاولة .

وفى أثناء ذلك رحل الصبى إلى البادية واتصل بالقرامطة ، وعاد منها إلى الكوفة ، ومن شعره فى تلك الرحلة مدحة فى رجل يسمى أبا الفضل مطلعها :

كفى أراني ويك لومك ألوما   هم أقام على فؤاد أنجما

ويغلب على الظن أن هذا الرجل واحد من دعاة القرامطة .

أغار القرامطة على الكوفة سنة ست عشرة وثلثمائة ، ودمروها . وأشاعوا فيها الرعب عاما كاملا . وبعد جلائهم عنها تركها الفتى الذى كان إذ ذاك فى الرابعة عشرة من عمره إلى بغداد فى صحبة أبيه — وفى بغداد مدح محمد بن عبيد الله العلوى بقصيدته :

---

(١) اعتمدنا فى كتابة هذا الفصل على كتاب (ذكرى أبى الطيب) للدكتور عبدالوهاب عزام ، وكتاب (مع المتنبى) للدكتور طه حسين .

أهلا بدار سباك أغيدها أبعد ما بان عنك خردها

والمرجح أن إقامته فى بغداد لم تطل ، لأنه لم يكن آمنا فيها ، بسبب قرمطيته ، وعنها رحل إلى بلاد الشام مارا ببادیتها ، فمدح فى شمالى الشام سعيد بن عبد الله ابن الحسين الكلابى القيسى وبعض الكلابيين الآخرين ، ومدح أبا المنتصر شجاع الأزدى ، وعلى بن أحمد الطائى ، وشجاع بن محمد الطائى ، وعبد الله ابن يحيى بن البحترى ، وأخاه أبا عبادة ، ومحمد بن زريق الطرسوسى ، ومساور ابن محمد الرومى ، وعبد الرحمن بن المبارك الأنطاكى . وله فى سيف الدولة مدحته الميمية التى مطلعها :

ذكر الصبا ومرانع الآرام جلبت حمامى قبل وقت حمامى

وفيها يذكر إيقاعه بعمرو بن حابس وبنى ضبة ، ولم ينشدها سيف الدولة وكان ذلك فى سنة إحدى وعشرين وثلثمائة ، أى أن الشاعر كان فى سن الثامنة عشرة . ويظهر أن هذه القصيدة كانت آخر شعره فى شمالى الشام ، ويحتمل أنه جملها بين يدى أمله فى القرب من سيف الدولة ، ولكن سيف الدولة الذى كان فى مثل سنه لم يكن متهيئا لاستماع مثل هذا الشعر ؛ ولهذا انصرف عنه الشاعر إلى وسط الشام والانتقال من ملك العباسيين إلى ملك الإخشيديين .

وفى طرابلس مدح عبيد الله بن خلكان ، ووصف طرف قصره . وفى اللاذقية كانت له أشعار فى التنوخيين . وعلى رأسهم محمد بن إسحاق التنوخى الذى مدحه ورثاه ، وأخوه الحسين بن إسحاق التنوخى ، وعلى بن إبراهيم ابن إسحاق التنوخى .

وفى أثناء إقامته فى اللاذقية تردد على طبرية وتركت البحيرة فى نفسه أثرا دفعه إلى وصفها فى قصيدته التى مدح بها على بن إبراهيم بن إسحاق التنوخى . ولم يكن الشاعر قد أتم العشرين من عمره .

وارتحل الشاعر عن اللاذقية مغاضبا ، ينشد الشعر الثائر ، من مثل ما نراه فى قصيدته :

قفا تريا ودقى فهاتا المخايل ولا تخشيا خلفاً لما أنا قائل

وقصيدته :

كم قتيل كما قتلت شهيد ببياض الطلى وورد الخدود

وقصيدته :

ضيف ألم برأسي غير محتشم السيف أحسن فعلا منه باللمم [1]

وثار الشاعر ، وقالوا : إنه تنبأ . . وأمضى فى السجن زمنا ، ثم أخرج منه . ولم يحفظ لنا من شعره منذ أخذ إلى أن أخرج من السجن الا أقله ، ومنه هجاؤه للهاشمى الذى قيده وأسلمه إلى جند السلطان ، ومدحته أبا دلف وهو رجل بره فى السجن ، ثم استعطافه لإسحاق بن كيغلغ والى حمص بمقطوعته .

بيدى أيها الأمير الأريب لا لشىء إلا لأنى غريب

وقصيدته :

أيا خدد الله ورد الخدود وقد قدود الحسان القدود

ومدحه إياه بعد أن عفا عنه برائيته :

حاشا الرقيب فخانته ضمائره وغيض الدمع فانهلت بوادره

ولم يتح للمتنبى أن يبقى فى حمص ، فغادرها يستقبل حياة جديدة ، ويمر بالفراديس من أرض قنسرين ، فيسمع الأسد ، فيهاجيه ، ويصل إلى حلب ، فلا يقيم فيها طويلا ، فيرحل عنها إلى أنطاكية يلتمس حياته بمدح الأشراف وأوساط الناس ، فمدح المغيث بن على العجلى ، وأبا عبد الله محمد بن عبيد الله ابن محمد الخطيب الخصيبى ، وأبا الفضل أحمد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى ، وأبا سهل سعيد بن عبد الله بن الحسن الأنطاكى ، وأبا أيوب أحمد بن عمران ،

---

(١) فى الديوان أن القصائد الثلاث من شعر الصبا ، ووضعها فى الفترة الزمنية المتقدمة من اجتهاد الدكتور طه حسين . ونحن لا نوافقه .

وأبا الفرج أحمد بن الحسين القاضي المالكي ، وعلي بن منصور الحاجب ، وعمر ابن سليمان الشرابي ، وعبد الواحد بن العباس بن أبي الإصبع الكاتب .

وترك المتنبي أنطاكية إلى بدر بن عمار في طبرية ، فوجد عنده الحياة اللينة الهادئة ، والبيئة المثقفة الناقدة ، وهما أمران كان يحتاج المتنبي إليهما ، فمدحه بشعر كثير ، أوله قصيدته :

أمن ازديارك في الدجى الرقباء   إذ حيث أنت من الظلام ضياء

وهي قصيدة تكشف عن علم المتنبي — وهو في الخامسة والعشرين — بمذاهب المتصوفة من الكلام ، ومنهجهم في الرمز والإيماء .

وعند بدر بن عمار امتحن المتنبي في بديهته أكثر من مرة ، وقال فيه قصيدته :

في الخد أن عزم الخليط رحيلا   مطر تزيد به الخدود محولا

وهي القصيدة التي يصف فيها ما كان بين بدر والأسد من صراع ينتهي بانتصار بدر .

وفي أثناء إقامته في طبرية اتصل بأبي علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي الكاتب .

وفسدت العلاقة بين المتنبي وبدر ، فانصرف المتنبي عنه إلى صديق له يعرف بأبي الحسن علي بن أحمد الخراساني في جبل جرش ، ولم يطل مقامه عنده ، فسار عنه إلى البادية ، ولقي فيها شيئاً غير قليل من العنت والضيق ، وفي هذا ينشد قصيدته :

عذيري من عذارى من أمور   سكنّ جوانحي بدل الخدور

وفيها يهجو الأعور بن كروس خصمه اللدود .

وجاءه نبأ موت جدته فرثاها .

وحدثت تغيرات سياسية فى بلاد الشام ، فأخذ المتنبى يتقرب بشعره إلى عمال الدولة الإخشيدية ، ومنهم : على بن أحمد بن عامر الأنطاكى ، وعلى بن محمد ابن سيار بن مكرم التميمى ، وأبو بكر على بن صالح الروذبارى ، والحسين بن على الهمذانى . وفى أوائل سنة خمس وثلاثين وثلثمائة وصل الرملة وانتهى إلى أبى محمد الحسن بن عبيد الله بن طغج ، ومدحه ، ونادمه . ومدح لديه رجلا من أشراف العلويين يعرف بأبى القاسم طاهر بن الحسين بن طاهر العلوى . ثم رحل عنه بعد أشهر .

فى هذه الأثناء استقر الأمر بين كافور وسيف الدولة على الصلح الذى أمضاه محمد الأخشيد قبل مماته سنة أربع وثلاثين وثلثمائة . فعزم المتنبى على أن يعود إلى البيئة العربية فى شمال الشام . وفى طريقه إليها عرج على دمشق ، وأكرمه حاكمها على بن عساكر ، وغادره إلى أبى العشائر — ابن عم سيف الدولة — فى أنطاكية ، وابتغى رضاه ، وأقام معه حتى قدم سيف الدولة إلى أنطاكية فى جمادى الأولى من سنة سبع وثلاثين وثلثمائة ، فمدحه المتنبى واتصل به وانتقل معه إلى حلب .

وصحب المتنبى سيف الدولة مايقرب من تسع سنوات ، وهى خير أعوام المتنبى ، وأخصبها ، وأكثرها نتاجا أدبيا ، يمدح سيف الدولة ، ويعزيه ، ويصف غزواته ، ويخذل الثائرين عليه ، ويمالئه ، ويضطرب لسعى الحاقدين لدى سيف الدولة ، ويناظرهم عنده ، ويتمادى فى إغاظتهم ، ثم يضطر إلى المهادنة والترفق .

وفى سنة خمس وأربعين وثلثمائة يفارق المتنبى سيف الدولة إلى مصر ، فيصلها فى سنة ست وأربعين وثلثمائة ، ويتصل بكافور الأخشيدى ، ويمدحه بثمانى قصائد ، يريد أن يظفر بالمكانة عنده ، ثم لا يطول مقامه بغيته ، فيعرض عنه ، ويعيش حسيرا مهموما ، ويبيت يعد أنفاسه ، وتصيبه الحمى ، فيصفها ، ويصف سجنه فى مصر . ويبلغه أنه نعى فى مجلس سيف الدولة ، فينشد قصيدته :

بم التعلل لا أهل ولا وطن   ولا نديم ولا كأس ولا سكن

وفي أثناء إقامته في مصر يتصل بأبي شجاع فاتك الرومي (الذي كان يعرف بالمجنون) ، ويمدحه ، ويسخو أبو شجاع في البذل للمتنبي ، ويعرف له المتنبي هذه اليد ، فيمدحه ، ثم يرثيه بعد وفاته حزيناً .

وساء ما بين المتنبي وكافور ، وأزمع المتنبي الرحيل من مصر ، وانتهز ليلة الأضحى من سنة خمسين وثلثمائة ، فغادر مصر هاربا ، وساعده رجل قيسي من بلبيس إذ أرسل إليه دليلا ، وتعرض في مسيره للسرقة ، حين نزل في بعض طريقه بأعرابي من طيء يقال له وردان بن ربيعة ، فحمل هذا الأعرابي بعض عبيده ، والعبيد يسرقون له من متاع سيدهم ، ولما شعر المتنبي بذلك أجهز على من خانه من العبيد ، وحمل يهجو وردان ، ووصل إلى الكوفة ، وأذاع منها مقصورته المشهورة :

ألا كل ماشية الخيزلى   فدى كل ماشية الهيذبى

وفيها وصف طريقه من مصر ، وهجا كافوراً ، وفخر بنفسه .

وما هي إلا أشهر حتى ضاق بالكوفة ، ورحل عنها في آخر سنة إحدى وخمسين وثلثمائة إلى بغداد ، وأقام فيها نحوا من ثمانية أشهر ، ثم عاد إلى الكوفة ، ووصلته فيها هدايا من سيف الدولة ، شكرها بلاميته المشهورة :

ما لنا كلنا جو يا رسول   أنا أهوى وقلبك المتبول

وجاءه في الكوفة نعي أخت سيف الدولة فرثاها بقصيدته :

يا أخت خير أخ ، يا بنت خير أب   كناية بهما عن أشرف النسب

ويقع المتنبي في عداء رجل من القرامطة ، ولا يلبث أن يهجوه بقصيدته المقذعة :

ما أنصف القوم ضبه   وأمه الطرطبه

ويغير القرامطة على الكوفة سنة ثلاث وخمسين وثلثمائة ، ويصدهم الناس عنها ، ويشترك المتنبي وغلمانه في صدهم ، وترسل بغداد جيشاً رأسه القائد دلير ابن لشكروز ، فيخلع على الدافعين ، ومنهم المتنبي ، ويمدحه هذا .

وكأني بالمتنبي كان يريد أن يصل إلى بغداد من هذه الطريق

ويأتي المتنبي كتاب من حلب يدعوه سيف الدولة إليه ، فيرد عليه بقصيدته :

فهمت الكتاب أبر الكتب   فسمعاً لأمر أمير العرب

ولكنه لم يتوجه إليه ، وإنما توجه إلى أرجان ، يزور ابن العميد وزير ركن الدولة البويهي ، ومكث عنده مدة ، يمدحه ، ويهنئه بالنيروز ، ويحضر بعض مجالسه ، حتى ودعه إلى شيراز ، حيث كان ابن العميد قد رتب له اتصالا بعضد الدولة البويهي . ولم يقم المتنبي عند عضد الدولة هذا إلا ثلاثة أشهر ، ولكنه مدحه فأكثر المدح ، ومن أشهر مدائحه فيه قصيدته التي افتتحها بوصف شعب بوان :

مغاني الشعب طيباً في المغاني   بمنزلة الربيع من الزمان

وأرجوزته في الطرد :

ما أجدر الأيام والليالي   بأن تقول : ماله ومالي !

وغادر المتنبي شيراز قاصداً العراق ، وألم في طريقه بالأهواز ، وانتهى إلى واسط في شهر رمضان من سنة أربع وخمسين وثلثمائة ، ونزل على صديق له يدعى أبا نصر محمد الجبلي ، وحذره الجبلي من طريقه ومن فاتك الأسدي خال ضبة القرمطي ، ونصح له أن يستصحب الأحراس ، ولكن المتنبي أبى مستكبراً ، وعرض عليه الجبلي أن يتولى هو حراسته بإرسال نفر من أصحابه يسيرون بمسيره وينزلون بمنزله ، فأبى مستكبراً أيضاً ، وخرج وليس معه إلا ابنه وغلمانه ، فلما كان قريباً من دير العاقول في بعض طريقه إلى بغداد تلقاه فاتك الأسدي وأصحابه من الأعراب ، فوقع بينهم وبين المتنبي ومن معه شيء من القتال ، انتهى بمصرع المتنبي وابنه وغلمانه .

الفصل الأول

وصف المرأة

القول فى وصف المرأة لون من الغزل ، وقد وضح لنا منذ البداية أن الغزل فى شعر المتنبى يكاد يكون مقصوراً على هذه الأوصاف الحسيـة المادية التى يراها فيها .

وجاءت هذه الأوصاف فى مطالع قصائده ، التى احترم فيها عمود الشعر العربى ، فهذه الأوصاف لم يأت المتنبى بها قاصداً إلى الغزل قصداً ، وإنما جعلها وسيلة إلى القول فى غرضه ، وتمهيداً لهذا القول على طريقة الشعراء الأقدمين

والعجيب أن المتنبى أمضى شبابه لا يعرف العشق سبيلا إلى قلبه ، مع أن فترة الشباب هى الفترة التى يرف فيها الرجل إلى المرأة ، وتمتلئ العين وسائر الحواس بمرآها والإنصات إليها والتزلف منها ، ويشتغل فيها الخيال بما تبدى وما تخفى من محاسنها ومفاتنها ، ويقوى فيها الميل الجنسى ، والرغبة فى دغدغة الحواس .

وتفسير ذلك أن المتنبى لم يكن لديه وقت ينفقه فى الغزل ؛ لأنه كان مشغوفاً بالمجد الاجتماعى ، يتطلع إلى أن يكون له مكان مرموق فى الهيئة الاجتماعية ، وساعدته التربية البدوية والمذهبية التى أخذ بها نفسه من الصغر على تجنب اللهو والاشتغال به ، ومما يقول فى هذا عن نفسه .

وترى الفتوة والمروءة والأبوة فىّ كل مليحة ضراتها(١)

---

(١) الفتوة : أى الكرم والسخاء ، والمروءة : أى الإنسانيـة ، والأبوة : أى الأنفة وعزة النفس . والضرات : جمع ضرة .

من الثلاث المانعاتى لذتى ... خلوتى، لا الخوف من تبعاتها
ومطالب فيها الهلاك أتيتها ... ثبت الجنان كأننى لم آتها

فكل مليحة ترى ضرائر لها ما يأخذ به نفسه من الفتوة والمروءة والأبوة ، وهو يعترف أن هذه الأمور هى التى تكفه عن لذاذته فى خلواته ، وليس الخوف من تبعاتها وعواقبها ، ورب مطالب فيها الهلاك أتاها وواجه مصاعبها وكأنه لم يصنع شيئا لأن شجاعته وجرأته أقوى من أن تؤثر فيهما مكاره الحياة .

ومنذ وقت مبكر أحس المتنبي أنه خلق للنضال والحرب والدماء ، فقال فى صباه رداً على من أطرى وفرته حينما رآه فى المكتب :

لا تحسن الوفرة حتى ترى ... منشورة الضفرين يوم القتال
على فتى معتقل صعدة ... يعلها من كل وافى السبال[1]

وإذا كان المتنبي هكذا فى ميعة صباه فهو فى سائر حياته أكثر جدا . وتقرأ شعره كله فلا تجد فيه هزلا إلا ماقاله على سبيل الفكاهة أوالمنادمة ، وما أقلهما . ولا تجد فيه شعرا يعاف فيه على المرأة إلا أبياتا ، حكى الصفدى فى شرح لامية العجم أن ابن المستكفى اجتمع بالمتنبي فى مصر ، وروى عنه أنه قال[2] :

لاعبت بالخاتم انسانة ... كمثل بدر فى الدجى الفاحم
وكلما حاولت أخذى له ... من البنان الترف الناعم

(١) الوفرة : الشعر المجتمع على الرأس . وكانوا يرسلون شعورهم فى الحرب . ومعتقل الصعدة : حاملها ، والصعدة الرمح القصير . يعلها : يسقيها الدم مرة بعد أخرى . وافى السبال : تام السبلة وهى ما استرسل من مقدم اللحية .

(٢) نقلنا هذه الأبيات عن نسخة من الديوان مطبوعة فى الهند سنة ١٣٨٣ هـ ولم نجدها فى نسخة البرقوقى .

ألفته فى فيها فقلت : انظروا   قد أخفت الخاتم فى الخاتم

ومع التسليم بنسبة هذه الأبيات الى المتنبي نراها لا تجاوز دعابة وتفنية، فهى لا تمثل موقفا أصيلا يمكن ان يفتح طريقا للادعاء عليه بأنه عرف المرأة كما ينبغى أن تعرف .

ولقد نقف عند بعض الأوصاف — وستأتى — فيطيب لنا أن نزعم أن المتنبي طرق سبيل الحب ، اذ نقرأ عواطف ملساية ومشاعر فياضة . ثم يردنا عن مثل هذا الزعم يقين من أن هذا الذى نقرؤه ملساب العواطف فياض المشاعر لم يأت كذلك لأن مصدره الحب ، وانما أتى كذلك لأن مصدره القدرة الفائقة على الصناعة والمعالجة الفنية .

وشىء آخر نقدمه بين يدى هذه الأوصاف ، وهو أن هذا الجمال الموصوف قد يختلف الرأى فيه فى زماننا ، وربما وجد مثل هذا الاختلاف فيه فى زمن المتنبي نفسه ، الا أن الذى لا ننكره وليس فى استطاعة أحد أن ينكره أن تقدير المتنبي للجمال المحسوس لم يكن بدعاً منه ، فهو انما جارى فيه من سبقوه من أمثال امرىء القيس والنابغة الذبيانى وكعب بن زهير وجميل بن معمر[١] وهؤلاء الشعراء قد صوروا ما استملحوه فى المرأة ، وما استملحوا فيها الا بياضها ، وخفة لحمها ، ونهود صدرها ، وضمور خصرها ، وثقل عجيزتها ، وليونتها ، وامتلاء جسدها .

ونستطيع أن نتصور مثال المرأة التى وصفها المتنبي من خلال أشعاره التى

---

(١) امرؤ القيس : مهفهفة بيضاء غير مفاضة   ترائبها مصقولة كالسجنجل
النابغة الذبيانى : مخطوطة المتنين غير مفاضة   ريا الروادف بضة المتجرد
كعب بن زهير : هيفاء مقبلة عجزاء مدبرة   لا يشتكى قصر منها ولا طول
جميل بن معمر : قناة من المران ما فوق حقوها   وما تحته منها نقا يتقصف

تعرضها بمدحين : بيضاء ، مشرقة الوجه ، واسعة العينين نافذتهما سوداء الحدقتين ، ناعسة الطرف ، لمياء الشفتين ، ممسولة الثغر ، طيبة النكهة ، أسيلة الخد ، ورديته ، شعرها أسود كثيف ، ذو غدائر ، وذو خصلات مصففة ، جسيمة لحيمة سمينة ، طويلة ، ذات قوام معتدل ، وبدن لين بارى ناعم ، ناهدة الصدر ، ناحلة الخصر ، ممتلئة الردف ، مخضوبة البنان ، حسنة المنطق ، ذات حياء وخفر ، سافرة أو مختمرة سيان ، حالية بالزينة أو عاطلة منها سيان ، رقيقة الخطو ، فائقة الدل ، ذات حسن طبيعي غير مجتلب .

ولا يخطر ببالك أنه جمع هذه الأوصاف كلها في قصيدة واحدة — وليته فعل — فإنما كان يتداول منها في كل قصيدة ما يخطر له ، على أن أكثر هذه الأوصاف إلحاحا عليه : إشراق الوجه ، ونفاذ العيون وسحرها ، وسواد الشعر وكثافته ، ونحول الخصر وضموره ، وامتلاء العجيزة ورجرجتها ، ونعومة البدن ورقته .

والمتنبي كما قلنا لم يقصد الى الغزل قصدا ، ولهذا لا نتوقع منه : رقة القول ، والتخنث في الكلام ، ونعومة الحديث . لكن الظاهرة الأنوية الواضحة أن وصف المرأة في كل قصيدة يساير لغة هذه القصيدة ، كما نلاحظ أن هذه الأوصاف في شعر الصبا غلب عليها التبدي والتقليد ، وكلاهما سمة على شعره كله في هذه الفترة ، ومن هنا لا نقبل القول(١) بأن المتنبي قصر أو عجز عن اختيار الألفاظ الغزلية الرقيقة الحلوة الجرس الواضحة المعنى .

ومن مظاهر هذين الأمرين — التبدي ، والتقليد — في أوصاف المتنبي

---

(٢) انظر رأي الأستاذ عباس حسن في كتابه (المتنبي وشوقي) . ص ٣٠٨ — نشر مكتبة النهضة المصرية . طبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده — ١٣٧٠هـ / ١٩٥١ م .

هذه التشبيهات التى اشتهرت عن الأقدمين بصورها ومعانيها ، فأصبحت تمثل تراثا يتفق منه كل أديب وشاعر : تشبيه المرأة بالظبية ، وبالرشأ ، وبالبقرة الوحشية ، وبالمهاة ، وبالغزالة ، وتشبيه سنها بالدر وبالبرد وبالبرق ، وريقها بالخمر وبالغمام وبالضرب ، وعينها بالسهم ، ودمعها بالطل وباللؤلؤ ، وخدها بالورد ، وشعرها بالليل وبالغراب ، ووجهها بالبدر وبالشمس وبالصباح ، وقدها بالغصن وبالقضيب ، وردفها بالنقا وبالكثيب ، وبنانها بالعنم ، وطيبها ونكهتها بالمسك وبالعنبر وبالمندل . وربما تابع المتنبي بشاراً فى تشبيه المرأة بالجنية . وربما كان تشبيه المرأة الحضرية بالمعز من مخترعاته .

ونلحظ فى أكثر من قصيدة إطراءه المرأة البدوية ، وتفضيلها على المرأة الحضرية ، معتقدا أن الحسن لا يكون إلا فى البدوية ، لأنه حسن أصيل ، لم يزيف ، ولم يجتلب له التطرية ، ولم يموه بالمظاهر الخادعة ، من مثل التشدق بالكلام وتمطيطه ، وصبغ الحواجب وتدقيقها ، وصقل الأطراف وتنعيمها ، وتعرية الأوراك وأشباهها .

حسن الحضارة مجلوب بتطرية　　　وفى البداوة حسن غير مجلوب
أفدى ظباء فلاة ما عرفن بها　　　مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة　　　أوراكهن صقيلات العراقيب

وهذا المثال — من ناحية أخرى — شاهد لظاهرة بيانية فى شعر المتنبي عن المرأة ، وهى ظاهرة المقابلات والمقارنات ، نطالعها فى كل مثال ، وتتسلل إلينا جميلة فاخرة ويخيل إلينا أن سمات الجمال هى التى فرضتها ، ثم بعد التروى والأناة نكتشف عن مهارة الشاعر وبراعته فى استغلال هذه السمات .

وندع الأمثلة تشهد على هذا الذى نقول :

١ — من قصيدة قالها صبيا يقف موقف الوداع ، فيبكي وتبكي فتاته ، وتمتزج دموعهما وتختلط مع القبلات اللاتي تعاطياها على خوف ، فما شعر إلا وريقها عذب طيب ، هو ماء الحياة الذي يحيي العاشق ، وهو ماء الحياة الذي يحيي الموتى من الأمم السالفة . وقد نظر فوجدها مجهشة متهيئة للبكاء ترنو إليه بعين مثل عين الظبي ، ثم تمسح دموعها التي تشبه الطل من فوق خدها الشبيه بالورد ببنانها المخضوبة المشبهة هذه النبتة الحمراء المعروفة بالعنم . يقول :

قبلتها ودموعي مَزْجُ أدمعها   وقبلتني على خوفٍ فماً لفم

فذقتُ ماء حيـــاةٍ من مقبلها

لو صاب تُرْباً لأحيا سالفَ الأُمم(١)

ترنو إليَّ بعين الظبي مُجهشةً   وتمسح الطَّلَّ فوق الورد بالعَنَم(٢)

وماء الحياة مأخوذ من قول الأعشى :

لو أسندت ميتا إلى نحرها   عاش ولم ينقــل إلى قابر

وتشبيهات البيت الثالث منقولة عن أبي نواس في قوله :

يا قمرا أبصرت في مأتم   يندب شجوا بين أتراب

يبكي فيذري الدر من نرجسٍ   ويلطم الورد بعناب

---

(١) مقبلها : فمها وهو موضع التقبيل . صاب : بمعنى أصاب وبمعنى نزل .

(٢) ترنو : تنظر ، والرنو إدامة النظر مع سكون الطرف . وبعين الظبي : أي بعين مثل عينه . مجهشة : متهيئة للبكاء . الطل : المطر الخفيف وأراد منه دموعها . الورد : يقصد منه خدها . العنم : شجر أحمر أو شجر له نور أحمر تشبه به الأصابع المخضوبة .

٢ — وفى صباه أيضا ينشد :

غُصْنٌ على نَقَوَىْ فلاة نابتٌ ... شمسُ النهار تقلُّ ليلا مُظلما[1]

لم تُجمع الأضـــدادُ فى متشابه ... إلا لتجعلنى لغُرمى مَغْنَما[2]

فهو يريك منها قواما ناحلا فوق كفل ضخم مثلما يريك الغصن النابت فوق كثيبين من الرمل ، ويريك منها وجها مشرقا فى شعر أسود فاحم مثلما يريك شمس النهار تقل ليلا مظلما ، ويقول لك : إن هذه الأوصاف المتضادة لم تجتمع هكذا إلا لتفتنه ، ولتجعله غنيمة لما هو واقع فيه من الغرام ، ولتسترقه بهذا لصاحبته فلا يرجو فكاكا من أسر حبها وهواها .

وقد أراد بقوله « متشابه » أن شخصها تشابهت أعضاؤه وتناسبت حسنا وجمالا ، فكأنه يدفع بهذا خاطرا قد يتوهم ، وهو أن هذه الأضداد تجتمع اجتماع تنافر ، فدل الشاعر على أن اجتماعها إنما هو لتحقيق التناسب والتناسق .

٣ — وفى صباه أيضا يمدح جعفر بن كيغلغ ، ويذكر فى مطلع قصيدته ظباء عدى أى نساءها ، ويصفها فيقول :

لولا ظباءُ عدىٍّ ما شُغفتُ بهم ... ولا بِرَبْرَبِهم لولا جآذِرُه[3]

مِن كُلِّ أحورَ فى أنيابه شَنَبٌ ... خَمْرٌ يخامرها مسكٌ تخامره[4]

---

(١) غصن : قد على سبيل التشبيه . نقوى فلاة : النقوان مثنى نقا وهو الكثيب من الرمل ، والفلاة المفازة . ونقوا الفلاة أرداف على التشبيه . تقل : تحمل . والمراد بشمس النهار وجهها وبالليل شعرها .

(٢) الأضداد : ما ذكرها فى البيت السابق . المتشابه : أراد به شخصها الذى تشابهت أعضاؤه وتناسبت فى الخلقة . الغرم : الغرام وهو الشوق اللازم . المغنم : الغنيمة والمكسب وأصله ما تناله من مال العدو ثم أطلق فى كل مال .

(٣) ظباء عدى : يقصد نساءها . الربرب : القطيع من بقر الوحش . الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . وعنى بالربرب النساء عموما وبالجآذر الشواب منهن .

(٤) أحور : فيه حور ، والحور شدة بياض العين فى شدة سوادها . الشنب : صفاء الأسنان وتحديدها .

نُجْعٌ محاجرُه ، دُعْجٌ نواظرُه حُمْرٌ غفائرُه ، سودٌ غدائره[1]
أعارني سُقْمَ عينيـــه وحمّلني من الهوى ثقلَ ما تحوي مآزره[2]

هؤلاء النسوة الجميلات اللائي عيونهن وأجيادهن كعيون الظباء وأجيادها جمالة يشغف بالقبيلة كلها ، ولولا الجآذر منهن ويعني الشابات المليحات ما شغف بربربهم أي بالنسوة جميعا . ويذكر صفة هؤلاء الشابات الجآذر فالعيون فيها حور ، والأسنان فيها شنب ، والمحاجر بيض ، والأحداق سود ، وكذلك الغفائر ، والخمر حمر ، وفي العيون فتور وضعف ونفاذ الى قلوب المحبين ، يحملهم من الهوى ثقل ما تحوي المآزر من الأرداف الممتلئة .

ولعلك واجد صعوبة في البيت الثاني ، ولكي تتلافاها تقدر كما قدر الواحدي أن أصله : في أثيابه شنب تخامره خمر يخامرها مسك .

وفي البيت الأخير يردد الشاعر معنى مطروقا ، يستملح منه وصف المرأة بفتور العينين وضعفهما وانتقال الأثر منهما الى المحب . وهو معنى حسن ذكره البحتري في قوله :

وكأن في جسمي الذي في ناظريك من السقم

أما تحمل المحب هوى ثقيلا كثقل الأرداف فهو معنى مقبول الفكرة غير مستملح الصورة .

---

(١) نجع : جمع أنجع وهو الأبيض . المحاجر : جمع محجر وهو ما دار بالعين . دعج : جمع أدعج وهو الأسود . النواظر : جمع ناظرة وهي العين . الغفائر : جمع غفارة وهي الخمار أو خرقة توضع فوق الخمار لاتقاء الدهن . الغدائر : جمع غديرة وهي الضفيرة .

(٢) سقم عينيه : أي فتورها . المآزر : جمع مئزر وهو الإزار . وما تحويه المآزر : الأرداف .

٤ — وقال في شبابه ، وعد نفسه شهيد الهوى :

كمْ قتيلٍ — كما قتلتُ — شهيدٍ   ببياض الطُّلَى وورد الخدودِ (١)
وعيونِ المها — ولا كعيونٍ —   فتكتْ بالمتيَّمِ المعمودِ (٢)
دَرَّ دَرُّ الصِّبا ! أأيامَ تجريـ   ـرِ ذيولي بدارِ أثلةَ ؟ عودي (٣)
عَمْرَكَ اللهَ هل رأيتَ بدوراً   طلعَتْ في براقعٍ وعقودِ ؟! (٤)
راميات بأسهمٍ ريشُها الهُدْ   بُ تشقُّ القلوبَ قبل الجلودِ (٥)
يترشَّفنَ من فمي رَشَفاتٍ   هُنَّ فيه أحلى من التوحيدِ (٦)
كلُّ خمصانةٍ أرقَّ من الخمـ   ـرِ بقلبٍ أقسى من الجلمودِ (٧)
ذاتِ فرعٍ كأنما ضُربَ العنـ   ـبرُ فيه بماءِ وَرْدٍ ، وعُودِ (٨)
حالكٍ كالغُدافِ جَثْلٍ ، دَجُوجيٍّ (م) ، أثيثٍ ، جعْدٍ بلا تجعيدِ (٩)
تحملُ المِسْكَ عن غدائرها الرِّيـ   ـحُ ، وتفترُّ عن شنيبٍ بَرُودِ (١٠)

---

(١) كم : خبرية تفيد التكثير . شهيد : القتيل وأصله من يقتل في سبيل الله ثم توسعوا فيه . الطلى : الأعناق .

(٢) المها : بقر الوحش الواحدة مهاة . فتكت . قتلت بغتة . المتيم : من تيمه الحب واستعبده . المعمود : من عمده الحب وأضناه .

(٣) الدر : اللبن ويقال (در دره) في الدعاء له بالخير و (لا در در فلان) في الدعاء عليه بالشر . تجرير الذيول : كناية عن النشاط والفراغ لأن النشيط الفارغ [illegible] بجرير ذيله والتباهي . دار أثلة : اسم موضع بظاهر الكوفة .

(٤) عمرك الله : قسم وعمر منصوب نصب المصادر إذا خلا من اللام ، ومرفوع بالابتداء مع اللام وخبره محذوف .

(٥) الأسهم هنا : العيون . الهدب : شعر الأجفان شبهه بريش الأسهم .

(٦) يترشفن : يرشفن ، والرشف والترشف : المص . التوحيد : أي كلمة التوحيد .

(٧) الخمصانة : بالضم والفتح : الضامرة البطن . القلب : الفؤاد بمعنى . الجلمود : الحجر الصلب .

(٨) ذات فرع : صاحبته والفرع شعر الرأس . ضرب : خلط .

(٩) حالك : شديد السواد وهو نعت للفرع في البيت السابق . الغداف : الغراب الأسود . جثل : كثير ملتف . دجوجي : مظلم . أثيث : كثيف .

(١٠) الغدائر : جمع غديرة وهي الذؤابة . افتر : ابتسم . شنب : أي ثغر شنب والشنب البياض والبريق وتحديد الأسنان . برود : بارد .

حَمَتْ بين جسم «أحمدَ» والسُّقـــم   وبين الجفون والتسهيد

هـذه مهجتى لديكِ ، لِحَيْنى   فانقُصى من عذابها أو فزيدى (١)

أهْلُ ما بى من الضنى بطلٌ صِيـــدَ بتصفيف طُرّةٍ ، وبجيد (٢)

فالمتنبى - فى هذا المطلع الغزلى - يدعى لنفسه الشهادة ، ولكنها شهادة من قتل صبابة وعشقا . قتلته النساء ذوات الأعناق البيض ، والخدود الوردية ، والعيون الحسنة الواسعة كعيون المها ، فبات مقيما معمودا ، واقعا فى رق الحب وأوجاع العشق . وقال : إن العيون التى فتكت به ليست كـكل العيون القاتلات ، فإن عيون محبوباته ليس لها شبيه فى دنيا البشر .

ثم يتمنى أن تعود أيام صباه ، ويتساءل كالجاهل : « هل رأيت بدورا طلعت فى براقع وعقود » فيجعل صواحبه بدورا على الحقيقة ، ولهذا يشك فى أن تكون لهن مثل زينة البدور على التشبيه من مثل البراقع والعقود . ويصف هؤلاء الصواحب بنفاذ العيون وانطلاق نظراتها صوب القلوب فتشقها وتدميها قبل أن تجرح الجلود ، وهذا موطن العجب لأن السهام المعروفة تشق الجلود قبل القلوب ، وهو فى هذا ناظر إلى قول كثير :

رمتنى بسهم ريشه الكحل لم يصب   ظواهر جلدى وهو فى القلب جارح

ثم جعلهن يقتبان عليه حبا وهياما ، فهن يرشفن ريقه رشفات ، لها فى فمه حلاوة مثل حلاوة كلمة التوحيد .

وقد جانبه التوفيق فى هذا البيت من وجهين : أولهما فى هذه الجهالة بما ينبغى

---

(١) المهجة : دم القلب والروح . الحين الفتح : الهلاك .

(٢) الطرة : شعر الجبهة . الجيد : العنق .

أن تكون عليه العلاقة بين الرجل والمرأة ووقوف المرأة موقفاً سلبياً من عرامة الرجل وإيجابيته ، وقد عكس المتنبي فجعل نفسه محبوباً رأسلم فمالمرأة تقتص أسبابه ، وما هكذا يكون العشق .

والأمر الآخر الذي جانبه فيه التوفيق : وصف هذه الرشفات وصفاً يشعر بالإفراط وسخافة التصور ، إذ جعل هذه الرشفات وقفاً أحلى من كلمة التوحيد . ونحن لا نريد أن ندفع عن المتنبي مثل هذه المبالغة المرذولة فهي كثيرة في شعره مثل قوله :

وأعجب منك كيف قدرت تنشا ... وقـــد أعطيت في المهد الكمالا
وأقسم لو صلحت يمين شيء ... لمـــا صلح العباد له شمالا

وقوله :

هنيئاً لأهل الثغر رأيك فيهم ... وأنك حزب الله صرت لهم حزبا
وأنك رعت الدهر فيها وريبه ... فإن شك فليحدث بساحتها خطبا

وقوله :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى ... إلى قول قوم : أنت بالغيب عالم

ومع ذلك فسح المجال لمن دافع عن المتنبي وهو ابن القطاع ، إذ قال : إن لفظة (أفعل) لا توجب التفضيل دائماً وإنما قد يراد منها المقاربة إذا كان للتالي ما حكم أوجب له الزيادة بالدليل الواضح على ما قبلها وكانا من جنس واحد ، مثل قولك : القائد أشجع من عمرو بن معد يكرب ومثل قول المتنبي ، فالقائد على هذا قريب في شجاعته من عمرو والرشفات في بيت المتنبي قريبة من التوحيد(١)

ثم يقول المتنبي : إن صواحبه ضامرات البطون ناعمات الجسوم صافيات اللون ، يبلغن في الرقة مبلغ الخمر ، وفي القسوة على المحبين مبلغ الحجر الصلب .

---

(١) وهذا كلام متين تراجعه إن شئت في شروح الديوان .

فانظر كيف اجتمعت الرقة والقسوة مجودتين متآلفتين غير متنافرتين .

ونظر إلى الرأس ، فرأى شعرا حالكا شديد السواد كسواد الغراب وكسواد الدجوج وهو الظلام ، جثلا كثيرا ملتفا أثيثا ، جعدا على الطبيعة ، مسترسل الذوائب ، طيب الرائحة كأنه معطر بالعنبر وبماء الورد وبالعود وبالمسك ، وتحمل الريح رائحته الطيبة إذا مرت بذؤاباته . ونظر إلى الفم فوجده شفيها برودا ، أى ذا ثغر فيه بياض وبريق وأسنان محززة محددة أو مفلوجة ، يجد من يبوسه طيب نكهة وبرداً لذا .

ويصفها بعد هذا بالفتور وهو محمود فيمن تتخذ حبة وفى المرأة عموما ، فيراها فى فتورها كأنما أخذت من جسمه السقيم ومن جفونه المسهدة . ولهذا يعرض مهجته عليها ويسلمها روحه ، فإن شاءت وصلته فنقصت من عذاب روحه ، وإن شاءت تمادت فى هجرها فزادت عذاب روحه ، ويعلل ذلك بما يقوله فى البيت الأخير : إنه أهل له ، وأهل للضنى الذى هو واقع فيه ، وقد امتحنت بطولته ، فلم تستطع أن تثبت أمام الطرة المصففة والجيد الحسن ، فأسلم البطل سلاحه ولم يقدر على مقاومة الإغراء .

٥ — وفى شبابه أيضا يقول من قصيدة يمدح بها محمد بن عبيد الله العلوى المشطب :

بانوا بخُرْعوبةٍ لهــا كَفَلٌ … يكادُ عند القيام يُقْعِدُها(١)

رِخْلَة ، أسمر مُقَبَّلُهــــا … سِبَحْلَة ، أبيض مجرَّدها(٢)

فهو يتألم لأن أهل صاحبته هذه ذهبوا بها ، وكان يود ألا يذهبوا بها ؛ ليتزود منها قبل أن يوجد ميتا :

---

(١) بانوا : ذهبوا وفارقوا . الخرعوبة : الشابة اللينة الطرية . الكفل : الردف والعجيزة .

(٢) رخلة وسبحلة : جسيمة ضخمة طويلة عظيمة . مقبلها : موضع التقبيل منها وهو الفم . مجردها : الموضع الذى يظهر من جسمها لا يغطيه الثوب .

يا حاديي عيرها – وأحسبني أوجد ميتا قبيل أفقدها –
قفا قليلا بها علي ، فلا أقل من نظرة أزودها

وهذه الصاحبة شابة لينة طرية ناعمة ذات كفل ثقيل يكاد يقعدها كما قال أبو العتاهية :

بدت بين حور قصار الخطا تجاذب بالمشي أكفالها

وهذه الصاحبة جسيمة سمينة ، طويلة .

لمياء في شفتيها حوة لعس وفي اللثات وفي أنيابها شنب(١)

وهذه الصاحبة بيضاء اللون ، وخص المجرد بالبياض لأنه إذا كان كذلك وهو البادي للشمس كان سائر بدنها الذي تغطيه الثياب أكثر بياضا .

٦ – ويفتتح مدحته لأحمد بن عبد الله بن يحيي المنجم بهذا النسيب :

أريقك أم ماء الغمامة أم خمر
بفيّ برود وهو في كبدي جمر(٢)
أذا الغصن أم ذا الدعص أم أنت فتنة
وذيّا الذي قبلته البرق أم ثغر(٣)
رأت وجه من أهوى بليل عواذلي
فقلن : نرى شمسا وما طلع الفجر(٤)

---

(١) البيت لذي الرمة .
(٢) برود : بارد [illegible] أي [illegible] كالجمر .
(٣) الغصن : يشبه به القوام ، الدعص : كثيب الرمل ويشبه به الردف ، ذيا : ذا الإشارة مصغرة .
(٤) العواذل : جمع عاذلة وهي اللائمة .

وأين التي السـحر في لحظاتهـا

سيوفٌ ظباها من دمى أبدا حُمْر(١)

تناهى سكونُ الحسن في حركاتها

فليس لراء وجهها لم يَمُتْ عُذر

والمتنبي في أول هذا الوصف يدرى شيئا ولا يدرى شيئا ؛ فهو يدرى أن ما ذاقه من محبوبته بارد في فمه ، حار في كبده ، لأنه يشعل الهوى ويلهب حرارته ، وهو لايدرى طبيعة ماذاقه : أهو الريق والرضاب أم هو ماء الغمامة أم هو الخمر — تجاهلا منه واستملاحا — كذلك لايدرى طبيعة مقبلها أهو برق أم ثغر ، ولايدرى سر الفتنة بها : أمن هـذا القوام الممشوق كالغصن أم من هـذا الردف الملوء كالدعص

ويتحول الشاعر إلى وجهها فيراه مشرقا وضاء ، ويدعى أن العواذل تبصره في الظلام فتقر بطلوع الشمس من قبل أن ينصدع الفجر . وإذا أقرت العواذل بهذا وهن ينكرن حبه كان هذا الإقرار شاهدا على بلوغ حسنها المدى . ثم جعل نظراتها صائبة ، وحركاتها فاتنة تناهى سكون الحسن فيها ، فمن يرها على هذا الحسن وعلى هذه الفتنة فيقع في حبها يعذر إذا مات شهيدها .

ونلاحظ في البيت الأخير ارتباط سكون الحسن بحركات المحبوبة ، إشارة إلى أن الحسن قار في هذه الحركات ونلاحظ في البيت قبل الأخير أنه جعل السحر قاتلا ، ومن أجل هذا جعل لحاظها سيوفا ، وجعل ظباها تطول دمه فيحمر لونها من لون هذا الدم المطلول .

---

(١) الظبا : جمع ظبة (وزان ثبة) وهى حد السيف وما إليه .

٧ – وفي مطلع مدحته لعبيد الله بن خلكان الطرابلسي يقول :

أظبيةَ الوحش لولا ظبيةُ الأنَسِ
لما غدوتُ بجَدٍّ في الهوى تَعِسِ (١)
ولا سقيتُ الثرى والمُزْنُ مُخلِفةٌ
دمعاً ينشّفُه من لوعة نَفَسي (٢)
ولا وقفتُ بجسمٍ – مُسْيَ ثالثةٍ –
ذي أرْسُمٍ دُرَّسٍ في الأرسُمِ الدُّرُسِ (٣)
صريعَ مقلتها سآلَ دِمْنتها
قتيلَ تكسيرِ ذاك الجفن ، واللَّعَسِ (٤)
خريدةٌ لو رأتها الشمسُ ما طلعتْ
ولو رآها قضيبُ البان لم يَمِسِ (٥)
ما ضاق قبلكِ خَلخالٌ على رشأٍ
ولا سمعتُ بديباجٍ على كَنَسِ (٦)

---

(١) الأنس (بفتحتين) : جماعة الناس والحي المقيمون ومصدر أنس خلاف أوحش . الجد : الحظ والبخت . والتعس : المراد به المنحوس المشئوم ، والأصوب أن يقال (تاعس) .

(٢) الثرى : التراب . المزن : السحاب الأبيض . مخلفة : أي غير ماطرة .

(٣) مسي ثالثة : أي مساء ليلة ثالثة ، والمسي المساء كالصبح والصباح . ذي أرسم : أي جسم ذي أرسم والأرسم الرسوم جمع رسم وهو الأثر . الدرس : جمع دارس وهو الزائل .

(٤) الدمنة : ما اسود من آثار الديار . اللعس : سمرة في الشفة وهو معطوف على تكسير .

(٥) الخريدة : الحيية الخفرة . لم يمس : لم يتمايل .

(٦) الرشأ : الظبي الصغير . الكنس (بفتحتين) والكناس : الموضع الظليل الذي تختبئ به الظباء من شدة الحر ، والمقصود به هنا هودج المرأة .

فالشاعر يتخذ من ظبية الوحش صديقة يتحدث إليها عما يلقاه من شبيهتها ظبية الأنس ، فلولا هذه الظبية الإنسية ما غدا ناعساً فى حظه من الهوى ، ولولاها ما بات يسكب الدموع غزيرة ، وما التاعت أنفاسه ، ولولاها ما نحل جسمه وصار كهذه الرسوم والدمن الباهتة التى وقف فيها مساء الليلة الثالثة من رحيل الظبية الإنسية يسائلها عنها ، وقد أصبح صريع مقلتها ، شهيد الجفن المتكسر ، والشفة اللمياء .

وهذه الظبية الإنسية خفرة حيية ، وهى فى نظره أعلى من الشمس حسنا وبهجة ووضاءة ، وألطف من قضيب البان ليناً وتثنيا وحركة .

ويفترض الشاعر أن الشمس تمتنع عن الطلوع لو رأت صاحبته ، وأن الغصن يكف عن الحركة لو شاهد محبوبته .

وبعد هذا يدعوها رشا أى ظبياً صغيرا يتخذ من كناسه مراحا ، ولكنه يجد بينها وبينه فارقا ، فهى ممتلئة الرجل يضيق عليها الخلخال ، وهى تتخذ الهودج وتستره بالأستار من الحرر .

٨ — ويمدح الحسين بن إسحاق التنوخى ، فيقول بعد حديث قصير عن الفراق :

رَشَفْتُ فَاهَا سُحْـــرَةً فَكَأَنَّنِى
رَشَفْتُ حَرَّ الوَجْدِ مِن بارِدِ الظَّلْمِ (١)
فتاة تَسَاوى عِقْـــدُها وكلامُها
ومَبْسِمُها الدُّرِّىُّ فى الحُسْنِ والنَّظْمِ

---

(١) ترشفت فاها : رشفته والرشف المص . سحرة : سحراً . الظلم (بالفتح) : الثلج وماء الأسنان .

وَنَكْهَتُهَا والمندلُ وقَرْقَفٌ   معتقةٌ صَهْبَاءُ فى الريح والطعم[1]

فهذه الفتاة ذات رضاب يحسه باردا فى ظاهره حاراً فى حقيقته لأنه يزيده هياما ، وهذه الفتاة تساوى فى الحسن والنظم عقدها الدرى وكلامها الدرى ونثرها الدرى .

وهذه الفتاة نكهتها طيبة ، تستوى مع رائحة المندل ، ومذاق القرقف المعتقة ، ومذاق الصهباء .

والشاعر التذ رضاب فتاته فى أوان السحر ، لأنه رضاب طيب دائما ، وإذا كان فى وقت السحر طيباً فهو فيما سواه أطيب ، لأن الأفواه تتغير وقت السحر . وساوى بين عقدها وكلامها ونثرها فزاد على البحترى فى قوله :

فمن لؤلؤ تبديه عند ابتسامها   ومن لؤلؤ عند الحديث تساقطه

وجمع فى البيت الثالث بين النكهة والمندل فى الرائحة ، ثم بين النكهة والخمر فى الطعم ، ولهذا كرر وجه الشبه ، وأتى به على طريق اللف والنشر المرتب .

٩ — وفى مطلع مدحته لعلى بن إبراهيم التنوخى يقول بعد بيتين دعا فيهما على ربوع المحبوبة بالمحاش وسقيا السم ، لأنها لم تسعده بالإجابة عن سؤاله : أين ذهب أهلها ، ولأنها لم تساعده على البكاء :

لحاها الله إلا ماضييهـــا   زمان اللهو والخَوْدَ الشَّمُوعا[2]

منعمة ، ممنعـــة ، رداح   يكلّفُ لفظَها الطيرَ الوقوعا[3]

---

(١) النكهة : رائحة الفم . المندل : العود يتبخر به منسوب إلى مندل وهو مكان فى أرض الهند يجلب منه . القرقف والصهباء : من أسماء الخمر .

(٢) لحاها الله : أى قبحها الله والضمير عائد على الربوع فى أول القصيدة (ملث القطر أعطشها ربوعا) ، وأصله من لحوت العود إذا قشرته ثم صار يستعمل فى الدعاء على الشيء . الخود : الناعمة . الشموع : اللعوب الضحوك .

(٣) رداح : ضخمة الردفين ثقيلة الوركين .

ترفعُ ثوبَها الأردافُ عنها ... فيبقى من وشاحيها شسوعا(١)

إذا ماستْ رأيت لها ارتجاجا ... له — لولا سواعدُها — نزوعا(٢)

تألّمُ دَرْزَه والدرزُ لَيْنٌ ... كما تتألّمُ العضبَ الصنيعا(٣)

ذراعاها عدوّا دُمْلُجَيْها ... يظنّ ضجيعُها الزندَ الضجيعا(٤)

كأنّ نقابهـا غيمٌ رقيق ... يضيء بمنعه البدرَ الطلوعا(٥)

والمتنبي مغتبط محنق من هذه الربوع، فهو ما يزال يلحاها ويدعو عليها بالقبح، إلا ما كان له فيها مضى من الزمان، زمان اللهو والأنس والبهجة والسرور، ووصال الخود الناعمة اللعوب الضحوك، المنعمة الرافلة في النعمة، المنعمة المصونة، الرداح العجزاء، الناعمة الكلام العذبة المنطق إلى درجة إعجاب الطير به ووقوعه من حسنه.

وتعجبه سمنتها، فيراها ذات أرداف عظيمة ترفع ثوبها عنها، وتمنعه أن يلتصق بجسدها، فيبقى بعيداً من وشاحيها اللذين تتشح بهما من يمين وشمال، وإذا مشت تميس محركة روادفها وارتجت نزوعا لثوبها، لولا أن ساعديها يمسكان الثوب لالتصاقه بهما، فقد امتلأ الساعدان، وبلغت السمنة بذراعيها حداً، التبس الأمر على ضجيعها معه، فيظنها زندها المفتل الضخم، والدملجان يضيقان عن عضديها لامتلائهما

---

(١) الوشاح : [illegible] ترسلهما من يمين وشمال. شسوعاً : بعيداً.

(٢) [illegible] والمرأة [illegible] الثوب

(٣) تألم : [illegible] فالخياط الدرزي والعامة تقول (الدرزي) [illegible] تتعدى باللام والباء ومن، [illegible]

(٤) [illegible] على العضد والمعصم [illegible] المرفق إلى الكتف. والزند : [illegible]

(٥) [illegible] الطلوع [illegible] طلوع

وهذه المحبوبة ناعمة البدن رقيقة البشرة « لها بشر مثل الحرير » ، فهى لنعومتها ورقتها تتألم من حرز الثوب وتتوجع إذا أصابها موضع الخياطة منه ، فيؤثر فى بدنها مثل تأثير السيف الصنيع ، مع أن الدرز كما نعلم لين فى حقيقته .

وهذه المحبوبة مشرقة ، يضىء وجهها ولو من وراء نقاب ، فيبدو لك هذا النقاب أشبه بالغيم الرقيق الذى يمنع الشمس الطلوع ، وهو مع ذلك مضىء بضوئها . كما قال بشار :

بدا لك ضوء ما احتجبت عليه   بدو الشمس من خلل الغمام .

١٠ — ويمدح أبا الفرج أحمد بن الحسين القاضى ، فيبدأ المدحة بقوله :

لجنيـــــة أم غادة رُفِعَ السَّجْفُ ؟
لوحشية ؟ لا . ما لوحشية شَنْفُ[(١)]
نَفُورٌ عَرَتْها نَفْرَة فتجـــــاذبتْ
سـوالفُها والحَلْى والخصْر والردف[(٢)]
وخُيِّل منهـــا مِرْطُها فكأنمـــا
تثنى لنا خُوطٌ ، ولاحظنا خِشْفُ[(٣)]

---

(١) الجنية : واحدة الجن . الغادة : المرأة الناعمة كالغيداء . السجف : جانب الستر إذا كان شقين . وحشية : أى ظبية وحشية . الشنف : ما يعلق فى أعلى الأذن . وفى الشطر الأول استفهام تعجبى . وفى بداية الشطر الثانى فى قوله (لوحشية) استفهام تعجبى أيضاً ويجوز أن يكون جواباً من استفهامه الأول .

(٢) السوالف : جمع سالفة وهى صفحة العنق .

(٣) خيل بالياء المثناة مبنيا للمفعول أى تخيل ، وبالباء الموحدة مبنيا للفاعل أى ستر .

زيادةُ شيب وهْي نقصُ زيادتي
وقوة عشق وهْي من قوّتي ضعف[1]

هراقت دمي مَن بي من الوجد ما بها
من الوجد بي والشوق لي ولها حِلْف[2]

ومن كلما جرّدتها من ثيابها
كساها ثيابا غيرها الشَّعَرُ الوَحْف[3]

وقابلني رمانتا غصن بانة
يميلُ به بدرٌ ويمسكُهُ حِقْف[4]

يبدأ المتنبي بالسؤال التعجبي عن هذه التي رفع السجف لها ، ويحار يظن أن يراها من الجنيات السواحر أو من غادات الإنس النواعم . وإنه ليراها ذات شنف وجيلة جمال الظبية الوحشية في آن فهيكر أن يرى ظبية ذات شنف وأقراط. وإن صاحبته لتفوق بطيبتها ، وأصابتها ندرة عارضة ، فاضطربت لذلك اضطرابا تجاذبت له سوالفها وحليها من ناحية ، وخصرها وردفها من ناحية ، كل يجذب الآخر إليه ويتدانى معه ، وإنها للشخص بدويها شخوصا فتتمثل لمن يراها غصنا يمايل وظبيا يرنو ، كما قال ابن الرومي :

إن أقبلت فالبدر لاح ، وإن مشت فالغصن مال ، وإن رنت فالريم

ويذكر أن إصابته بالشيب نقصت ما كان ازداد به من الشباب ، وأن زيادة قوة العشق عنده أضعفت قوة بدنه ، فقد تدله بحبها وسار به من الوجد بها مثل

---

(١) زيادة : خبر مبتدأ محذوف أي حالي زيادة شيب . . .

(٢) هراقت وأراقت : أسالت . حلف : أي لازم . وأصل العبارة : أراقت دمي من بي من الوجد بها مثل ما بها من الوجد بي .

(٣) الوحف : الكثير الملتف .

(٤) الرمانتان : الثديان . وغصن البانة قدها . والبدر وجهها . والحقف عجيزتها — كل ذلك على التشبيه .

ما بها من الوجد به ، وصار الشوق لهما حليفا . ومن أجل هذا الوجد وهذا الحب أريق دمه واحترق من الشوق .

ويعود إلى الجمال الجسدي ، فيقول : إنها ذات شعر وحف كثيف يكفي لتغطية جسمها إذا جردتها من ثيابها : وإنها ذات صدر ناهد كأن ثدييه رمانتان، وذات قامة نحيلة كأنها غصن البان ، ووجه مشرق كأنه البدر ، ورد ف ثقيل كأنه حقف الرمل ، وتتعرض قامتها الميل والانكسار عندما تتجه إلى شيء بوجهها ، ثم لا يسعفها ردفها على الحركة وإعطاء القامة حريتها ، إذ يمسك بها ويقعدها أو يكاد .

والمتنبي ما زال مفتونا بصورة الجمال الأنثوي التي ارتضاها العرب ، وإن نما ذوقه في كسوة صاحبته بالشعر وهو يجردها من ثيابها . والمتنبي لم يعرف الحب معرفة المحبين الوالهين ، فقد أدعى أنه ازداد سقما واحترق شوقا وهريق دما ، وله أن يدعى هذا وأن يكونه ، لكنه حمل نفسه ومحبوبته على درجة سواء في الوجد والشوق . والعاشق المدله يحمل عبء الوجد والشوق من دون محبوبته التي يراها غافلة لاهية لا تعبأ به ويزيد هذا في احتراقه وذبوله ونحوله وأرقه وضنى جسده .

١١ — وعندما مدح المغيث بن علي بن بشر العجلي قال بعد أن سقى الربع دموعه كأنها الأمطار ، وداعب طيف محبوبته وهو يتجافى عنه ويأبى وصاله :

هام الفؤاد بأعرابية سكنت   بيتا من القلب لم تمدد له طنبا(١)

مظلومة القدّ في تشبيهه غصنا   مظلومة الريق في تشبيهه ضربا(٢)

بيضاء تطمع فيما تحت حلتها   وعزّ ذلك مطلوبا إذا طلبا

---

(١) هام : أحب حبا شديدا ، والهيام أن يذهب الرجل على وجهه لغلبة الهوى عليه .
الطنب : حبل الخباء ونحوه
(٢) الضرب : العسل

كأنها الشمسُ يعيي كفَّ قابضه شعاعُها ، ويراه الطرْفُ مقتربا[1]

مرّتْ بنا بين تِرْبيها . فقلتُ لها :

من أين جانَسَ هذا الشادنُ العرَبا[2]

ومحبوبته هذه المرة أعرابية،هي في عينه رقيقة القد ناحلة الخصر ، حلوة الريق معسولة الرضاب ، بيضاء تغرى ببياضها ولين حديثها ، فإذا ما حاولت بلوغ أرب منها صدتك وأياستك ولم تمكنك من هذا المستور الذى أطمعتك فيه .

واستعان المتنبي بالصور التشبيهية في الحديث عن محبوبته ، فهي الأعرابية التي اعتادت سكنى الخباء ولكن خباءها هذه المرة هو قلبه اتخذته بيتا دون أن تتعب في إعداده ، ورمز لهذا التعب الذى لم تكلفه بعد الطنب والحبل . وهي أشبه بالغصن ولكنها « مظلومة القد في تشبيهه غصنا » إذ هي أرق منه وأدق . وهي أشبه بالعسل ولكنها « مظلومة الريق في تشبيهه ضربا » إذ ريقها أحلى منه وألذ . وهي مطمعة مؤيسة كالشمس يدنو شعاعها ويعيي كف قابضه كما يقول الطرماح :

تراها عيون الناظرين إذا بدت قريبا ، ولا يسطيعها من يرومها

وهي ذات تربين وبين الثلاث مجانسة ، هي موطن العجب والدهش ، لأنها شادن من الظباء وتِرباها من العرب . وهما — من باب تجاهل العارف — جنسان مختلفان ولهذا صح له أن يدهش لما يرى من التشابه بينهما .

١٢ — ويفتتح مدحته لعلى بن منصور الحاجب بقوله :

بأبى الشموس الجانحات غواربا اللابسات من الحرير جلاببا[3]

(١) يعيي : يعجز ، والضمير في قابضه للشعاع . الطرف : النظر .
(٢) تربيها : رفيقتي عمرها ، والترب المساوى لغيره في العمر للذكر والأنثى ، الشادن : الظبي قوى ، وترعرع واستغنى عن أمه .
(٣) بأبى : أسلوب يعبر عن معنى الفداء . الجانحات : المائلات . غواربا : أي بعيدات . الجلابب . الجلابيب جمع جلباب وحذفت الياء من الجمع للشعر . والشموس ترفع على الابتداء والخبر محذوف تقديره مفديات أو تنصب مفعولا لفعل محذوف تقديره أفدى .

المُنهِبات قلوبَنـــا وعقولنا　　　وجناتِهنّ الناهبات الناهبا(١)
الناعمات القـــاتلات المحييا　　　ت المبديات من الدلال غرائبا(٢)
حاولنَ تفديتي وخفنَ مراقبا　　　فوضعن أيديهن فوق ترائبا(٣)
وبَسَمْنَ عن بَرَدٍ خشيتُ أذيبهُ
من حرّ أنفاسي فكنتُ الذائبا(٤)
ياحبذا المتحملون ، وحبذا　　　وادٍ لثمتُ به الغزالة كاعبا(٥)

يفدي الشاعر بأبيه هؤلاء النسوة اللائي يرحلن عنه ويفترقن عن ناظره ، ويراهن في إشراقهن أشبه بالشموس المشرقات ، وينظر زينتهن من الحرير ، وجمال وجناتهن الورديات ، وهن اللائي نهبن الناهبين وأسرن من كانوا في مثل شجاعته وجرأته ، وهن ناعمات خليات ، يقتلن بهجرهن وصدودهن ، ويحيين القلوب بوصالهن وإقبالهن ، ويبدين فيما بين هذا وهذا ألوان الدلال والجرأة على الرجال .

ثم يذكر أنهن عند الفراق أردن أن يقلن له (نحن فداؤك) ولكنهن خفن الرقيب فأشرن إلى التفدية بوضع أيديهن على صدورهن ، وابتسمن للتمويه على الرقيب ، فرأى المحب من وراء البسمة أسنانا بيضا لامعة كأنها البرد وحب الغمام ،

---

(٢) المنهبات : اسم فاعل من أنهب يتعدى إلى مفعول واحد وإلى مفعولين ، فعلى الأول يكون فاعله وجناتهن ومفعوله قلوبنا ، وعلى الثاني يكون وجناتهن مفعوله الأول وقلوبنا مفعوله الثاني . الناهبات : نعت لوجناتهن والناهب مفعول الناهبات والمقصود بالناهب الرجل الجريء الذي ينهب الناس .

(٣) الناعمات : من النعومة وهي اللين . القاتلات بالهجر . المحييات بالوصل . الدلال : جرأة المرأة على الرجل في تكسر وتغنج .

(٤) الترائب : موضع القلادة من الصدر .

(٥) البرد : حب الغمام شبه به الأسنان .

(٦) المتحملون : المرتحلون . الغزالة : الظبية الصغيرة والشمس . الكاعب : الفتاة كعب ثدياها أي بدوا وبرزا .

وصدق صورته التى تخيلها ، وتناسى أنه هو صانع هذا التشبيه الذى اجتلبه ، فادعى أنه امتنع عن القرب من تنورهن وتقبيلهن قبلات الوداع ، حتى لا تذيب حرارة أنفاسه هذا البرد الجميل ، ولكنه أفاق على الحقيقة حينما ارتد إلى نفسه فوجدها هى التى تذوب من الشوق ، ثم يدرك أنهن لا حيلة لهن فيما كن فيه من الرحيل فيمدحهن ويذكرهن بالخير ، ويذكر واديا شهد اللقاء بينه وبينهن ، وقبلة طبعها على جبين الفتاة الحسناء الكاعب الشبيهة الغزالة .

والمتنبى مشغوف بالجمال المادى ، تفتنه ظواهره ، وإن شئت فقل : إنه هنا صانع أوصاف لا غير ، ومن أجل هذا لا نحس روحا لمثل هذا الحديث عن المرأة، لأنه لم يصدر عن عاطفة . ولم يعده رائد أصيل من خيالات المحبين وأوهامهم ، فجاء كما ترى مصنوعا مزوقا . ومما يشهد لذلك إيقاعه الحب على الحسناوات بالجملة، وهذا الاضطراب الذى تدركه عند قراءة البيت الثانى وتحاول أن تلتمس مكان الكلمات فيه حتى تفهم عنه قصة الذهب الذى يكاد — بتكراره ثلاث مرات — يبهم المعنى ، فإن زال الإبهام بقى التعقيد اللفظى والثقل الحرفى .

١٣ — ويصف نفاته راحلة عندما مدح عبد الواحد بن العباس بن أبى الإصبع الكاتب ، فيقول :

سَفَرَتْ وبَرْقَعَهَا الفِـــراقُ بصُفْرةٍ
سَتَرَتْ محاجرها ولم تك بُرقعا(١)
فكأنهـــا والدمع يقطر فوقهـــا
ذهبٌ بسِمطَىْ لؤلؤٍ قد رُصِّعـــا(٢)

---

(١) سفرت : كشفت عن وجهها . المحاجر : ما حول العين .
(٢) فكأنها ذهب : أى فكأن الصفرة ذهب : السمط : الخيط تنظم فيه القلادة .

كشفت ثلاث ذوائبٍ من شَعرها ... في ليلةٍ فأرتْ ليالِيَ أربَعا(١)

واستقبلتْ قمرَ السماء بوجهها ... فأرتنيَ القمرَين في وقتٍ معا(٢)

فهذه الفتاة المودعة سفرت عند الرحيل فبان منها: جزع بصاحب الفراق كسا وجهها بصفرة بدت فيها متبرقعة ولم تك برقعا على الحقيقة. وبكاء سالت معه دموعها على الوجه المصفر فاختلطت الصفرة والبياض مثل اختلاط الذهب واللؤلؤ عند ترصيعه، وحسرة حسرت معها عن شعرها ذي الخصلات السود الثلاث فتراءت له مع الليل المظلم أربعا لا ثلاثا. وألم لهذا الفراق رغبت في التعبير عنه فلم تستطع أكثر من أن تنظر نظرة صامتة نحو قمر السماء فاجتمع له عند الرؤية قمران: وجه الحبيبة وبدر السماء.

وأنت تلحظ أن الشاعر أفرغ همه في أن يجد صوراً لهذا الجمال الذي يشهده لا أن يتحدث عن لواعج الشوق ويتخيل ما بعد الوداع من الضنى والعذاب والهموم. بيد أننا نحمد للشاعر أنه لم يجاوز الرأس الى ما سواه من أعضاء الجسم.

١٤ — ويصدر إحدى مدائحه لبدر بن عمار بهذه الأبيات في وصف صاحبته:

كأنها قدّها إذا انفتلتْ ... سكرانُ من خمر طرفها ثَمِلُ(٣)

يجذبها تحت خصرها عجزٌ ... كأنه من فراقها وَجِلُ(٤)

---

(١) الذوائب: جمع ذؤابة وهي الخصلة من الشعر.

(٢) قمر السماء: البدر. والقمران: هنا البدر ووجهها، أو البدر أو الشمس المشبهة هي به.

(٣) انفتلت: تمايلت والتوت وانصرفت. طرفها: لحظها. ثمل: نال منه الشراب.

(٤) العجز: الردف. وجل: خائف.

بى حَرُّ شوقٍ إلى ترشُّفها   ينفصلُ الصبرُ حين يتّصل (١)
الثغرُ ، والنحر ، والمُخلخَل ، والمعصمُ دانٍ ، والفاحم الرَّجَل (٢)

وهنا يرصد أعضاء الجسم جميعا ، فقامتها إذا انفتلت تلتوى وتتمايل كسكران ثمل من سحر نظراتها ، أو كأن قامتها نظرت إلى ناظريها فسكرت من خمر عينيها كما يسكر منها عشاقها . وعجزها لثقله يجذب خصرها إليه إذا حاولت النهوض كأنه خائف أن تفارقه وهو بها جد معجب والشاعر المحب به شوق ولوعة إلى ارتشاف رضابها الحلو اللذيذ ، فإذا وصلته وعطفت عليه هدأ صبره وانفصل عنه هذا الصبر الذى يطيقه مرغما أولا يطيقه ، وإنه ليهوى فيها مواضع الفتنة : ثغرها ، ونحرها ، ومخلخلها ، ومعصمها ، وشعرها الفاحم الرجل .

١٥ — وفى قصيدة أخرى يمدح فيها بدر عمار يقول عن صاحبته وصواحبها :

لبسْنَ الوشْىَ لا مُتجملاتٍ   ولكنْ كى يَصُنَّ به الجمالا (٣)
وضفّرن الغدائر لا لحسنٍ
ولكن خِفْنَ فى الشَّعَرِ الضلالا (٤)
بجسمى مَنْ بَرَتْه ، فلو أصارتْ   وشاحى ثَقْبَ لؤلؤة لجالا (٥)
ولولا أننى فى غير نوم   لكنتُ أظننى منى خيالا

(١) ترشفها : أى ترشف فيها ، والترشف والرشف المص .
(٢) الثغر : مقدم الأسنان ويطلق على الفم . النحر : أعلى الصدر . المخلخل : موضع الخلخال من الساق . المعصم : موضع السوار من اليد . الفاحم : الشديد السواد يريد به الشعر . الرجل (بفتح الجيم وكسرها) الشعر بين السبط والجعد .
(٣) الوشى : الثياب المنقوشة . متجملات : متزينات .
(٤) الغدائر : جمع غديرة وهى الخصلة من الشعر .
(٥) بجسمى من برته .. : أى أفديها بجسمى . وبرته أى هزلته وجعلته كالبرى . الوشاح : قلادة تشد فوق الثوب بين العاتق والكشح .

بَدَتْ قمراً ، ومالتْ خُوطَ بانٍ ،

وفاحتْ عنبرا ، ورنَتْ غزالا(١)

وجارت في الحكومة ثم أبدتْ لنا من حُسْنِ قامتِها اعتدالا(٢)

فالصواحب مستغنيات بحسنهن عن التجمل بلبس الثياب المنقوشة ، ولكنهن يلبسنها ليصن بها الجمال عن أعين الناظرين الناهبين ، ومستغنيات عن تضفير شعورهن ، وإنما ضفرنها خشية أن يضللن فيها فيما لو أرسلنها . ويعدل إلى صاحبته فيفديها بجسمه على الرغم من أنها برته وهزلته ، حتى صار من النحول بحيث يسعه ثقب اللؤلؤة أو الوشاح في سمة ثقب اللؤلؤة وحتى صار كالخيال في الدقة ، فهو — لولا إحساسه باليقظة — يظن نفسه هذا الخيال الذى يتراءى في المنام . ويذكر بعد هذا علة تعلقه بها ، إذ يراها جميلة مشرقة كالقمر ، وضامرة الخصر معتدلة القوام كخوط البان ، وطيبة معطارة كالعنبر ، وساحرة الطرف كالغزال . ولقد كان ينتظر منها أن تنصفه فلا تجور عليه بالصد ولا تظلمه بالهجر ، وكان يرتقب أن تميل إلى الاعتدال في معاملته مثلما يميل إلى الاعتدال قدها ، ولكن بدد الواقع أوهام أمانيه ، والواقع : جور في الحكم ، واعتدال في الجسم ، وبينهما ضاع الأمل .

١٦ — ويمدح أبا محمد الحسن بن طغج أمير الرملة فيصف الحسان :

حِسانُ التثنى يَنقش الوشيُ مثلَه

إذا مِسْنَ — في أجسامهن النواعمِ(٣)

(١) خوط بان : غصن بان . رنت : نظرت . والمنصوبات في البيت أسماء في موضع الحال أو على المفعولية لفعل التشبيه المحذوف .

(٢) جارت في الحكومة : مالت في الحكم عن الحق .

(٣) الوشى : الثياب المنقوشة أو هو النقش في الثوب . مسن : ايتختزن .

وبَبسِمن عن دُرٍّ تقلَّدن مثله
كأنّ التراقِي وُشّحتْ بالمباسم(١)

فهؤلاء الحسان إذا مسن وسرن متبخترات أثر الوشى فى أجسامهن النواعم مثل صورته ؛ لما فى أبدانهن من رقة ونعومة تؤهلانها لمثل هذا الأثر ، وإذا بسمن بسمن عن ثغور صافيات منظومات مثل الدر الذى تقلدته تراقيهن ، فكأن هذه التراق وشحت بمباسمهن وحليت بثغورهن وربما يبدو هذا خيالا بعيدا ، ولكنه متداول كما قال الشاعر :

تلك الثنايا من عقدها نظمت أم نظم العقد من ثناياها

ونحوه قول المتنبى الآتى :

لما بشر الدر الذى قلدت به ولم أر بدرا قبلها قلد الشهبا

١٧ — ويمدح سيف الدولة ، فيذكر بأحد الربوع وصلا قصرت أيامه حتى كأن لم يكن لسرعة انقضائه ، وعيشا وشيك الانقطاع كأنه كان يقطعه وثبا وقفزا :

ذكرتُ به وصلاً كأن لم أفز به
وعيشا كأنى كنت أقطعه وثْبا(٢)
وفتّانةَ العينين ، قتّالةَ الهوى إذا نفحت شيخا روائحُها شبا(٣)

---

(١) التراق : العظام فى أعلى الصدر واحدتها ترقوة . وشحت : زينت المباسم : جمع مبسم وهو الثغر موضع الابتسام .

(١) ذكرت به : أى بالربع فى أول القصيدة (فديناك من ربع وإن زدتنا كربا) .
الوثب : القفز والطفر .

(٢) نفحت : تضوع ريحها الطيب ، وقد ضمنه هنا معنى أصابت ولذا عداه بنفسه . شب : صار إلى الشباب .

لهـــا بَشَرُ الدر الذى قُلِّدتْ به

ولم أر بدراً قبلهـــا قُلِّد الشُّهْبا(١)

وفى هذا الرجز يذكر محبوبته ، التى تفتن عيناها ، ويقتل هواها ، وإذا مرت روائحها بشيخ دعته إلى صبوة الهوى وعرامة الشباب ، ولونها كلون الدر الذى تقلدته ، وحسنها كحسن البدر المشرق ، وقلائدها كالدرارى من النجوم . ويتقاصى التشبيه حين يعجب من تقلد البدر الشهب .

١٨ — وفى مدحة ثانية يصف محبوبته بأنها :

مُطاعةُ اللحظ فى الألحاظ مالكةٌ   لمقلتيها عظيمُ الملك فى المقل

تَشَبَّهُ الخَفِراتُ الآنساتُ بها   فى مشيها فينلن الحسن بالحيل(٢)

فهذه المحبوبة مطاع لحظها من بين ألحاظ الحسناوات ، وإذا دعا لحظها أحدها إلى الهوى لباه خاشعا مطيعا ، ولهذا كان لمقلتيها ملك عظيم فى دولة المقل ، وأصبحت أنموذجا لبنات جنسها فالآنسات الخفرات الحييات يرين فى أنفسهن قصوراً عنها ، ويرغبن فى أن يكون لهن مثل حسنها ، فيتشبهن بها فى مشيتها ، ويحتلن على مثل دلها ، حتى ينلن هذا الحسن بالاكتساب والمعالجة .

١٩ — وفى مدحة ثالثة يقول فى مطلعها :

لعينيك ما يلقى الفؤادُ وما لقى   وللحب ما لم يبق منى وما بقى(٣)

---

(١) البشر والبشرة : ظاهر الجلد . الدر : اللؤلؤ العظيم . الشهب : الدرارى من النجوم .

(٢) تشبه : تتشبه . الخفرات : الحييات . الآنسات : جمع آنسة وهى الفتاة الطيبة النفس

(٣) لعينيك : أى لأجل عينيك فاللام للتعليل . وللحب (ويروى وللشوق) : أى له خالصا فاللام المالكية .

وما كنتُ ممن يَدخل العشـــقُ قلبَه
ولـكنّ من يبصر جفونَك يعشق

وغضي من الإدلال سكرى من الصبا
شفعتُ إليهـــا من شبابي بريّق(١)

وأشنبَ معسولِ الثنيات واضح ... سترتُ فمي عنه فقبّل مفرقي(٢)

وأجيادِ غزلانٍ كجيدك زرنني ... فلم أتبيّن عاطلا من مطوّق(٣)

يفتتح كلامه بتقرير أن جميع ما لقيه فؤاده من بلاء الحب وما يلقاه منه إنما هو لأجل عينيها الساحرتين الفاتنتين ، فهما سبب الهوى . ويقرر أن هذا الحب يضني جسمه و يذيبه وقد أصبح الجسم ملكا خالصا لهذا الحب ، فهو يتحكم فيما لم يبق منه — وهو الذاهب — وفيما بقي ، كلاهما له يصنع به ما يصنع .

ويدعي بعد هذا أنه عزوف عن العشق والهوى ، ولـكن جفون المحبوبة تحمل من يبصرها على العشق وتضطره إليه .

ثم يصف ما تتراءى به من الغضب إدلالا به عليه ومن الزهو والاختيال صبوة وفتنة ، فاحتاجت إلى مناظرة شبابها بشباب مثله ، فجعل شبابه شفيعا إليهـا .

---

(١) وغضي : الواو واو رب . الإدلال : الدل وريق الشباب : أوله . وريق كل شيء أوله

(٢) أشنب : به شنب وهو في الأسنان حدتها وتحددها ، معسول الثنيات : حلوها والثنيات الأسنان في مقدم الفم . المفرق : موضع الفرق في الشعر في الرأس .

(٣) أجياد : جمع جيد وهو العنق . العاطل : الخالي من الحلية لاستغنائه عنها بجماله . المطوق : المتحلي .

وإذا توسل بالشباب أخو الهوى   ألفاه نعم وسيلة المتوسل (١)

ورآها باردة الشلب مصقولة الثنايات مشرقة الوجه ، ولكنه ستر فه عنها عفة وتصونا ، فأقبلت على مفرق شعره تقبله . ولمثل هذه العفة وهذا التصون لم يحاول أن يفحص حسناوات كالغزلان زرنه ، فلم يتبين الحاليات منهن والعاطلات ولم يميز كلا من كل ، لأنه لم يشأ أن يمد بصره إليهن .

وهذه الزهادة التي ادعاها جاءت على النقيض من شفاعته الى محبوبته بشبابه ، على أنها اضطرته الى هذا الموقف السامي الذي يليق بالمحبوبة لا بالحب ، فجعل نفسه بخيلا بالوصل متورعا لقبلاته جوادا بمفرقه للفتاة تقبله ، مزورا ، تزوره غزلان الحي يتفرجن عليه وربما يداعبنه وهو خافض الطرف غضيض البصر .

٢٠ — وأخيرا يهتدى المتنبي الى الحسن الطبيعي فيقول في مطلع قصيدته البائية التي مدح بها كافور الإخشيدي :

مَنِ الجــــآذرُ في زى الأعاريبِ

حُمْرَ الحلى والمطايا والجلابيبِ ؟(٢)

إن كنتَ تســـأل شكاً في معارفها

فمَنْ بَلاكَ بتسهيدٍ وتعـــذيب ؟(٣)

لا تجزنى بضنىً بى بعـدَها بقرٌ

تجزى دموعى مسكوبا بمسكوب(٤)

---

(١) البيت للبحترى ، ونظر إليه المتنبي .

(٢) من : استفهامية . الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية اشبه بها النساء في حسن العيون . الأعاريب : جمع أعراب وهم سكان الخيام والوبر . وفي زى ، وكذلك حمر كلاهما حال من الجآذر .

(٣) يخاطب نفسه — وشكا مفعول لأجله . والتسهيد . السهر .

(٤) بقر : فاعل تجزنى . والبقر : المراد بها النساء على التشبيه . وجملة لاتجزنى دعائية .

سوائرٌ ، ربّما سارت هوادجها
منيعةً بين مطعونٍ ومضروب(١)

وربما وَخَدَتْ أيدى المطى بها
على نجيع من الفرسان مصبوب(٢)

كم زورةٍ لك فى الأعراب خافيةٍ
أدهى — وقد رقدوا — من زَوْرة الذيب(٣)

أزورهم وسوادُ الليل يشفع لى
وأنثنى وبياضُ الصبح يغرى بى(٤)

قد وافقوا الوحشَ فى سُكنى مراتعها
وخالفوها بتقويضٍ وتطنيب(٥)

جيرانُها وهُمُ شرُّ الجوار لها وصَحْبُها وهمُ شرُّ الأصاحيب(٦)

فؤادُ كلِّ محبٍ فى بيوتهمُ
ومالُ كل أخيذِ المال محروب(٧)

---

(١) سوائر : جمع سائرة وهو خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هن) . الهوادج : جمع هودج وهو مركب النساء على الإبل .

(٢) وخدت : سارت ، والوخد ضرب من سير الإبل . النجيع : الدم .

(٣) الذيب : الذئب . وجملة (وقد رقدوا) جملة اعتراضية .

(٤) أنثنى : هنا بمعنى أعود وأنصرف . يغرى بى : أى يدل على مكانى .

(٥) المراتع : المسارح أى أماكن الرتع : تقويض : هدم : تطنيب : شد الخيام بالأطناب .

(٦) الأصاحيب : جمع أصحاب . وهذا جمع صحب . وهذا اسم جمع لصاحب .

(٧) أخيذ المال : مأخوذه . المحروب : الذى ذهب كل ماله .

ما أوجُهُ الحضَرِ المستحسناتُ به   كأوجه البدويات الرعابيب(١)
حُسْنُ الحضارةِ مجلوبٌ بتطرية   وفي البداوة حُسْنٌ غيرُ مجلوب(٢)
أين المعـــزُ من الآرام ناظرةً
وغيرَ ناظرةٍ في الحُسْنِ والطيب(٣)
أفدى ظباءَ فلاةٍ ، ما عَرَفن بها
مَضْغَ الكلامِ ، ولا صَبْغَ الحواجيب(٤)
ولا بَرَزْنَ من الحمام مائلةً
أوراكُهُنَّ ، صقيلاتِ العراقيب(٥)
ومنْ هَوَى كل مَنْ ليستْ مموّهةً
تركتُ لونَ مشيبي غير مخضوب(٦)
ومن هوى الصدقِ في قولي وعادتِه
رغبتُ عن شَعَرٍ في الرأس مكذوب(٧)

---

(١) الرعابيب : جمع رعبوبة وهي المرأة السمينة والطويلة .

(٢) الحضارة (بالفتح أو الكسر) : الإقامة في الحضر . التطرية : المعالجة . البداوة : الإقامة في البدو .

(٣) المعز : اسم لجماعة المعز . الآرام : جمع رئم وهو الظبي الخالص البياض . ناظرة : بمعنى مقبلة .

(٤) الحواجيب : الحواجب جمع حاجب بزيادة ياء للشعر .

(٥) مائلة : شاخصة . العراقيب : جمع عرقوب وهو العصب الغليظ فوق العقب .

(٦) مموهة : من التمويه وأصله الطلي بماء الذهب أو الفضة ثم استعمل في معنى التزوير والتدليس .

(٧) تقول : رغبت الشيء أي طلبته ، ورغبت فيه أحببته ، ورغبت عنه كرهته . شعر مكذوب : أي شعر لونه بغير لونه . وفي رواية (رغبت عن شعر في الوجه مكذوب) .

يبدأ سائلا عن هؤلاء النسوة اللائى رآهن فى مثل جمال الجآذر حسان العيون على حال من التزيى بزى الأعرابيات ، لابسات جلابيب حمرا ، متزينات بالذهب الأحمر ، راكبات النياق الحمر ، ثم يخاطب نفسه : إن كنت تسأل عنهن من أجل شك عرض لك فى معرفتهن فأخبرنى عمن ابتلاك بالسهر والعذاب ، فكأنه سأل عنهن قبل لما رأى من قوة الشبه بينهن وبين الجآذر ، فخيلن له جآذر لا نساء ، فهو فى هذا عارف متجاهل .

ويدعو لهؤلاء النسوة الشبيهات بالبقر الوحشى — وقد عرف فيهن محبوباته — ألا يجزين ضنى وسقما ومرضا مقابل ما أصابه بسببهن وبسبب بعادهن من ضنى وسقم ومرض ، وإن كن بكين عند الفراق مثل بكائه وجزين دموعه المسكوبة المسفوحة بدموع مثلها .

ويصف مسيرتهن فيقول : إنهن سوائر راكبات هوادجهن فى منعة من قومهن ، فمن تعرض لهن أصابه الطعن والضرب . وربما سارت بهن المطايا على أشلاء ممزقة ودم مصبوب من الفرسان الذين تصدوا لركبهن ، تأديبا لهم على هذا التصدى .

ويعرج على زياراته السابقة لهن ، فيدعى أنه زارهن كثيراً زيارات جريئة خافية فى غفلة من القوم ، مثلما يصنع الذئب بالغنم فى غفلة الراعى ، وكان الليل ستراً له وشفيعا عند الزيارة ، بينما كان منصرفه عند الصباح يورثه لأن يشتهر ، إذ يدلهم الصباح عليه ويغريهم به ، وقد اعتمد المتنبى فى تصوير هذه الزيارات على البيان والبديع ، حين جعل خفاءه على القوم أدهى وأنكر من خفاء الذئب على راعى الغنم ، وحين جمع فى البيت الثانى بين خمس مطابقات عدوها من روائع الشاعر .

ويصف الأعراب بأنهم أقاموا فى البرارى إلى جوار الوحوش ، ولكنهم خالفوها فى أنهم يتخذون الخيام لهم سكنا ، فهم ما بين ظعن وإقامة ، ينقلون

خيامهم من مكان وينصبونها في غيره ، وهم يجاورون الوحوش شر جوار ويصحبونها شر صحبة ؛ لأنهم يسيئون إليها بالصيد والمطاردة والذبح والقتل .

ولعله قدم بين يدي هذه الزيارات الخافية المختلسة ما يبرر لخفائها واختلاسها من ذياد القوم عن حريمهم ، وكذلك فعل في أخلاف حديثه عن هذه الزيارات عند ما ذكر جوارهم الوحوش وصحبتهم إياها شر صحبة .

ويقول الشاعر : إن في بيوتهم فؤاد كل محب ومال كل محروب ، فنساؤهم ينهبن القلوب ، ورجالهم ينهبون الأموال .

وبعد هذا يعقد مقارنة بين حسناوات الحضارة وحسناوات البداوة ، فينفي أن يكون جمال الحضريات مشبها جمال البدويات الرعابيب ، ويعلل هذا بأن حسن أهل الحضارة مجلوب بالمعالجة والصنعة والتمويه ، وحسن أهل البادية خلقة وطبيعة ولا يحتال له . وحسناوات الحضارة أشبه بالمعيز وحسناوات البداوة أشبه بالظباء البيض الخالصات البياض ، فلا وجه للقياس إذن بين حسن هؤلاء وحسن أولئك ، فقد عاشت البدويات فصيحات مبينات لا يعرفن مضغ الكلام والتخنث فيه وتمطيطه كالحضريات ، ولا يعرفن صبغ الحواجب وتطريتها وما إلى ذلك من سائر الأصباغ والتطرية كالحضريات ، ولا يشخصن بعد الحمام مشدودات الخصور عاريات الأوراك ملمعات العراقيب كما تفعل النساء الحضريات .

وينتهي إلى التصريح بأنه من أجل تعلقه بهوى البدويات الصادقات الحسن اللائي لم يموهن جمالهن — ترك بياض شيبه من غير خضاب وكره ذلك ، فترك نفسه على سجيتها ، لم يحاول تمويهها وخداع الحياة عنها ، صدقاً منه وعادة ، ورغبة عن التزوير والاحتيال . جمعته وإياهن الصراحة : صراحة جمالهن الذي لا يتكلف له ، وصراحة نفسه التي لا تكذب .

وللدكتور طه حسين في هذه الأبيات رأي خاص ، فهو يرى أنه أنشدها في

مصر ، فاصطنع الرمز والإيماء حين يتغزل بالأعرابيات ، فحن إلى حياته في شمال الشام ، حيث البداوة أغلب من الحضارة ، وحيث البأس أظهر من اللين ، وحيث المخاطرة والمغامرة والتعرض للمكاره ، وكأن الشاعر ضاق بالنعمة الهادئة التي وجدها في مصر ، وشاقه صليل السيوف وصهيل الجياد ، ولكنه لم يستطع أن يجهر بما يجد من ذلك ، فاتخذ الأعرابيات كناية عنه ورمزا له ، كما اتخذ الحضريات كناية عما كان في مصر من خفض وحياة ناعمة فاترة فيها تكسر وخضوع(١) .

(١) مع المتنبي : ص ٣٠٠ — ط ٩ — دار المعارف بمصر .

الفصل الثانى

الوداع والرحيل والفراق

للمتنبى فى الوداع والرحيل والفراق شعر ، بعضه جيئا اتفق فى مطالع قصائده ، أو قريبا من مطالعها ؛ تقليدا للشعراء السابقين ، الذين وقفوا على الديار ، وبكوا فيها واستبكوا بفراق الأحبة ، ولم نجد له شعراً خالصا لهذا الغرض إلا ثلاثة الأبيات : (أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدنى ...)[1] ، وهى من أول شعره ، أنشأها وهو صبى فى المكتب ، ثم بيتيه (فارقتكم فإذا ما كان عندكم ...)[2] ، وهما من آخر قوله ، أنشأهما وهو فى مصر ، يريد بهما سيف الدولة الحمدانى . أما غير هذه الأبيات فجاء — كما قلنا — فى مطالع القصائد .

ورأينا فى هذا الشعر عدة أمور :

(ا) يزفر الشاعر فى كل مرة أنفاسه ، وقد تكون أنفاساً مبهورة ينشىء لها الأبيات ثلاثة أو أربعة ، وقد تكون حارة ينشىء لها عشرة أبيات أو تزيد .

(ب) انصرف الشاعر فى هذا الشعر عن المباهج وملذات الحياة وانطوى على نفسه ، يعالج سقامه ، وأوجاعه ، ويجتر حرمانه ، ويصف كبده الحرى المصدوعة ، وشعره الأشيب ، وليله الأليل ، ويشكو الجوى والحرقة ، ويتشكى من ظلم الأحبة .

فليت هوى الأحبة كان عدلا فحمّل كل قلب ما أطاقا

وتتوقد أنفاسه حتى يخشى على العواذل أن تحترق بها ، ويستطيل الليل بعد

---

(١) الأنموذج الأول ص (٥٤) .

(٢) الأنموذج الرابع عشر ، وسيأتى .

أن كان قصيراً بالمسرات ، ويبيت يقتات طيف الأحبة ، ويستزيره خيالا فى المنام والرؤى . . .

(ح) أغرق الشاعر نفسه فى الدموع ، وكان قبلا يشكرها ويمنعه الحياء من البكاء ، أما الآن فيستسلم للدمع ، ويراه من وشاته ، ويجد له فى خديه تأثيراً كبيراً أشبه بتأثير أخفاف الإبل فى الحجارة الرخوة ، وهو دمع ساخن حار ، سالت معه دماؤه ، كما قال :

بكت بها ردنى والنجم مسعدى · وعبرته صرف وفى عبرتى دم
ولولم يكن ما انهل فى الخد من دمى · لما كان محمرا يسيل فأسقم

(ء) أنه يهزل وينحل وتتلاشى منه الحياة رويدا رويدا ، ويبالغ فى وصف هزاله ونحوله مبالغة بعيدة التصور ، فتارة يتردد بدنه فى مثل الخلال ، وتارة يتطاير جسمه مع ثوبه ، وتارة يبدو خيالا غير مجسم ، أو جسما ليس فيه مكان للسقام ولا يصلح للعناق . واستمرأ هذه الصورة حتى اعتاد نفسه ميتاً يتكلم .

(هـ) ألقى على المحبوبة تهمة ما شفه وأضناه وأجهده ، وجعل يصور ما تبديه من دلال وعدم مبالاة بالفراق ، ويراها مشرقة فى مقابل ضناه ، وخالية فى مقابل شجاه . ويجعل النوى شريكته فى عشق المحبوبة ومنافسته فيها ، ولهذا لا يظلم النوى :

ملاى النوى فى ظلمها غاية الظلم · لعل بها مثل الذى بى من السقم

(و) أنه يفرق بين البين والصدود ، فيتساهل مع البين والبعد ؛ لأنه يستطيع أن يتحرك لتبديده ، ولا يتساهل مع الهجران والصد ؛ لأن المحبوبة تتحرك فى الاتجاه المضاد لإقباله عليها .

(ز) أنه يشعر للتوديع بلذة ، يصرفه عنها خوف التفرق ، فتنقلب اللذة حرارة ، ويصبح التوديع مثارا للهموم :

عشية يعدونا عن النظر البكا   وعن لذة التوديع خوف التفرق

(ح) لم تفارقه حكمة الحياة ، فكان يقول فيها كلما عرض له ، كبيان لما هو فيه ، أو كدليل على صلاح رأيه فى البعاد والتفرق .

وسترى هذا كله واضحاً فى الأمثلة الآتية :

١ — قال المتنبي فى صباه الباكر :

أبلى الهوى أسفاً يوم النـــــوى بدنى
وفرّق الهجرُ بين الجفن والوسَنِ [١]

روح تردد فى مثل الخلال إذا   أطارت الريح عنه الثوب لم يبنِ [٢]

كفى بجسمى نحولا أنى رجل   لولا مخاطبتى إياك لم ترنى [٣]

يقول : أفضى الهوى يوم الفراق ببدنى إلى الأسف وشدة الحزن والهزال ، وباعد هجر المحبوبة بين جفنى ونومى فبت مسهداً مؤرقاً . لى روح تذهب وتجىء فى بدن ناحل يشبه الخلال فى دقته ونحوله . فإذا طيرت الريح عن بدنى ثوبه لم يظهر ذلك البدن لدقته وضآلته [٤] . وكفانى فعل النحول بجسمى أنى لا أعرف ولا يقع على البصر لو لم أتكلم ، فإذا أعرف بصوتى لا بشخصى لأن شخصى تلاشى . وهذا معنى أخذه من الأخطل فى قوله :

---

(١) أسفاً : شدة حزن . يوم النوى : يوم البعاد . الوسن : النعاس .

(٢) روح : مبتدأ خبره محذوف أى لى روح والروح يذكر ويؤنث . الخلال : عود الخلة الذى تخلل به الأسنان ـ وفى رواية (الخيال) ولم يبن : لم يظهر أو لم يفارق .

(٣) كفى فاعله المصدر المؤول من أنى رجل وجسمى مفعوله والباء زائدة ونحولا تمييز ملحوظ .

(٤) ويجوز أن يقصد أن الريح تطير الثوب والبدن معا فهى تذهب بالبدن لخفته مع الثوب ...

ضفادع في ظلماء ليل تجاوبت فدل عليها صوتها حية البحر

ومنه قول أبي بكر الصنوبري :

ذبت حتى ما يستدل على أنـــي حي إلا ببعض كلامي

٢ — وقال المتنبي في صباه وهو يمدح إنساناً أراد أن يستكشفه عن مذهبه :

كُفّي أراني — ويك — لومَكِ ألوما

همٌّ أقام عـــلى فؤاد أنجما(١)

وخيالُ جسم لم يُخَلِّ له الهوى لحماً فيُنحِلَه السقامُ ولا دما

وخفوقُ قلب لو رأيتِ لهيبـــه

— يا جنتي — لظننتِ فيه جهنما(٢)

وإذا سحابةُ صدِّ حِبٍّ أبرقتْ تركتْ حلاوة كل حُبٍّ علقما(٣)

ياوَجْهَ داهيـــةَ الذي لولاكِ ما

أكَلَ الضنى جسدي ورضَّ الأعظما(٤)

---

(١) كفي : دعي واتركي . ويك : اسم فعل للتعجب والإنكار وأصلها (ويلك) : أنجم : فعل بمعنى ذهب وأقلع . وأراني بمعنى أعلمني فعل يتعدى إلى ثلاثة مفاعيل فالياء مفعوله الأول ولومك الثاني وألوم الثالث وفاعله هم . ويجوز أن يكون لومك مفعولا لكفي وأراني تكفي يتنازعان الياء وألوم وفاعله المتكلم أي أرى أني ألوم منك . ويكون الشطر الثاني كلاما مستأنفا فهم مرفوع بابتداء مضمر أي هذا هم أو بفعل محذوف أي أصابني هم .

(٢) خفوق قلب : اضطرابه . لهيبه : أي حرارة شوقه . وفي البيت تحول من خطاب العاذلة إلى المحبوبة .

(٣) حب (بالكسر) : محبوب . العلقم : شجر الحنظل وهو مر .

(٤) داهية : قيل اسم المحبوبة وقيل كناية عنها نزلها منزلة العلم ولهذا منعها من الصرف ، رض الأعظم : دقها وكسرها .

إن كان أغناها السلوُّ فإنني
أصبحتُ من كبدي ومنها معدِما[1]

يدعو عاذلته أن تكف عنه وتدعه وتترك عذله ، فقد أراه الهم — الذي أقام على فؤاده الذاهب المستطار المحبوب — أن لومها له أحق بأن يلومه هو[2]. ثم لم يترك الهوى بجسمه محلا من لحم ودم فيعمل فيه السقام ، وإنما تركه خيالا يقصد بهذا أنه نحله أبلغ النحول وذهب بشخصه ، ثم يقول لمحبوبته التي شبهها بالجنة الوارفة الظليلة : لو رأيت ما بقلبي من الخفقان والاضطراب ومن لهيب الشوق والوجد بسبب رحيلك لظننت جهنم حلت به كما قال ابن الدمينة في وداع محبوبته :

غدت مقلتي في جنة من جمالها وقلبي غدا من حبها في جهنم

ويقول : إذا ظهرت مخايل الصدود ولاحت لوائحه — وجعل الصدود سحابا واستعار البرق لمخايله — زالت حلاوة الحب واستحالت إلى ما يشبه الطعم المر . ثم يخاطب وجهها — ويسميها باسمها (داهية) — : لولاك أيها الوجه ما أكل الضنى جسدي ولا رض عظامي ودقها وحطم كياني . وهاهي ذي قد صرفت عنه وجهها فإن كان أغناها السلو والنسيان عنه فقد أصبح بغير

---

(١) السلو : النسيان . معدما : فقيرا .

(٢) وعلى هذا يكون (ألوم) مصوغا من اسم المبني المفعول وفي هذا خروج على القاعدة وقيل : إنه مصوغ من ألام الرباعي بمعنى استحق اللوم وهو شاذ أيضا ويكون المعنى أراني الهم لومك أبلغ في الإلامة أي استحقاق اللوم . وقال الواحدي : المعنى أراني الهم أن لومك أبلغ تأثيرا وأشد على نفسي ؛ ذلك أن المحزون لا يطيق استماع اللوم فألوم هنا بمعنى أوجع . وعلى رأي التبريزي بأن لومك مفعول كي يكون المعنى : كي لومك فإني أراني ألوم منك أي أكثر لوما لنفسي منك .

حاجة إلى وصلها ، لأنه فقد — معها — كبده التي أحرقها هواها ، فهو معدم فقير منها ومن كبده ، فكأنها لو واصلته لم تجد في بدنه مكانا لزرع الصلة[١] .

٣ — وقال المتنبي في صباه وهو يمدح محمد بن عبيد الله العلوي المشطب :

أهلا بدار سباكَ أغيـــدها	أَبْعَدُ ما بان عنك خُرَّدُها[٢]
ظلتَ بها تنطوي على كبد	نضيجةٍ فوق خِلْبها يدُها[٣]
ياحاديَيْ عِـــيرها وأحسبني	أُوجد ميْتا قُبيل أفقدها[٤]
قفا قليلا بها عليّ ؛ فلا	أقل من نظــــرة أزوِّدها
ففي فـــؤاد المحب نار جوى	أحرُّ نار الجحيمْ أبردها[٥]
شاب من الهجر فَرْقُ لمتــه	فصار مثل الدمقس أسودُها[٦]

بدأ المتنبي الشعر بالدعاء للدار التي سباه من كان بها بأن تكون مأهولة عامرة ، وذكر أن أبعد شيء فارقه جواريها الحييات[٧] ، وأنه ظل بهذه الدار

---

(١) ومن الجائز أنه يريد : إن كان السلو أغناها عنه فصارت بغير حاجة إلى وصله فقد عدمها وعدم كبده التي ذابت في محبتها وهواها .

(٢) سباك أغيدها : أسرك والأغيد اللين المثني ويقصد محبوبته . الخرد : جمع خريدة وهي الحيية أو البكر .

(٣) ظلت : ظللت حذفت إحدى اللامين تخفيفا . نضيجة : ناضجة . خلبها : غشاؤها .

(٤) الحادي : سائق الإبل . العير (بالكسر) : الإبل تحمل الميرة . أفقدها : أصله النصب بأن المحذوفة ، فلما حذفت عاد الفعل إلى الارتفاع .

(٥) الجوى : حرقة العشق .

(٦) اللمة : الشعر يلم بالمنكب ويجاوز شحمة الأذن . الدمقس : الحرير أو الأبيض منه .

(٧) وقيل أبعد بالنصب حال من أغيدها يريد سباك أبعد مابان عنك أي أسرك بحبه وهو على البعد منك . وقيل : أبعد همزة استفهام وبعد الظرفية والمعنى : هل بعد مابان عنك الخرد ولم تزودك عند رحيلها زادا تدعو لها ؟ .

منطويا على كبده التي أنضجتها حرارة الوجد واضعاً يدها فوق غشائها[١] ، وكل محزون يفعل ذلك كأنه يخاف أن تنفطر كبده وتتصدع .

ثم دعا حادى العير أن يقفا بالمحبوبة قليلا عليه ويحبسا مسيرها فترة ، لينظر إليها ويتزود منها نظرة فلا شىء أقل منها ، والمحب يقنع بالقليل وبالأقل ، ومع ذلك يعترضه الظن بأنه ميت وهالك قبيل أن يفقدها برحيلها عنه . وإن بفؤاده لجوى وحرقة ووجداً ، نارها أشد حرارة من نار جهنم ، وأحر نار الجحيم أبرد من نار جواه . وإنه لعظم ما ألم به من هجر المحبوبة شاب شعر رأسه وفرق لمته ، وابيض منه ما كان أسود ، وصار سواده مثل الدمقس فى لونه الأبيض الناصع .

٤ — وقال فى صباه أيضاً فى مطلع مدحته لعلى بن أحمد الطائى :

حُشاشةُ نفسٍ وَدَّعتْ يومَ ودعوا ... فلم أدر أى الظاعنين أشيع[٢]

أشاروا بتسليم فجدنا بأنفس ... تسيل من الآماق والسُّمَّ أدمع[٣]

حشاى على جمر ذكى من الهـــــوى ... وعيناى فى روض من الحسن ترتع[٤]

ولو حُمِّلتْ صمُّ الجبال الذى بنا ... غداة افترقنا أوشكت تتصدع[٥]

---

(١) اليد يده وقد جعلها يد كبده لأن الصحبة بينهما طالت.

(٢) الحشاشة : بقية الروح : الظاعنين : المرتحلين ، وروى بصيغة التثنية والجمع ، فالمثنى الحشاشة والحبيب الذى ودع فى جملة من ودعوا والجمع الحشاشة والأحبة الذين ودعوا .

(٣) الآماق : جمع مؤق وهو طرف العين مما يلى الأنف . السم (مثلثا) : الاسم أى والاسم أدمع .

(٤) حشاى : مالى باطنى والمراد القلب أو الكبد . جمر ذكى : جمر شديد اللهب .

(٥) صم الجبال : الجبال الصم أى الصلبة . تتصدع : تتشقق .

بما بين جنبيّ التي خاض طيفها ... إليّ الدياجي والخليّون هُجّع[1]

أتت زائرا ما خامر الطيب ثوبها ... وكالمسك من أردانها يتضوع[2]

فما جلست حتى انثنت توسع الخطا ... كفاطمة عن دره قبل ترضع[3]

فشرّد إعظامي لها ما أتى بها

من النوم ، والتاع الفؤاد المفجع[4]

فيا ليلة ما كان أطول بتّها

وسمّ الأفاعي عذبٌ ما أتجرع[5]

يقول المتنبي : لى بقية روح ودعتني يوم ودعني الأحباب فذهبت هذه الحشاشة وذهبوا ، فبقيت حيران لا أدرى أى الظاعنين أودع ، ويذكر أن أحبابه أشاروا يوم الوداع بالسلام فما وجد غير روحه يجود بها فى صورة الدمع ، وجعل روحه أرواحا لأنه يجود بها بضعة بضعة ، فما تراه سائلا من الآماق تسميه دمعاً وهو فى الحقيقة روح سائلة تذوب وتقطر ، كما قال بشار :

وليس الذي يجرى من العين ماءها ... ولكنها روحى تذوب وتقطر

---

(١) الدياجى : ظلمات الليل . الخليون : جمع خلى وهو الذى خلا قلبه من الهوى والهم . هجع : جمع هاجع وهو النائم .

(٢) أتت زائرا : أى شخصا زائرا . خامر : خالط . الأردان : جمع ردن وهو أصل الكم . والكاف فى كالمسك اسم بمعنى مثل أى ومثل المسك يتضوع من أردانها .

(٣) قبل ترضع : أصلها قبل أن ترضع ، حذفت أن فارتفع الفعل .

(٤) التاع الفؤاد : احترق . المفجع : الذى أصيب بفجيعة . ومن النوم بيان لما الواقعة مفعولا لشرد .

(٥) أتجرع : أشرب كارها ومتكلفا .

ويقول المتنبي : إنني عند الوداع كنت موزعاً بين عذاب قلبي الذي أصابه جمر الهوى الملتهب ، واستمتاع عيني بحسن المحبوبة وجمالها الريان[١] ، كما قال ابن الدمينة :

غدت مقلتاي في جنة من جمالها　　　وقلبي غدا من هجرها في جهنم

ويقول المتنبي : إنني حملت غداة فراقها عبئاً ثقيلاً لو حملته الجبال الصم أوشكت أن تتصدع منه وتنوء عن حمله .

ويعلن بعد هذا أنه يحمل روحه التي بين جنبيه فداء للمحبوبة التي قطع طيفها ظلمات الليل إليه وجاءه زائراً ، بينما هجع الخليون وناموا لا يشغلهم هوى ولا هم . قال الواحدي : وهذا كالمتضارب لأنه كان أيضاً نائماً عندما رأى خيالها، لكن يجوز أن يقال : إنه نام نوم مشغول بها مشوق إلى وصال الطيف ، بينما نام الخليون فارغين . وقد أتته المحبوبة طيفاً زائراً فأحس فيه مثل طيبها الذي يتضوع منها هي خلقة لا معالجة،طيباًأشبه بالمسك ، فما جاملت تحييه وبحيوها حتى آثنت عنه وانصرفت توسع الخطو منقلعة هاربة ، وكان حين رأى خيالها استعظم رؤيتها وفقد النوم الذي أتى بها ، فلما انصرف طيفها التاع فؤاده وجزع ، فبات ليلة ما كان أطولها يتجرع فيها من مرارة الفراق ما يعد سم الأفاعي بالقياس إليه عذباً سائغاً .

٥ — وأنشد المتنبي في مطلع مدحته للحسين بن إسحاق التنوخي :

ملامي النوى في ظُلمها غايةُ الظلمِ

لعل بها مثل الذي بي من السقمِ[٢]

---

(١) وفي قوله : (عيناي ترتع) اكتفى الفعل بضمير الواحد لأن العينين اشتركتا في الرؤية على حد سواء دون أن يكون لإحداهما ميزة على الأخرى في هذه الرؤية .

(٢) النوى : البعد ، وهي مؤنثة .

فلو لم تَغَرْ لم تَزْوِ عنى لقاءكم
ولو لم تُرِدْكم لم تكن فيكم خصمى(١)

أمنعمةٌ بالمودة الظبيةُ التى بغير ولىٍّ كان نائلَها الوسمى(٢)

يقول : إن من الظلم غاية الظلم لوى للنوى فى تفريقها بيننا وظلمها إيانا بالبعد ؛ فلعل النوى تعشق محبوبتى كما أعشقها ، فلهذا تحتازها وتحول بينى وبينها وتغار منى عليها ، بدليل هذا الذى تصنعه من منع لقائى بك — أيتها المحبوبة — ومن مخاصمتى فيك : ثم يتمنى — فى صورة استفهام — أن تنعم محبوبته الشبيهة الظبية بالمودة إلى الوصال مرة أخرى نوالا منها وعطاء، وشبه وصالها السابق بالوسمى أول المطر فى السنة ، وهو يرتقب الولىّ المطر الثانى الذى يلى الوسمى ؛ لأن به شوقاً وحاجة إلى معاودة الوصل ، كما قال ذو الرمة :

لى ولية تمرع جنابى فإننى — لما نلت من وسمى نعماك — شاكر(٣)

أما ما قاله المتنبى عن مشاركة النوى إياه فى حبه فمأخوذ من قول البحترى :

قد بين البين المفرق بيننا عشق النوى لربيب ذاك الربرب

٦ — ويقول المتنبى فى مطلع مدحته لعبد الواحد بن العباس بن أبى الأصبع الكاتب :

---

(١) تغر : من الغيرة وهى الحرف من تحول القلب ، لم تزو : لم تصرف ، خصمى : مخاصمى ويستوى فيه المذكر والمؤنث ، ويجوز أن يستوى فيه الواحد والمثنى والجمع .

(٢) الوسمى : أول المطر فى السنة ، والولى : المطر الثانى ، وأراد بالأول أول ما بدأت به من الوصال وبالثانى وصالها بعد ذلك . وقد سمى هذا الوصال نائلها ، والنائل العطاء . . .

(٣) لى : أمر من الولى وهو الإمطار ، والولية : المطرة الثانية ، والوسمى : المطر الأول كما قلنا .

أركائبَ الأحبابِ ، إن الأدمعـــا

تَطِسُ الخدودَ كما تطِسُ اليَرْمَعَا[1]

فاعرِفْنَ من حملتْ عليكن النوى

وامشِينَ هوناً في الأزمة خُضَّعا[2]

قد كان يمنعنى الحياءُ من البكا	فاليومَ يمنعه البكا أن يمنعا

حتى كأنَّ لكل عظمٍ رنةً	في جلده ، ولكل عرقٍ مدمعا

يخاطب ركائب الأحباب ، ويؤكد لهما أن دموعه تشق خدوده شقا وتدقها دقا ، وتحدث فيها آثاراً ، شبيهة بما تحدثه — أيتها الركائب — عند السير فى الحجارة الصغار الرخوة . وتمنى أن تعرف هذه الركائب قدر المحبوبة التى حملتها النوى عليهن ، ويدعوهن أن يمشين هوناً خضعا ؛ حفاظا على رقة المحبوبة ، وصيانة لها من الأذى الذى ربما يجلبه مرح المشى . ثم يقول : إنه كان فيما سبق يغلب عليه الحياء فيمنعه هذا الحياء من البكاء ، أما الآن فلم يعد يملك أزمة دموعه التى غلبته وغلبت حياءه ، وإنه ليبكى بكاء شديداً حتى صارت عظامه ترن فى جلده ، وصار لكل عرق من عروقه مدمع يجرى منه الدمع ، فهو يبكى بجميع أعضائه وبجميع بدنه ، كما قال الشاعر :

وكأن لى فى كل عضوٍ واحدٍ	قلبا يرن ، وناظراً ما يطرف

٧ — ويقول المتنبى فى إحدى مدائحه لبدر بن عمار :

---

(١) ركائب الأحباب : إبلهن والركائب جمع ركوب وهى الناقة المركوبة . تطس الخدود : تدقها . اليرمع : حجارة بيض صغار رخوة .

(٢) النوى : البعد فاعل حملت . الأزمة : مقاود الدواب الواحد زمام .

ليت الحبيب الهاجري هَجْرَ الكرى

من غير جرم واصلي صلةَ الضنى[١]

بنا فلو حلّيتنا لم تدر ما

ألوانُنا مما امتُقِعن تلوّنا[٢]

وتوقدتْ أنفاسُنا حتى لقـــد

أشفقتُ تحترقُ العواذلُ بيننـا[٣]

أفدي المودّعةَ التي أتبعتُها

نظراً فرادى بين زفْرات ثُنا[٤]

أنكرتُ طارقة الحوادث مرّةً

ثم اعترفتُ بها فصارت ديدنا[٥]

يتمنى الشاعر أن يصله المحبوب الذي هجره من غير ذنب ولا جريرة كما هجره النوم، وأن تكون صلته ملازمة له ـ لا موقوتة ـ مثل ملازمة الضنى لبدنه، بسبب هذا الهجر الواقع . ويقول لمحبوبه أو لغيره : لقد افترقنا فجرعنا ألم الفراق وتغيرت ألواننا ، فلو رغبت في أن تتعرف إليها ما قدرت ، ولو حاولت أن تصف هيئاتنا ما استطعت ، لهذا التلون الذي أصابنا . ويقرر : لقد صارت أنفاسنا مثل النار

---

(١) هجر الكرى : أي مثل هجر الكرى وهو النوم . من غير جرم : من غير ذنب . صلة الضنى : أي مثل صلة الضنى وهو المرض الملازم بسبب البعاد والصد .

(٢) بنا افترقنا : حليتنا : وصفت ما تحلى به . امتقعن : أي تغيرت ألواننا .

(٣) أشفقت تحترق : خفت أن تحترق ، وحذف أن فارتفع الفعل . العواذل : اللوائم والواحدة عاذلة .

(٤) فرادى : واحداً واحداً . ثنا : ثناء أي اثنين اثنين . زفرات : جمع زفرة ، وهي النفس الحار وحق الجمع التحريك بالفتح وسكنه لضرورة النظم .

(٥) صارت ديدنا : صارت عادة .

المتوقدة من شدة حرارة الوجد ، حتى أشفقت على العواذل أن يحترقن فيما بيننا[1] ويبان أنه يفدى بنفسه هذه المحبوبة المودعة ، وارتفعت حرارة الشوق فيه لدى وداعها ، وظهر هذا فى زفراته التى احتوت نظراته ، فكل نظرة بين زفرتين ، أو كلما نظر نظرة واحدة زفر زفرتين ، ولقد أنكر حوادث الدهر — ومنها ما هو واقع فيه الآن — [أ]ول ما طرقته ، فلما توالت وتتابعت أقر بها واعترف بأنها تقصده ولم تك لتخطئه ، فصارت ديدنا له وعادة مـــلازمة لا حيلة له فى الفكاك منها .

٨ — وفى مطلع مدحة أخرى لبدر بن عمار ينشد :

بقائى شـــاء ليس هم ارتحالا	وحُسن الصبرِ زَمُّوا لا الجِمالا[2]
تَوَلّوا بغتـــةً فكأن بيناً	تَهَيّبَنى ففاجأنى اغتيالا[3]
فكان مسيرُ عِيسِهم ذميلا	وسيرُ الدمعِ إثرهمُ انهمالا[4]
كأن العيس كانت فوق جَفْنى	مُناخاتٍ فلما ثُرْنَ سالا[5]
وحَجّبتِ النوى الظبياتِ عنّى	فساعدَتِ البراقعَ والحِجالا[6]

(١) ووجه الاشفاق أن احتراق العواذل كان يتم على باقى أفئدة المتحابين من حرارة الشوق والعشق ، أو أنه يتم على ما كانوا فيه من حر أنفاسهم .

(٢) ليس هنا عطف بمعنى لا فهى غير عاملة فلا يكون لها اسم وخبر والتقدير شاء بقائى لاهم ارتحالا . أو عاملة واسمها هم وخبرها محذوف دل عليه المذكور قبل والتقدير شاء بقائى ارتحالا وليسوا هم الذين شاءوه . أو عاملة واسمها ضمير الشأن وهم مبتدأ وخبره محذوف دل عليه ما قبله والتقدير بقائى شاء ارتحالا وليس الشأن والأمر هم شاءوا .

(٣) تولوا : رحلوا . البين : الفراق . تهيبنى : هابنى . اغتيالا : بغتة من حيث لا أدرى .

(٤) العيس . الكرام من الإبل . ذميلا : سيرا وسطا . انهمالا : انسكابا .

(٥) ثرن : أى نهضن للسير .

(٦) النوى : البعد . الظبيات : المراد المحبوبات على سبيل التشبيه . الحجال : الأستار تعد للجارية فى ناحية البيت .

كأنّ الحزنَ مشغوفٌ بقلبي ... فساعةَ هجرِها يجدُ الوصالا(١)

كذا الدنيا على من كان قبلي ... صُروفٌ لم يُدِمنَ عليه حالا(٢)

أشدُّ الغمِّ عندي في سرورٍ ... تيقَّنَ عنه صاحبُه انتقالا

يقول المتنبي : ارتحل الأحبة عني فارتحل بقائي ، فكأن بقائي شاء الارتحال عني وليسوا هم الذين شاءوه ، وفقدت الصبر من بعدهم فكأنهم زموا صبري للمسير لا جمالهم ، وإنما نفى الارتحال عنهم لأن ارتحال بقائه أبلغ وأخطر ، فالبقاء إذا ارتحل لم يعد ، أما هم فربما يعودون ، ولم يعتد بسير جمالهم مع مسير صبره عنه ، لأن مسير الصبر أهم وأعظم شأناً من مسير الجمال(٣) .

ثم يحكي عن فراق الأحبة : فارقوا بغتة وعلى حين غرة ، فكأن البين هابني ففاجأني من حيث لا أدرى ، أى اغتالني اغتيال مفاجأة ، فسارت عيسهم تحملهم سيرا ذميلا وسطا ، بينما دمعي ينهمل في أثرهم وينسكب ألما وحسرة ، فكأن هذه العيس كانت مناخة فوق جفني تمسك الدمع أن يسيل ، فلما نهض الأحبة للمسير ارتفعت العيس من فوق الجفن فسال الدمع الذى كانت تمسكه ، وارتحل الأحبة وحجبتهم النوى عن عيني ، فساعدت النوى ما كن يأخذن به أنفسهن قبلا من الاحتجاب بالبراقع والحجال .

---

(١) مشغوف بقلبي : أصاب شغافه أى غلافه ، وشغفه أحرقه بالحب

(٢) صروف : أحداث ونوائب .

(٣) وقيل : شاء أى سبق ، والمعنى : بقائي سبق ارتحالهم ولولا ذلك لمت أسفا . وقيل . شاء أى أراد فالمعنى : أن بقائي أراد رحيلهم فليتني مت ولم أره يأسف ، إذ لم يمت عند رحيلهم .

وقيل : لم يجد فرقا بين الحياة والأحبة فهم هم الحياة بعينها ولا فرقا بين الصبر والجمال فالجمال هي الصبر نفسه ، فأثبت الرحيل لحياته دونهم ، لأن الحياة والأحبة شيء واحد ، وأوقع الزم على الصبر دون الجمال ، لأن الصبر راحلة حياته ، وهذه الحياة مولية ، فلم تعد بحاجة إلى الصبر ، فلا أخذته معها .

ثم يقول : إنى بعد فراقهم أجد الحزن مواصلا ، فكأنه يعشق قلبى ، فكلما هجرتنى المحبوبة واصلنى هو ولزمنى . وهذه سنة الحياة على من كان قبلى مثلما أراها الآن ، إنها صروف وأحداث لاتدوم على حال ، وقد أصبحت أرى السرور المتيقن انتقاله وزواله أشد الغم عندى ، لأنه لايطيب لى إلا بمقدار مايبقى ، وبقاؤه غير مضمون ولا مقدور .

وهذه الأبيات الأخيرة تنتسب إلى حكمة الحياة التى يأخذ بها المتنبى نفسه فى شعره ، كما سنحت الفرصة لتعميم تجاريب حياته .

٩ — ويقول المتنبى يمدح أبا العشائر الحمدانى :

أُتراها لكثرة العشّـــاقِ تحسب الدمع خلقة فى المآقى(١)
كيف ترثى التى ترى كلَّ جفنٍ راءها غيرَ جفنها غيرَ راقى(٢)
أنتِ منا فتنتِ نفسَكِ لكنّـــكِ عوفيتِ من ضنًى واشتياق(٣)
حُلْتِ دون المزار فاليومَ لو زُرْ
تِ لحال النحولُ دون العناق(٤)
إن لحظا أدَمْتِه وأدَمْنا كان عَمْداً لنا وحتْفَ اتفاق
لو عدا عنكِ غيرَ هجرك بُعْدٌ لأَرَارَ الرسيمُ مُخَّ المناقى(٥)

(١) أتراها (بالبناء للمجهول) أى أتظنها . المآقى جمع مؤق وهو مؤخر العين مما يلى الأنف .

(٢) راءه : رأى بتقديم اللام على العين . راقى : راقئ بتسهيل الهمزة وهو المنقطع . وغيرَ الأولى منصوبة على الاستثناء ، والثانية على المفعولية أو الحال .

(٣) الضنى : المرض الشديد .

(٤) حلت دون المزار : منعت منه ، والمزار : الزيارة .

(٥) عدا عنك بعد : صرف عنك بعد . أرار الرسيم مخ المناقى : أذاب الرسيم مخها ، والرسيم : ضرب من سير الإبل . والمناقى : الإبل السمان اللاتى فى عظامهن نقى أى مخ ، والواحدة منقية .

وَلَسِرْنا ولو وصلنــا عليها مِثْلَ أنفاسنا على الأرماق[١]

ما بنا من هوى العيون اللواتى
لَوْنُ أشفارهن لونُ الحِداقِ ؟! [٢]

قَصَّرتْ مُدَّةَ الليالى المواضى فأطالتْ بها الليـالى البواقى

يسائل صاحبه أو يسائل نفسه : أتظن هذه المشوقة — لكثرة ماترى الدمع فى مآقى عشاقها — تحسبه خلقة فى هذه المآقى ، فلا ترحم باكيا ولا تعطف عليه . وكيف ترحمه وتعطف عليه وهى ترى كل جفن من الناس — إلا جفنها — لا يرقأ دمعه . ثم يخاطبها . أنت أيتها المشوقة أيضا منا أى من جملة عاشقيك ، فأنت نرجسية الهوى أحببت نفسك وفتنتها ، لكنك لم تعاملى نفسك بمثل ماعاملتنا ، إذ وصلت محبوبك وهو نفسك وهجرتنا فلم تصلينا ، فسوفيت من الضنى والاشتياق ، من حيث ابتلينا نحن بهما .

أيتها المحبوبة : منعت زيارتك ، فلو سمحت بالزيارة اليوم وجدتنا على حال من النحول الشديد ، نحول دون العناق ، لأنه لم يبق بجسمى بقية قادرة على ذلك . لقد اشتركنا نحن وأنت فى تبادل اللحاظ عمدا وإدامتها ، لكن اتفق لنا فيه الحتف والهلاك من غير قصد منا إليه . ولو كان الذى يصرف عنك ويمنع لقاءك هو البعد وطول المسافة — لا الهجر — لأخذنا أنفسنا بالرحلة إليك مجهدين الإبل السمان حتى تذوب أمخاخها ، ولسرنا إليك ولو وصلنا عليها وهى تحملنا على استكراه ومشقة كما تحمل أرماقنا أنفاسنا بجهد شديد[٣] .

(١) الأرماق : جمع رمق وهو بقية النفس والروح .

(٢) الأشفار : جمع شفر وهو منبت الهدب . الحداق : جمع حدقة وهى السواد فى العين

(٣) هذا تفسير ابن جنى فى البيت (ولسرنا ولو وصلنا عليها . . .) . وأنكر الواحدى أن يحمل الرمق النفس واعتبر البيت نظير البيت السابق فالأرماق عنده هى الإبل المجهودة المهزولة على سبيل التشبيه . والمعنى عنده : ولسرنا ولو وصلنا وقد هزلنا من شوقنا إليك حتى نصير من الخفة كأنفاس على أرماق أى على إبلنا المهزولة التى أجهدت فلم يبق منها إلا القليل كأنها أرماق .

ويعجب مما أصابه متسائلا عما به من هوى العيون الكحيلات اللواتى انفق لون أشفارها وأحداقها .

ويقرر أن ليالى الوصال الماضية قد قصرتها المحبوبة بوصالها ، ثم لما هجرت تسببت بالهجران فى إطالة ما بقى منها ، أطالتها بها أى بليالى الوصال ؛ بتذكرها ، والحسرة عليها ، واستحضار ما كان فيها من نعمة اللقاء .

١٠ — وفى مطلع مدحة أخرى لأبى العشائر يقول المتنبى :

مبيتى من دمشق على فِراشِ ... حشاه لى بِحَرّ حشاى حاشِ

أتى ليلٍ كعين الظبى لونا ... وهمٌّ كالحميا فى المُشاشِ(١)

وشوقٍ كالتوقد فى فؤاد ... كجمر فى جوانح كالمحاشِ(٢)

يذكر أن مبيته من دمشق يبيت الليل ساهرا على فراش حار حشى بحرارة قلبه من الهوى ، فهواه كان حارا ومن أجله صار فراشه حارا ، طريح ليل أسود كسواد عين الظبى ، وطريح هم يخالط بدنه كما تخالط الحميا (سورة الخمر) عظام شاربها ، وطريح شوق يملأ فؤاده وجوانحه .

وامتلأت الأبيات على قلتها بالصور الكاشفة ، فالفراش حار من حرارة هواه ، وهو ملقى فى ظلام حرمانه لا يجد من يواسيه أو يسليه أو يتوجع له ، وهو طريح هم يركبه ويجثم على صدره بالأحزان ، وهو طريح شوق يتأجج فى فؤاده وحناياه ، ولا يبدو أنه ستنطفىء شعلته ، ثم هذا الليل الذى يؤويه أسود كعين الظبى ، وهذا الهم الذى يخالطه يجد له مثل ما يجد الشارب من سورة الخمر ، وهذا الشوق كالنار فى فؤاد كالجمر فى جوانح كالشواء ، وقد سبق أبو تمام إلى تشبيه الليل بالحدق فى قوله :

---

(١) أتى : العىء الملق . الحميا : سورة الخمر . المشاش : رءوس العظام الرخوة ، وأتى حال من المتكلم .

(٢) المحاش (بالكسر وبالضم) : ما أحرقته النار .

* إليك تجرعنا دجى كحداقنا *

وسبق زهير بن أبي سلمى إلى التشبيه بالخمر لها أثر في أعضاء البدن في قوله :

ظللت كأني شارب من مدامة ... من الراح تسمو في المفاصل والجسم

ومثله قول أبي نواس وإن جعلها مشبها :

فتمشت في مفاصلهم ... كتمشي البرء في السقم

وإذا كان المتنبي اختار رويا نادرا يحمد له المضي فيه ، فإننا نسجل عليه هذا التنافر الواقع في عجز البيت الأول .

١١ — وقال المتنبي في صدر إحدى مدائحه في سيف الدولة الحمداني :

أيدري الربعُ أيَّ دم أراقا ... وأي قلوبِ هذا الركب شاقا(١)

لنا ولأهله أبدا قلوب ... تُلاقي في جسوم ما تَلاقي(٢)

وما عَفَتِ الرياحُ له محلاً ... عفاه مَن حدا بهمُ وساقا(٣)

فليت هوى الأحبة كان عدلا ... فحمّل كلَّ قلب ما أطاقا

نظرتُ إليهم والعينُ شَكرَى ... فصارت كلها لِلدمع ماقا(٤)

وقد أخذ التمامَ البدرُ فيهم ... وأعطاني مِن السقَم المحاقا(٥)

---

(١) الربع : المنزل والدار بعينها حيث كانت . أراق : سفك . الركب : جماعة الركبان شاق : حمل على الشوق .

(٢) تلاق : تلاقي — مضارع حذفت ..

(٣) ماعفت الرياح له محلا : ما درسته . حدا : ساق .

(٤) العين شكرى : أي ملأى بالدمع . الماق والمأق والموق : طرف العين مما يلي الأنف

(٥) التمام : الاكتمال . المحاق : النقصان . ويكون تمام القمر في منتصف الشهر ومحاقه في آخره ...

يستعظم — عن طريق الاستفهام — مافعله ربع الأحبة به ؛ أراق دمه إذ قتله شوقا إليهم ، وحمله ركب الأحبة كل تذكرهم والحنين إليهم ، وقد أهمه أن يراق دمه وقتله جاء به أولاً ثم ذكر سببه من الشوق . وقال : لنا ولأهل الربع — أى الأحبة — قلوب تتلاق بالذكر ، وإن كانت تستقر فى جسوم ماتتلاق بسبب الهجران الواقع . وهذا الربع حل به العفاء ، ودرست منازله ، لم تعفه الرياح ولم تصبه بالدروس فلا نظلمها ، وإنما عفا بسبب مفارقة أهله — الأحبة — إياه ، عفاه حاديهم الذى حدا بهم الرواحل التى أقلتهم بعيدا عنه ، فصار بعدهم خاليا دارسا ، وأصبح على المحب أن يهيم كل الهيام ويحمل مالا يطيق ، وليت هوى الأحبة كان عدلا ، فحمله مايطيقه .

وقال : عندما ارتحل الأحبة نظرت إليهم مودعا جزعا ملتاعا وعينى شكرى ممتلئة بالدموع ، كأن بجميع جوانبها آماقا ؛ لكثرة ما فاض الدمع من جميع جوانبها ، وقد أصابنى ارتحالهم بالسقم والنحول والهزال ، فأنا فيما يشبه المحاق فى مقابل وجه الحبيبة المشرق الوضىء الذى يشبه البدر تاما مكتملا ، حال ارتحلوا بها .

١٢ — وقال المتنبى فى مدحة أخرى مدح بها سيف الدولة :

ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم　　　بعثن بكل القتل من كل مشفق(١)

أدرن عيونا حائرات كأنها　　　مركبة أحداقها فوق زئبق(٢)

عشية يعـــدونا عن النظر البكا

ومن لذة التوديع خوفُ التفرُّق(٣)

---

(١) كل القتل : أى القتل العظيم . وكالألحاظ جار ومجرور يقع نعتا لمحذوف والتقدير لم أر ألحاظا كالألحاظ يوم رحيلهم أو الكاف اسم بمعنى مثل تقع مفعولا به . وأرى بصرية وجملة بعثن حالية .

(٢) الأحداق : جمع حدقة وهى سواد العين .

(٣) يعدونا يصرفنا .

يقول : لم أر يوم رحيل الأحبة مثل الحافظهن الساحرات صوبن إلى سهامهن القاتلة فأصبن قلبي ، وهن مشفقات من لحظة الوداع ، وكن حائرات ، بدت الحيرة فى عيونهن اللاتى جعلن يدرنها ويقلبن أحداقها من طرف إلى طرف فى حركة مضطربة مهتزة غير مستقرة وكأنها مركبة على زئبق ، أما نحن فقد صرفنا البكاء عن النظر ، إذ امتلأت العين بالدمع فغاض البصر ، ومنعنا خوف الفراق من الاستمتاع بلذة التوديع ، إذ خوف الفراق يصيب المودع بالوحشة ويحمله على الجزع فلا يبقى له فرصة لتحقيق اللذة الموقوتة التى يفرغ فيها شحنة عاطفية .

١٣ — وقال المتنبى وهو يمدح عمر بن سليمان الشرابى من رجال سيف الدولة :

نرى عِظَمًا بالبين والصدُّ أعظمُ ... ونتّهم الواشين والدمعُ منهمُ (١)

ومَنْ لُبُّه معْ غيره كيف حاله ... ومَن سِرُّه فى جفنه كيف يكتمُ (٢)

ولما التقينا — والنـوى ورقيبنا ... غفولان عنا — ظلت أبكى وتبسمُ (٣)

فلم أر بدرا ضاحكا قبل وجهها ... ولم تر قبلى ميتا يتكلم

ظلومٌ كمتنيها ، لصبٍّ كخصرها ... ضعيفِ القُوَى من فعلها يتظلّمُ (٤)

---

(١) البين : الفراق . الواشين : جمع واش وهو النمام .

(٢) اللب : العقل . كيف يكتم : يقرأ الفعل مبنيا للمعلوم والمجهول .

(٣) النوى : البعد والفراق . ظلت : ظللت .

(٤) المتنان : جانبا الظهر من أسفل . يتظلم : يشتكى الظلم .

بفرعٍ يُعيدُ الليـــلَ والصبحُ نيّرٌ
ووجهٍ يُعيدُ الصبحَ والليلُ مظلمُ(١)
فلو كان قلبى دارَها كان خاليـاً
ولـكن جيشُ الشوق فيـه عرمرمُ(٢)
أثافٍ بها ما بالفؤاد من الصّلَى — ورسمٌ كجسمى ناحلٌ متهدمُ(٣)
بَلَلْتُ بها رُدنىّ والغيمُ مُسعِدِى — وعَبرتُهُ صِرفٌ وفى عَبرتى دمُ(٤)
ولو لم يكن ما انهلّ فى الخد من دمى — لما كان مُحمرا يسيلُ فأسقمُ(٥)
بنفسى الخيالُ الزائرى بَعد هجعةٍ
وقولتُهُ لى : بَعدنا الغُمضَ تطعمُ؟!(٦)

يبدأ المتنبى قصيدته بهذا الحديث عن البين والصد ، وما يطيقه منهما ، وأثرهما فى نفسه وفى محبوبته وفى الحب والصلة ، فهو أولا يستعظم البين ، مع أن الصدود أعظم منه ، لأن البين يمكن قهره بالحركة نحو التلاق ، فيتلاشى البين

---

(١) الفرع : شعر الرأس . والجار والمجرور فى أول البيت متعلق بمحذوف تقديره : تبدو أو تقبل ، أو فى مكان خبر مبتدأ تقديره هى .

(٢) عرمرم : عظيم كثير .

(٣) أثاف : جمع أثفية وهى الحجارة تنصب تحت القدر وأثفية على وزن أفعولة الصلى : الاصطلاء بالنار . رسم : ما بقى من الآثار .

(٤) الردن : الكم . مسعدى : أى معينى . العبرة : الدمع أو تحلب الدمع صرف (بالكسر) : خالص .

(٥) انهل : جرى وسال .

(٦) الهجعة : الرقدة والنومة . تطعم : بمعنى تذوق . وجملة (بعدنا الغمض تطعم) استفهام إنكارى .

وزول ، أما الصدود فإنه يفسح للتباعد(١) . وبعد هذا يقول : إننا نتهم الواشين بإذاعة ما بيننا من أسرار وغاب عنا أن دمعنا واحد من هؤلاء الوشاة ، فهو ينم عنا ، ويكشف بالصبابة ما نسره ونطويه من الوله والعشق ، وتقريراً لهذا أوضح أنه لم يعد يملك اب نفسه ، لأن هذا القلب أسير المحبوبة وهواها ، ولم يعد يملك التحكم فى كتمان حبه ، لأنه فقد سلطانه على أجفانه المؤرقة ، ومن ابه هكذا كيف يصنع ؟ ! ومن سره فى جفنه كيف يكتم ! ؟

وتحدث عن ساعة الفراق ، فأرانا أنه ومحبوبته التقيا فى غفلة من النوى والرقيب ، فظل هو يبكى وجداً وهياما ، وظلت هى تبسم من حاله خفة ودلالا ، فلم ير قبلها إنسانة فتانة مشرقة ضحوكا ، ولم تر قبله إنسانا أضناه الوجد والهيام حتى صار كيت لا يرتبط بالأحياء إلا من طريق هذه الكلمات التى يتفوه بها ، وربما لم تجاوز شفتيه ، وهذه صورة هو مغرم بها مذ قال :

كفى بجسمى نحولا أننى رجل لولا مخاطبتى إياك لم ترنى

وهو فى هذا الموقف يتظلم منها ويشتكى ظلمها ، فقد ظلمته بهذا الدلال الذى تبديه وبتلك المبالاة التى تأخذ بها نفسها فى مواجهة أمر الفراق الوشيك ، ظلمته صبا ضعيف القوى كما ظلم متناها خصرها ، ففازا باللحم والسمن والامتلاء وحرماه منها فصار مجدولا أهيف(٢) .

---

(١) وفى رواية (نرى عظما بالصد والبين أعظم) وتفسيرها أننا نستعظم الصد مع أن البين أعظم منه ، لأنه فى الصد يمكن أن تنظر العين محبوبها ، أما فى البين فليس مثل هذا النظر بمستطاع .

(٢) ونسبة هذا الفعل إلى المتنين جديد من المتنبى ، وقد جرت عادة الشعراء أن يذكروا فى هذا المقام الردفين لأن الامتلاء فيهما أظهر ، أما المتنان فيوصفان بالاستقامة ، قال النابغة فى المتجردة :

مخطوطة المتنين ، غير مفاضة ريا الروادف ، بضة المتجرد

الحق أنهما كرفيها وسط بين الخصر الضامر والردف الريان .

ولماها في دلالها كانت تتراءى له مرة بفرعها ومرة بوجهها ، فهو يصفها مرة تريك النهار ليلا بشعرها ، ومرة تريك الليل نهارا بوجهها ، وأخذ هذا من قول أبي تمام :

بيضاء تبدو في الظلام فيكتسي ... نوراً ، وتسرب في النهار فيظلم

ويعود إلى أطلالها ، فيرى قلبه ملآن بالشوق إليها ، فكأنه ساحة جيش عرمرم امتلأ بالأشواق جنود هواه وحراس حبه ، ولو كان هذا القلب مثل دارها التي رحلت هي عنها وتركتها خالية لكان خالياً فارغا ، ومع ذلك يجد في آثار هذه الدار ما يصلها بنفسه ، فأثافيها أحرقتها النار كما أحرق الشوق والعشق فؤاده ، ورسمها بال متهدم كجسمه الناحل المهزول من البعد والفراق . وقد أثارته فبكى عندها كثيراً حتى بل ردنيه وأعانه مطر السماء وقت البكاء ، ولكن هذا درّ ماء صرفا خالصا ، بينما أنهل دمعه وهو العاشق المضنى ممزوجا بدمه ، ويعلل لذلك بأنه لو لم يكن دما ما أصابه السقم الذي هو واقع .

وبعده عاش بفتات فتات الود ، ويقنع بقليل ، حتى لو كان خيالا زائراً ، كخيالها الذي يفديه بنفسه ، عندما جاءه معاتبا وهو يقول له : أتطعم التمض بعدنا !؟ ، وهل يليق بك أن تنام بعد فراقنا ؟ !

١٤ — وقال المتنبي في مصر وهو يريد سيف الدولة :

فارقتكم ، فإذا ما كان عندكمُ ... قبل الفراق أذى بعد الفراق يدُ(١)

إذا تذكرتُ ما بيني وبينكم ... أعان قلبي على الشوق الذي أجد

---

(١) يد : أي نعمة وأصله مجاز مرسل علاقته السببية ؛ لأن اليد سبب النعمة .
وما : اسم موصول مبتدأ وخبره : يد . وجملة كان صلة الموصول واسمها ضمير يعود على ما وخبرها أذى .

ومعنى البيتين : فارقتكم ، فإذا جفاؤكم الذى كنت أراه قبل فراقنا أذى ونقمة قد صار بعد الفراق يدا ونعمة ، فإذا تذكرت — فى حال اضطراب الشوق — هذه الجفوة أعان تذكرها على مقاومة الشوق إليكم .

وقيل : معناها : فارقتكم ، فإذا الصلة التى كانت قائمة بيننا ، وهى التى كنت أحسبها قبل أن أفارقكم أذى قد صارت بعد وقوع الفراق إحسانا إلى جانب ما ألقاه من سواكم ؛ فإذا تذكرت — فى حال البعد — هذه الصلة أعاننى تذكرها على تهدئة الشوق إليكم ، ثقة بأنكم على العهد والوفاء بالمودة .

والمعنى الأول ينظر إلى الجانب السلبى فى العلاقة بين سيف الدولة والمتنبى قبيل رحيله إلى مصر ، والمعنى الثانى ينظر إلى الجانب الإيجابى فى هذه العلاقة متغاضيا عما شابها من عارض الفتور . وكلا المعنيين محتمل ، ولعل المتنبى قصد التعمية فاختار « ما » فى بيتيه وهى مبهمة معماة ، وجعل صلتها فى كلا الموضعين غير محددة تحديدا كاشفا .

الفصل الثالث

الصيد والطرد

للمتنبي في الصيد والطرد عدة قصائد ، ليست تكثر عددا ، ولكنها تعظم وتروع فنا ، وأول مايبدهك منها ماتجده من انطلاق في النظم البدوي الأصيل ؛ فالمعاني بدوية ، والألفاظ بدوية ، والخيالات بدوية ، مما يكشف عن معدن المتنبي البدوي ، وخبرته بالصحراء ، وتعلقه بها على الرغم من معيشته في الحواضر .

ثم ترى هذه الأشعار أراجيز(١) ، « يقصدها » ويطيل فيها القول ، ويوفى فيها على القدامى . ولقد جاءت إحدى هذه الأراجيز (الأنموذج الأول : ومنزل ليس لنا بمنزل) مرتجلة أو شبه مرتجلة ، فهو لم يحبر لها إلا بمقدار ما كتبها في مجلس الأمير الأوراجي ، وأنشدها من ساعته ، فجاءت بديعة المعاني والصور في موضوع الطرد ، لأنها كانت على هواه ، فوجد فيها سعة من القول .

وأنشأ هذه الأشعار في ظروف كان يمكن أن تشده إلى المديح ، ولكن حاسته الأدبية استيقظت ، فصرفته عن هذا المديح — إلا لماما — واندفع يصف الصيد والصائد ، والمطرود والطارد ، والمهجوم والانفلات ، والكر والفرار ، والمواجهة والمخاتلة ، وأخذ المسالك على الفرائس ، وتحيل هذه للنجاة ، وغير ذلك .

وأتيح له أن يصف بعض الحيوان وطرائقه في الحياة ، كما وصف الظبي في الأنموذج الأول وصفا رقيقا ، تغار منه الحسناوات من بنات حواء :

---

(١) ماعدا أبياته : (وطائرة تتبعها المنايا) .

أغناه حسن الجيد عن لبس الحلى   وعادة العرى عن التفضـــل

كأنه مضمخ بصندل

وكما وصف الـكلب متربصا :

يقعى جـــلوس البدوى المصطلى   بأربـع مجـدولة لم تجـــدل

فتل الأيادى ربذات الأرجل

وكما قال فى علم هذا الـكلب ومعرفته :

كأنه من علمـه بالمقتـــل   علم « بقراط » فصاد الأكحـل

وأتيح له أن ينقد بعض المظاهر الاجتماعية ، عندما سنحت له قرون الأوعال ولحاها ، فجعل يصب منها سخرية على حملة القرون واللحى من بنى آدم ، ويقول من الأول :

كأنمـــا خلقن للإذلال   زيادة فى سبة الجهـــال

ويقول من اللحى :

لها لحى سود بلا ســبال   يصلحن للإضحاك لا الإجلال

لو سرحت فى عارضى محتال   لأمـــدها من شبكات المـال

بين قضاة السوء والأطفال

فيمس بسخريته هؤلاء الذين يتظاهرون بالتقوى ، ويراءون الناس ، ولا يذكرون الله لا قليلا ولا كثيرا .

ولم يخل هذا الشعر من الحكمة ، وإن أقل الشاعر منها ؛ لأن الوصف استغرقه ، فلم يدع له أكثر من أن يقول مرة .

فقال : لـكل حى يوم موت   وإن حرص النفوس على الفـلاح

ويقول مرة :

إن النفوس عدد الآجال

وهذه هي أشعاره :

١ — حضر المتنبي يوما مجلس أبي علي هارون بن عبد العزيز الأوراجي ، فقال له : وددنا يا أبا الطيب لو كنت معنا اليوم ، فقد ركبنا ومعنا كلب لابن أحد الملوك ، فطردنا به ظبيا ، ولم يكن معنا صقر ، فاستحسنت صيده . قال المتنبي : أنا قليل الرغبة في مثل هذا . فقال الأوراجي : إنما اشتهيت أن تراه ، فتستحسنه ، فتقول فيه شيئا من الشعر ! . قال المتنبي : أنا أفعل ، أفتحب أن يكون الآن ؟ . قال الأوراجي : أيمكن مثل هذا ! . قال المتنبي : نعم ، وقد حكمتك في الوزن والقافية . قال الأوراجي : لا ؛ بل الأمر فيهما إليك ، فأخذ أبو الطيب درجا ، وأخذ الأوراجي درجا آخر يحبر فيه كتابا في بعض شأنه ، وما هو إلا أن قطع عليه المتنبي ، وأنشده :

ومنزلٍ ليس لنـــــا بمنزلِ ولا لغير الغاديات الهُطَّلِ (١)
ندِي الخُزامَى ذَفِرِ القرنفل محلَّلٍ مِ الوحش لم يحلَّلِ (٢)
عنَّ لنا فيه مُراعِي مُغزِل مُحيَّنُ النفس بعيدُ الموئل (٣)
أغناه حسنُ الجِيد عن لبس الحلي وعادةُ العُرْي عن التفضل (٤)
كأنه مُضَمَّخ بصَنْـــدل معترضا بمثل قَرْن الأَيِّل (٥)

---

(١) ومنزل : رب منزل . الغاديات : السحائب في الصباح . الهطل : الكثيرات الماء .

(٢) ندى الخزامى : رطبها والخزامى من نبات الصحراء . ذفر القرنفل : ذكي الرائحة بالقرنفل . محلل : اسم مفعول من حال بمعنى حل كثيرا . م الوحش : أصلها من الوحش فحذف نون من .

(٣) عن : بدا وظهر . مراعي مغزل : يرعى مع منزل والمغزل الظبية ذات الغزال . محين النفس : هالكها . الموئل : الملجى .

(٤) الجيد : العنق . الحلي . الزينة وأصله التشديد خففه للقافية .

(٥) مضمخ بصندل : مطيب به والصندل يشبه في لونه لون الظبي . الأيل : الوعل الذكر .

يَجولُ بين الكلْب والتأمل ... فخرّ كلابي وثاقَ الأحبُل (١)

من أشدقٍ مُسَوْجَرٍ مُسَلْسَلِ ... أقبَّ ساطٍ شرسٍ شمردل (٢)

منها إذا يُثْغَ له لا يَغْزَلِ ... مُوَجَّدِ الفقْرَةِ رِخْوِ المفصلِ (٣)

له إذا أدبر لحظُ المقبِلِ ... كأنما ينظر من سَجَنْجَل (٤)

يعدو إذا أحزَنَ عَدْوَ المُسْهِل ... إذا تلاه جاء المَدَى وقد تُلِى (٥)

يُقعِى جُلوسَ البدوىِّ المصطلى ... بأربعٍ مجدولةٍ لم تُجْدَل (٦)

فُتْلِ الأيادى رَبِذاتِ الأرجل ... آثارُها أمثالُها فى الجندل (٧)

يكاد فى الوثب من التفتل ... يجمع بين متْنه والكلكل (٨)

وبين أعلاه وبين الأسفل ... شِبهُ وَسْمِيِّ الحضارِ بالوَلى (٩)

---

(١) كلابى : كلاب مضاف الى الياء والكلاب سائس الكلاب . وثاق الأحبل : الحبال يوثق بها أى يشد بها الكلاب .

(٢) أشدق : واسع الشدق وهو وصف الكلاب الذى حل الكلاب وثاقه . مسوجر : فى رقبته ساجور وهو قلادة توضع فى عنق الكلب . مسلسل : فى عنقه سلسلة . أقب : ضامر . ساط : مدرب على السطو والصيد . شرس : سيء الخلق . شمردل : قوى فتى سريع

(٣) منها : قيل إن الضمير للكلاب المفهومة من قوله (كلابى) أى صاحب كلابى . يثغ له : يصوت له والثغاء صوت الشاة ونحوها . لا يغزل : لا يفتر عن الطلب ، والفعلات مجزومان بعد إذا ضرورة . موجد الفقرة . قوى عظام الصلب . رخو المفصل : لينه .

(٤) السجنجل : المرآة .

(٥) أحزن : سار فى الحزن وهو الوعر . المسهل . السائر فى السهل . تلاه : تبعه . المدى : الغاية .

(٦) يقعى : يجلس على أليتيه . المصطلى : المستدفىء بالنار . مجدولة : مفتولة خلقة .

(٧) فتل الأيادى . مفتولها واليد الفتلاء التى لا تمس الصدر عند الجرى : ربذات : سريعات خفيفات . الجندل : الصخر .

(٨) التفتل : الانفتال . متنه : جانب ظهره عند الصلب . الكلكل : الصدر .

(٩) أعلاه : أى رأسه . الأسفل : أى القوائم . الحضار : العدو الشديد . الوسمى من المطر أوله والولى ما يلى الوسمى ، وفيه تتابع حركة الكلاب بتتابع المطر .

كأنه مضبَّرٌ مِن جَرْوَلِ   موثَّقٌ على رِماحٍ ذُبَّلِ(١)

ذي ذَنَبٍ أجرَدَ غيرِ أعزَلِ

يخطُّ في الأرض حسابَ الجُمَّلِ(٢)

كأنه مِن جِدِّه بمعزِلِ

لو كان يُبلي السوطَ تحريكٌ بَلي

نَيْلُ المُنى ، وحُكْمُ نفسِ المُرسِلِ

وعُقلةُ الظبي ، وحَتْفُ التَّتْفُلِ(٣)

فانبريا فَذَّين تحت القَسْطَلِ   قد ضَمِنَ الآخِرُ قتلَ الأوَّلِ(٤)

في هَبْوَةٍ كلاهما لم يَذْهَلِ   لا يأتلي في تَرْكِ أن لا يأتلي(٥)

مقتحِمًا على المكانِ الأهْوَلِ

يخالُ طولَ البحرِ عَرْضَ الجدولِ(٦)

---

(١) مضبر وموثق : كلاهما بمعنى محكم الخلق . جرول : حجر صلب . رماح ذبل : قصد بها قوائمه . والرمح الذابل : الرقيق .

(٢) أجرد : قليل الشعر . أعزل : أعزل ذنبه ذي اعوجاج مع قصره وهذا الكلب غير أعزل أي أن ذنبه مستو مع قصاره .

(٣) عقلة الظبي : قيده . حتف التتفل : هلاكه والتتفل ولد الثعلب — يصف الكلب بصفات أربع .

(٤) انبريا : تعرضا لمن يتعارها وهما الكلب والظبي . فذين : فردين أي كلاهما وحده . القسطل : الغبار الثائر .

(٥) هبوة : غبرة . لم يذهل : لم يغفل . لا يأتلي : لا يقصر .

(٦) مقتحما : أي داخلا في أمر شديد . المكان الأهول : الكثير الهول يقصد أنه مخوف . الجدول : النهر .

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

هذه الصفحة غير موجودة من أصل المصدر

… ترقيم الصفحات بعد ٨٠ رقم ٩٧

الفصل الرابع

وصف المعارك والحروب

شهد المتنبي في ساحات الحرب والقتال صداما وعراكا ونزالا ونضالا ، ورأى النقع يثار ، والدماء تسيل ، والسيوف تروى من هذه الدماء ، والأشلاء تمزق ، وأبصر الغالب والمغلوب ، فاستحضر النصر والهزيمة ، والحرية والعبودية ، والرضا والمقت ، والنعمة والحرمان ، وانطلق يصف ما شهد ، ويرسم صورة ما رأى ، ويتخيل ما يتقلب فيه الغالب والمغلوب ، ويجد مجالا وسيعا للحكمة فيما يستحضره ، فهو يأتي بها — أي بالحكمة — تلوينا لفكره ، ويودعها تجربته عن طبائع الناس وموازين الأقدار ، ويربطها بما يدرك من أمور الحياة ، وتقلباتها بين العز والذل والرفعة والضعة .

وجاء حديث المتنبي عن الحرب متفقا مع طموحه وأمانيه في السلطان والسيطرة ، ومتفقا مع الجرأة التي أخذ بها نفسه منذ الصغر ، ومتفقا مع التربية التي لقيها في البادية وفي « كتاب » القرامطة .

وقد عرف العرب في القديم شعر الحرب ، وظل ممتزجا بغيره من الشعر في القصيدة الواحدة ، حتى أخذ يتميز في بعض شعر أبي تمام والبحتري بقصائد خاصة ، فلما جاء المتنبي أصبح هذا الضرب الصريح من شعر الحرب كامل التحديد واضح الظهور في مبادئه وخواتيمه ، وبرزت حدوده للعيان ، ونظم فيه القصائد الطوال ، ولولا ما كان يأخذ به نفسه من الافتتاح بالغزل والختام بالحكمة [أحيانا] لجاءت قصائده في شعر الحرب مثالا فنيا رائعا(١) .

(١) انظر : شعر الحرب في أدب العرب للدكتور زكي المحاسني – ص : ٢٩٠ وما بعدها .

ونستطيع القول بأن المتنبي ارتفع بشعر الحرب إلى شعر الملاحم ، في أسلوب جزل ، وتصوير بارع ، ووصف دقيق للحرب ، وأدواتها ، ومواقعها ، والتحام الفرسان ، واشتجار القنا ، وصليل السيوف[1] .

والمتنبي يقف إلى جانب أصحابه ورفاق السلاح ، يحمسهم ويستحثهم ويخذل عنهم ، ثم يرفع مكانتهم منتصرين ، ويمدحهم ظافرين ، ويهون عليهم انكسارهم إن انكسروا ، ويملؤهم حماسة ويقينا من النصر في المعارك المقبلة ، وهذا كله كان واضحا في وصفه لحروب سيف الدولة مع الروم .

وقد جاء مبكرا إعجاب النقاد بشعر المتنبي في الحرب ؛ فهذا ابن الأثير (٥٥٨ — ٦٢٧هـ)[2] يقول عنه : «واختص بالإبداع في وصف مواقف القتال ، وأنا أقول قولا لست فيه متأثما ولا منه متلثما . وذلك أنه إذا خاض في وصف معركة كان لسانه أمضى من نصالها ، وأشجع من أبطالها ، وقامت أقواله للسامع مقام أفعالها ؛ حتى تظن الفريقين قد تقابلا ، والسلاحين قد تواصلا ؛ فطريقه في ذلك تضل بسالكه ، وتقوم بعذر تاركه . ولاشك أنه كان يشهد الحروب مع سيف الدولة بن حمدان ، فيصف لسانه ما أدى إليه عيانه » .

والمعارك التي وصفها المتنبي أربعة أقسام :

(أ) معارك شهدها مع غير سيف الدولة .

(ب) معارك أوقع فيها سيف الدولة بالعصاة من العرب والمسلمين .

(حـ) معارك خاضها سيف الدولة مع الروم وانهزم فيها .

(د) معارك خاضها سيف الدولة مع الروم وانتصر فيها عليهم .

---

(١) انظر : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين للدكتور مصطفى الشكعة — ص : ٣١٨ وص : ٤٢٢ ...

(٢) المثل السائر — ص ٣٠٢ — طبعة المطبعة البهية — القاهرة — ١٣١٢ هـ .

القسم الأول : وصفه لمعارك التنوخيين مع خصومهم .

جاء المتنبي اللاذقية ، ومدح التنوخيين ، وكان فيمن مدحهم علي بن إبراهيم التنوخي ، مدحه بقصيدته الدالية التي مطلعها :

أحادٌ أم سداسٌ في أحادِ   لُيَيْلَتُنا المنوطةُ بالتنادي[1]

وطالت عليه هذه الليلة من طول ما يفكر في الحرب ، وقيادة الخيل إلى إلى الأعداء ، وسفك دم الحواضر والبوادي ، كما قال بعد بيت واحد :

أفكِّرُ في مُعاقرة المنايا   وقَوْدِ الخيل مُشرفةَ الهوادي
زعيمٌ للقنـــا الخطيِّ عزمي
بسفكِ دمِ الحواضرِ والبوادي[2]

وبعد أبيات في المديح ذكر يوم الموقعة ، التي أوقعها الممدوح بخصومه ، فقـال :

---

(١) أحاد : معدول من الواحد يدل على تكراره أي واحد واحد ، ومثله ثناء وثلاث ورباع ... الخ . والتنادي للحرب . يقول على سبيل الاستفهام . أهذه الليلة التي جعلت للتنادي للحرب ليلة واحدة أم أنها لطولها سبع ليال (٦ + ١) ، وتصغير الليلة للتعظيم والتهويل ، على حد قول لبيد بن ربيعة :

وكل أناس سوف تدخل بينهم   دويهيـــة تصفر منها الأنامل

يعني الموت الذي هو أعظم الدواهي .

(٢) معاقرة المنايا : أي ملازمتها ويكون بملازمة الحروب . مشرفة الهوادي : أي طوال الأعناق . زعيم : كفيل وضامن . القنا الخطي : الرماح المنسوبة إلى الخط — وهو موضع باليمامة مشهور بصناعة الرماح — الحواضر : جمع حاضرة وهي غير البادية فتشمل المدن والقرى والريف . البوادي : جمع بادية وهي الصحراء ، وسفك دم الحواضر والبوادي يعني سفك دماء من فيها ...

ويومٍ جَلَبْتَها شُعْثَ النواصي ... مُعَقَّدةَ السبائبِ للطِّرادِ (١)

وحامَ بها الهلاكُ على أناسٍ ... لهم باللاذقية بَغْيُ عادِ (٢)

فكانَ الغَرْبُ بحراً من مياهٍ ... وكان الشرقُ بحراً من جيادِ

وقد خَفَقَتْ لكَ الراياتُ فيه ... فظَلَّ يموجُ بالبيضِ الحِدادِ (٣)

لَقُوكَ بأكبُدِ الإبلِ الأَبَايا ... فسُقْتَهُمُ وحدُّ السيفِ حادِ (٤)

وقد مَزَّقْتَ ثوبَ الغَيِّ عنهم ... وقد ألبستَهم ثوبَ الرشادِ

فما تركوا الإمارةَ لاختيارٍ ... ولا انتحلوا ودادَكَ عن ودادِ (٥)

ولا استَفَلُوا لزُهْدٍ في التعالي ... ولا انقادوا سروراً بانقيادِ (٦)

ولكنْ هبَّ خوفُكَ في حشاهم ... هبوبَ الريحِ في رِجْلِ الجرادِ (٧)

وماتوا قبلَ موتِهمُ فلما ... مننتَ أعدتَهم قبلَ المَعادِ (٨)

---

(١) جلبتها : الضمير للخيل . شعث النواصي : مغبرتها ، والشعث جمع أشعث ، والنواصي جمع ناصية وهي هنا شعر مقدم الرأس ويسمى العرف أيضا وجمعه أعراف وعروف . السبائب جمع سبيبة وهي شعر العرف والذيل ، وجرت عادتهم على عقدها عند الحرب .

(٢) حام : دار . بغى عاد : أى ظلم كظلم عاد ، قوم هود .

(٣) البيض الحداد : السيوف الحادة ، وحدة السيف فى رقة شفرته .

(٤) الأبايا : جمع آبية وهى الممتنعة ، أى لقوك بأكباد قاسية مثل أكباد الإبل والإبل توصف بذلك . حاد : هو الحادى الذى يسوق الإبل ، شبه عمل حد السيف فيهم بعمل الحداء فى الإبل كما شبه أكبادهم بأكبادها .

(٥) انتحلوا : ادعوا .

(٦) استفلوا : سفلوا وانحطوا . انقادوا : أطاعوا .

(٧) هب : ثار واضطرب . حشاهم : ما انضمت عليه ضلوعهم . ورجل الجراد : الإضافة هنا بمعنى من والرجل من الجراد القطعة منه .

(٨) مننت : أى عفوت عنهم . المعاد : البعث يوم القيامة .

غَمدتَ صوارما لو لم يتوبوا … محوتَهمُ بها محوَ المدادِ(١)

وما الغضبُ الطريفُ وإن تقوّى … بمنتصفٍ من الكَرَم التِّلادِ(٢)

فلا تغررْك ألسنةٌ موالٍ … تقلّبهنّ أفئـــدة أعادِ(٣)

وكن كالموت لا يرثي لباكٍ … بكى منه ويُروِى وهو صادِ(٤)

فإن الجرح يَنفِر بعد حين … إذا كان البناء على فسادِ(٥)

وإنّ الماء يجري من جَمادٍ … وإن النار تخرجُ من زِنادِ(٦)

وكيف يبيت مضطجعاً جبانٌ … فَرَشْتَ لجنبه شوكَ القتادِ(٧)

يرى في النوم رُمحَكَ في كلاه … ويخشى أن يراه في السُّهادِ(٨)

والمتنبي في هذه الأبيات يذكر ممدوحه بهذا اليوم الذي جاب فيه الخيل للحرب ، منبرة من كثرة الطراد عليها ، وقد عقد نواصيها وأذنابها ، ودار بها على هؤلاء الذين بغوا في اللاذقية بغيا شديدا يشبه بغي عاد قوم هود

---

(١) غمد السيف من بابي ضرب ونصر مثل أغمد بالهمز بمعنى جعله في غمده . الصوارم جمع صارم وهو السيف القاطع وأصله وصف له ، وقد نون صوارم وحقها المنع من الصرف لإقامة الوزن . المداد : الحبر .

(٢) الطريف : الحادث والجديد ، والتلاد : القديم . منتصف : اسم فاعل من انتصف بمعنى استوفى الحق .

(٣) موال جمع مولى وهو الصديق . أعاد : جمع عدو .

(٤) لا يرثي لباك : لا يرق له ولا يرحمه . صاد : عطشان .

(٥) ينفر : يهيج ويعود إلى الورم .

(٦) جماد : صخر . زناد : جمع زند وهو العود الذي تقدح فيه النار .

(٧) القتاد : شجر شائك .

(٨) السهاد : السهر ، والمتنبي يقصد به اليقظة ، ففيه تقصير منه لأن السهاد يكون ليلا فقط ولا يسمى اليقظ بالنهار ساهرا .

بالأحقاف ، فاستحقوا أن يطرم الله بعذاب من عنده ، « فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم »(١) ، فجاءهم التنوخى بجيش كثيف من الخيل ، حاصرهم به من الجانب الشرقى ، بينما كان البحر الوسيط يحصرهم من الجانب الغربى ، فوقعوا بين بحرين أحدهما ماء مالح والآخر خيل الحرب — وجعله بحرا آخر على التشبيه لما رأى من كثرة الجياد واتساع ميدانها وبريق السلاح فيها — وقد خفقت بالنصر أعلام الممدوح فى هذا البحر — بحر الجياد — فظل يموج بالسيوف الصوارم الحادة .

ثم قال : لقيك هؤلاء العصاة بأكباد غليظة متأبية عاصية كأكباد الإبل ، فسقتهم بحد السيف كما تساق الإبل بالحداء ، وكشفت ضلالهم ، ومزقت ثوب التى الذى تجلببوا به ، ورجعتهم إلى الطاعة ، فألبستهم بها ثوب الرشاد ، واستقاموا على الرغم منهم ، إذ هب خوفك فى حشاهم ، فما أعلنوه من الإذعان لك وترك الإمارة شىء قد اضطروا إليه ولم يصدر عن اختيار منهم ، وما أظهروه من الوداد شىء انتحلوه ولم يمثل حقيقة ما فى قلوبهم ، وما أبدوه من الانكسار شىء زيفوه ولم يكن لوحدهم فى التمالك ، وما قدموه من فروض الطاعة والانقياد شىء اصطنعوه لم يكن عن مسرة وارتياح ، كل ذلك فعلوه لأن ريح الخوف منك ثارت فى نفوسهم فعصفت بهم ومزقتهم كالجراد تمزقه الريح وتبدد أرجاله ، فماتوا أى استحقوا الموت بما أصبتهم به من قبل الأوان ، فلما تابوا مننت عليهم بالعفو فرددت عليهم حياتهم وأعدتهم إليها قبل يوم البعث(٢) ، وكانت سيوفك البواتر كفيلة بمحوهم وإزالتهم من الوجود — كما يزال مداد الصحيفة — لو لم يعلنوا التوبة والطاعة والانقياد والخضوع .

وكأن المتنبى لم تعجبه توبة العصاة على هذه الصورة ، فأخذ يدعو التنوخى إلى استئصالهم ، واتخذ من الحكمة درعا له فى هذه الدعوة ، فقال له :

---

(١) سورة : الأحقاف الآية ٢٥ .

(٢) وهذه من مبالغات المتنبى ، ولا يخفف منها إلا تقدير التشبيه فيها .

إذا كان هذا الغضب الطريف الحادث بالرغم من قوته لا يغلب ما ترتد إليه — فى العفو عنهم — من الكرم التالد والطبيعة القديمة فإن هذا لا يمنع من أن تحذرهم ، وألا تغتر بما يظهرون لك من المودة بألسنتهم بينما تغلى أفئدتهم بالحقد ، فكن قاسيا عليهم كالموت لا يرحم باكيا ، وربما روى مما يشرب من الدماء ومع ذلك يظل صاديا عطشان لأن وظيفته انتزاع الأرواح ، واحذر أن ينتكس أمرهم منقضا كما ينتكس الجرح إذا رم على فساد(١) ، وثق من عداوتهم لك لأنها تستتر وراء ما يخادعونك به من الوداد ، ففى هذا الوداد المصطنع تكمن عداوتهم كما يكمن الماء فى الحجر(٢) ، والنار فى الزناد(٣) . ولا تنتظر أن يخلصوا لك ظاهرا وباطنا وقد وطأت لهم فرشا شائكا ، وكيف يهب الجبان — يقصد العدو — مضطجعا ، وكلما ألقى للنوم جنبه وجد نفسه يتقلب على مثل شوك القتاد ، وإذن لا يزال متيقظا يفكر فى الكيد لك ، ولقد يراك فى منامه تطعنه برمحك فى كليته فتقضى عليه ويخشى — من ارتياعه وذعره — أن يرى ذلك فى اليقظة ، ولعله من هذه الزاوية يداريك وينتحل ودادك ، ريثما يصل إلى تدبير .

القسم الثانى : وصفه لمعارك سيف الدولة مع بنى كلاب ، ومع بنى عقيل وأحلافهم :

١ — شغب بنو كلاب العصيان بنواحى « بالس » ، فسار إليهم سيف

---

(١) وأخذه من البحترى حيث قال :

إذا ما الجرح رم على فساد ... تبين فيه تفريط الطبيب

(٢) « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء » البقرة : ٧٤ .

(٣) « أفرأيتم النار التى تورون . أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون » — الواقعة : ٧١ ، ٧٢ .

الدولة ، والمتنبي معه ، فأدركهم ، وأوقع بهم ، وبدد شملهم ، وأسر الرجال ، وسبى النساء ، ثم عفا عن الأسرى والسبايا منها ، وأنشده المتنبي في هذا قصيدته :

بغيرِكَ راعياً عبثَ الذئابُ وغيرَكَ صارماً ثَلَمَ الضرابُ[1]

وتَمْلِكُ أنفسَ الثقَلَين طرّاً

فكيف تحوزُ أنفسَها «كِلابُ»[2]

وما تركوكَ معصيةً ، ولكن

يُعافُ الوِردُ ، والموتُ الشرابُ[3]

طلبتَهُمُ على الأمواهِ حتى تخوَّفَ أن تُفتِّشَه السحابُ

فبِتَّ لياليــاً لا نومَ فيــها

تَخُبُّ بكَ المسوَّمةُ العرابُ[4]

يَهُزُّ الجيشُ حولكَ جانبيه كما نَفَضَتْ جناحيها العُقابُ[5]

وتَسأَلُ عنهم الفَلَوَاتِ حتى أجابكَ بعضُها وهُمُ الجوابُ[6]

فقاتَلَ عن حريمهم — وفرّوا — نَدَى كفيْكَ ، والنسبُ القُرابُ[7]

---

(١) الضراب : الضرب . وراعيا وصارما : منصوبان على الحال .

(٢) الثقلين : الإنس والجن . طرا : جميعا .

(٣) يعاف الورد : يتحاشى . والورد إتيان الماء للشرب . ومعصية مفعول لأجله ، وجملة (والموت الشراب) حالية .

(٤) تخب : تعدو . المسومة : أى الخيل المسومة وهى الخيل المعلمة . العراب : العربية .

(٥) العقاب : طائر من فصيلة النسور يطلق على الذكر والأنثى .

(٦) الفلوات : جمع فلاة وهى الصحراء .

(٧) ندى كفيك : جودهما وهو فاعل قاتل ، وجملة (فروا) حالية . القراب : القريب .

وحِفظك فيهم سالِفَيْ معدٍّ ،   وأنَّهمُ العشائرُ والصحابُ (١)

تُكَفكِفُ عنهمُ صُمُّ العوالي   وقد شرِقَتْ بظُعْنِهمُ الشِّعابُ (٢)

وأُسقِطتِ الأجنَّـــةُ في الوَلايا

وأُجهِضتِ الحـــوائلُ والسِّقابُ (٣)

وعمرو في ميامنهم عُمُورٌ   وكَعْبٌ في مياسرهم كِعابُ (٤)

وقد خذلتْ أبو بكر بنيها   وخاذَلَها قُرَيظٌ والضِّبابُ

إذا ما سِرتَ في آثار قوم   تخاذلتِ الجماجمُ والرقابُ

فعُدْنَ كما أُخذْنَ مكرَّماتٍ   عليهنَّ القلائدُ والمَلابُ (٥)

يُثِبْنَكَ بالذي أوليتَ شكراً   وأين من الذي تُولي الثوابُ (٦)

وليس مصيرُهنَّ إليكَ شَيْناً   ولا في صَوْنِهنَّ لديك عابُ (٧)

---

(١) السالف : كل من تقدم من الآباء والأقارب . والشاعر يشير إلى أن سلف سيف الدولة ربيعة لأنه من تغلب ، وسلف بني كلاب مضر لأنهم من قيس ، وربيعة ومضر ابنا نزار بن معد بن عدنان ؛ فالإضافة في قوله (سالفي معد) على معنى من .

(٢) تكفكف : تكف . صم العوالي : صلابها والعوالي صدور الرماح . شرقت : غصت . ظعنهم : أمتعتهم والظعن جمع ظعينة وهي المرأة ما دامت في هودجها ، ثم توسعوا فأطلقوه على المرأة دون قيد . الشعاب : الطرق في الجبال واحدها شعب .

(٣) الأجنة جمع جنين وهو الولد في بطن أمه . الولايا : جمع ولية وهي القتب يوضع فوق سنام البعير أو كساء يوضع تحت البرذعة . أجهضت : أسقطت . الحوائل : جمع حائل وهي الأنثى من أولاد الإبل . والسقاب : جمع سقب وهو الذكر منها .

(٤) هذا مثل يضربه للتفرق والتمزق إذ تتمزق القبيلة ويتوزع أفرادها .

(٥) الملاب : ضرب من الطيب .

(٦) يثبنك : يكافئنك ، والثواب المكافأة . أوليت : أحسنت وأنعمت .

(٧) الشين والعاب : العيب .

ولا فى قدرهن بنى كلاب

— إذا أبصرن غُرّتك — اغتراب(١)

وكيف يتمّ بأسُك فى أناسٍ   تُصيبهم فيؤلمك المصابُ

ترفّقْ أيها المولى عليهــــم   فإن الرفق بالجانى عتاب

وإنّهم عبيدُك حيث كانوا   إذا تدعو لحــــادثة أجابوا

وعَيْنُ المخطئين هُمُ . وليسوا   بأول معشر خَطِئوا فتابوا(٢)

وأنت حياتُهم غضبتْ عليهم   وهَجْرُ حياتهــم لهم عِقَاب

وما جهلتْ أياديكَ البوادى   ولـكنْ ربّما خَفِىَ الصواب(٣)

وكم ذنبٍ مُوَلِّدُهُ دَلالٌ   وكم بُعْدٍ مولده اقتراب

وجُرمٍ جرَّه سُفهاء قومٍ   وحَلّ بغير جارمه العذاب(٤)

فإن هابوا بجرمهم «عليّا»   فقد يرجو «عليا» مَن يهاب(٥)

وإن يك سيفَ دولةِ غيرِ قيس   فمنه جُلودُ قيسٍ والثياب(٦)

---

(١) غرتك : وجهك ، والغرة من كل شىء أوله .

(٢) خطئ ، وأخطأ : كلاهما بمعنى أذنب ولم يأت الصواب . وقيل الأول يكون من عمد والثانى فيما لم يتعمد .

(٣) أياديك : نعمك . البوادى : الصحارى ويريد أهلها من باب المجـاز المرسل علاقته المحلية .

(٤) جرم : جريمة وذنب : سفهاء : جمع سفيه وهو ضعيف العقل خفيف الحلم . جارمه : مرتكبه وهو المجرم السفيه .

(٥) على : هو سيف الدولة على بن أبى الهيجاء عبد الله بن حمدان بن حمدون .

(٦) قيس : جد بنى كلاب كما تقدم .

وتحت رَبابِه نَبَتُوا وأثُّوا ... وفي أيامه كثُروا وطابُوا(١)

وتحت لوائه ضربُوا الأعادي ... وذَلَّ لهم من العرب الصِّعابُ

ولو غيرُ الأميرِ غزا كلابًا ... ثناه عن شُموسِهم ضَبابُ(٢)

ولاقى دُونَ ثايِهم طِعانًا ... يُلاقي عنده الذئبَ الغُرابُ(٣)

وخيلًا تغتذِي ريحَ الموامي ... ويكفيها من الماء السَّرابُ(٤)

ولكنْ ربُّهم أسرى إليهم ... فما نفعَ الوقوفُ ولا الذهابُ(٥)

ولا ليلٌ أجَنَّ ولا نهارٌ ... ولا خيلٌ حمَلْنَ ولا رِكابُ

رميتَهم ببحرٍ من حديد ... له في البرِّ خلفَهم عُبابُ(٦)

فمسَّاهم وبُسْطُهُم حريرٌ ... وصبَّحهم وبُسطُهم ترابُ(٧)

ومَن في كفِّه منهم قناةٌ ... كمَن في كفِّه منهم خِضابُ

---

(١) ربابه : يقصد إحسانه على سبيل الاستعارة ، ويجوز أنه يقصد سماء دولته ، والرباب (بالفتح) : الغيم يضرب إلى السواد يرى كأنه دون السحاب . نبتوا : يقصد عاشوا ونشأوا تحت هذا الإحسان من طريق الاستعارة . أثوا : كثروا وقووا مأخوذ من أث النبت إذا كثر والتف .

(٢) قصد بالشموس نساءهم وبالضباب اللثام عليهن ، أو قصد بالشموس سادتهم وبالضباب الرماح على ما يأتي في البيان .

(٣) لاقى : معطوف على ثناه . ثايهم : يقصد ديارهم ، والثاى جمع ثاية وهي حجارة تجعل حول البيت لمبارك الإبل ومرابض الغنم ويأوي الرعاة إليها ليلا .

(٤) خيلا : معطوف على طعانا : تغتذي ريح الموامي : تجعلها غذاءها ، والموامي جمع موماة وهي الصحراء .

(٥) ربهم : مالكهم وصاحب أمرهم . أسرى : سار ليلا .

(٦) العباب : الموج .

(٧) مساهم وصبحهم : يقصد أتاهم مساء ورحل عنهم صباحاً . البسط : جمع بساط وهو كل ما يبسط وحقه الضم فسكنه للوزن .

بنو قَتْلَى أبيكَ بأرض نجدٍ ... ومَن أبْقَى وأبقَتْه الحِراب(١)

عفا عنهـــم وأعتقهم صغارا ... وفى أعناق أكثرهم سِخاب(٢)

وكلكم أتى مأتى أبيـــه ... فكلُّ فَعال كلِّكم عُجاب(٣)

كذا فليَسْرِ مَن طَلَبَ الأعادى ... ومثل سُراكَ فليكن الطِّلاب

بدأ المتنبى قصيدته بذكر سلطان سيف الدولة ورأفته ورعايته لرعيته، عن طريق الإذلال من غيره، وتهوين شأن من عداه، فلو كان غيره الراعى لعبثت به الذئاب وبسوامه، ولو كان غيره الصارم لنبا الضراب، أما إذا كان سيف الدولة هو الراعى لم يجرؤ أحد على العبث به وبما يرعاه، وإذا كان سيف الدولة هو الصارم البتار لم يؤثر فيه الضراب، وإنه ليملك أنفس الثقلين : الإنس والجن جميعا فلا يجوز أن يكون لقبيلة كلاب أن تملك أنفسها، ولهذا ترك بنو كلاب حين طلبتهم أن يردوا مياهك خوفا منك لا عصيانا لك، وعافوا الورود لأن فيه هلاكهم وموتهم إذا هم تجرءوا على عصيانهم .

وبعد هذا وصف حركة سيف الدولة لطلابهم؛ فطلبهم على المياه جادا فى الطلب حتى تخوف السحاب من أن يطلبهم لديه، وساق الخيل المسومة العراب ليالى لا نوم فيها، وأعد لهم جيشا لجبا يملأ الأفق بجناحيه : الميمنة والميسرة، وهو فيما بينهما يقودهما ويضطرب فيما يضطربان فيه، كأنهما جناحا عقاب تنفضهما، وجاز الفلوات باحثا عنهم راغبا فى الظفر بهم، وجعل أمر البحث سؤالا والظفر جوابا على سبيل الاستعارة .

---

(١) يشير إلى أن هؤلاء أرقاء أبوه وآباؤهم فى أرض نجد عندما اجتازها للحج .

(٢) السخاب : قلادة يلبسها الصبيان تتخذ من القرنفل ونحوه ولا ترصع بجوهر .

(٣) فعال : بالفتح الفعل فى الخير أو فى الشر وأكثر استعماله فى الخير . وبالكسر جمع فعل . عجاب : عجيب جدا .

وظفر بهم ، وبحريمهم ، وقد فروا هاربين ، لكن سيف الدولة كان لديه ما يدفعه إلى صيانة الحريم والذياد عنهن ، وأن يبادر إلى حمايتهن من غضبته هو ، وتعاون في وقوفه هذا الموقف الإنساني النبيل : نداه وكرمه وجوده ، وصلة القربى والنسب ، ورغبته في الحفاظ على هذه القربى التي تنتسب إلى معد ، والعشرة ، والصحبة ، فما كان إلا أن كف عنهن وحال بينهن وبين الهلاك الذي بدت نذره في اشتداد الأمر على بعض الظعائن ، وإجهاض الحوامل من النساء على ظهور الإبل ، التي أسقطت هي الأخرى ، وبدت نذره في تفرق القوم وتمزقهم شذر مذر ، وفي خذلان بعضهم بعضا ، بل في خذلان رءوسهم لأعناقهم وتبرؤ هذه الأعناق من الرءوس ، كل يلوي صاحبه ولا بنوه ، ولا يعنيه أمره ولا يعنيه إلا أمر نفسه ؛ فعادت النسوة مرزآت مكرمات لا عليهن القلائد والأسلاب ، كما كن في الزينة والطيوب ، شاكرات ما أولاهن من نعمة الحياة — مع أن نعمه أجل من أن تكافأ — فرحات بصنيع وردهن إليه سبايا ، كأن لم يفارقن رجالهن ولم يفقدن أزواجهن ولم يفترقن ؛ فقد أبدلن بهم خيرا منهم . وينهي الشاعر هذا الموقف الذي فيه مسحة من إنسانية المحارب بتقرير أنه لا يتم بأس الممدوح في أناس يعقون إليه إذا أصابهم بمكروه نال منه ، كما قال الحارث بن وعلة :

قومي هم قتلوا — أميم — أخي ‌ ‌ ‌ فإذا رميت يصيبني سهمي
ولئن عفوت لأعفون جللا ‌ ‌ ‌ ولئن سطوت لأوهنن عظمي(1)

وانتقل الشاعر بعد هذا إلى حديث آخر ، لعل الذي أملاه تعصبه للعرب ، ورغبته عن سفك الدماء العربية ، وسالفة اليد لبني كلاب عليه(2) . فدعا سيف الدولة إلى الرفق بهم وإن جنوا والإحسان إليهم وإن أذنبوا ؛ فإن في الرفق

---

(1) أميم : أميمة منادى مرخم . جللا : أي ذنبا جللا خلاف المعهود .

(2) وقد مدحهم بقصيدته التي مطلعها :

أحيا وأيسر ما قاسيت ما قتلا ‌ ‌ ‌ والبين جار على ضعفي وما عدلا

كما أنه سامرهم على الأعراب ، وقال في هذا بعض مقطوعاته .

عتابا ، وفى الإحسان استعبادا للقلوب ، وهم عبيده حيث كانوا يأتمرون له ويلبون نداءه ، وهم ليسوا أول من أخطأ واعترف بخطئه ، وهم متعلقون به تعلقهم بالحياة فإذا عاقبهم بالغضب عليهم فقد هجرتهم حياتهم ولا عقاب أنكى من هجران الحياة ، وهم عبيد أياديك فما جهلوا هذه الأيادى والنعم حين شغبوا ، ولكن خفى الصواب عليهم فضلوا وما رشدوا ، ولعلهم أدلوا عليك لفرط إحسانك إليهم ، وتباعدوا لفرط ما اقتربت منهم ، ولعل سفهاءهم هم الذين أجرموا فأصابتهم جميعا النقمة ، ولم تصب الذين ظلموا منهم خاصة .

فإن هاب بنو كلاب سيف الدولة بما أجرموا فإنهم يرجون عفوه ، وإن يك سيف الدولة من تغلب لا من قيس فإنه ولى نعمتهم ، جلودهم نبتت بإحسانه ، وأبدانهم اكتست بما خلع عليهم ، وفى ظلال دولته نشئوا ، وكثروا ، وعزوا ، وتحت لوائه تمكنوا من أعاديهم ، وانقاد لهم من العرب من لا ينقاد لأحد .

وهم قوم شجعان بواسل متمرسون بالحرب راجلين وفرسانا ، فلو غزاهم غاز غير سيف الدولة لشغله الرعاع — وشبههم بالضباب — عن الوصول إلى السادة الأشراف — وشبههم بالشموس[1] ، وللاقى هذا الغازى قبل الوصول إلى ديارهم حربا يكثر فيها القتلى حتى يجتمع الذئب والغراب عليهم ينهشان لحومهم ، وللاقى هذا الغازى فرسانا اعتادت خيلهم قطع الموامى واجتياز الصحارى صابرة على الجوع والعطش ، يكفيها ربع الصحراء غذاء وسرابها شرابا ، ولكن عندما غزاهم سيف الدولة لم تنفعهم شجاعتهم هذه ، وما استطاعوا الوقوف فى وجهه للدفاع عن ديارهم ، ولا الذهاب من وجهه هاربين بأبدانهم ، لأنهم إن وقفوا صرعهم ، وإن هربوا أدركهم ، ولم ينفعهم ليل يستترون أو يتربصون فيه ، ولا نهار يديرون فيه قتالا ، ولا خيل تحملهم للحرب أو للفرار ، ولا ركاب عليها يرتحلون ، لأن سيف الدولة رماهم بجيش زاخر يموج بالسلاح وهم فى لجه غارقون .

---

(١) ويجوز أنه يقصد : لشغله ما يلقى من الرعاع دون الحريم عن النظر إلى الشمس .

فسادهم وبعضهم حرير *** وصبحهم وبعضهم تراب

وصاروا في ذل القيد والأسر كالنساء في الانقياد وقلة الحيلة .

واستمد الشاعر شيئا من التاريخ فقال : إن من حاربهم الممدوح أبناء آبائهم الذين أوقع بهم والد سيف الدولة في نجد ، وقد عفا هذا الوالد عن هؤلاء الأبناء فأعتقهم وهم صغار يلبسون السخاب ، ومن العجيب أنهم يتمردون الآن ويشغبون والممدوح يصفح ويحنو عليهم فكلاهما أتى مأتى أبيه . ومثل هذا الفعل من جانب الممدوح هو الذي ينبغي أن يفعل : الجد في طلب العصاة ، وتأديبهم ، وردهم إلى الرشد ، وصيانة الحريم ، ثم العفو عنهم من قدرة .

٢ — وشغب على سيف الدولة حلف من بني عقيل ، وقشير ، والعجلان ، وكعب ، وغيرهم ، فقصدهم سنة ٣٤٤ هـ وأوقع بهم ، وظفر بهم ، وبدد جمعهم ، وعفا عمن عفا منهم ، وذكر ذلك المتنبي في قصيدتين ؛ الأولى رائية ، مطلعها :

طِوالُ قَناً تطاعنها قصارُ *** وقطرُكَ في ندًى ووغًى بحارُ[1]

والأخرى قافية ، ومطلعها :

تذكرتُ ما بين العُذيب وبارقِ *** مَجَرَّ عوالينا ومجرى السوابقِ[2]

وكلتاهما معجبة .

والقصيدة الأولى بدأها بتقرير شجاعة الممدوح وجرأته فالقنا الطوال التي يصوبها إلى عدوه تنالهم ولو صوبت إليه هو لم تنله ؛ لأنه لا يمكنها من نفسه ، والقليل من عمله في الجود وفي الحرب كثير في حقيقته لا يدنى غناءه الأجواد

---

(١) معناه : الرماح الطوال التي نطاعنها الأعداء لنا إذا صوبت إليك لأنها تقصر عن أن تطاولك لأنك لا تمكنها من أن تنالك ، والقليل منك في الندى والوغى كثير حقيقة فالقطرة منك بمنزلة البحر .

(٢) تذكرت نزولنا بين هذين الموضعين : العذيب وبارق ، حيث كنا نجر والطارد الفرسان بالرماح ونجرى الخيل سباقا .

مجتمعين والهاربون متحالفين ، ولأن سيف الدولة أخذ العرب بسياسة لم يمهدوها ولم يعتادوها ، وهي سياسة الطاعة والانقياد ، فأنكروها ونفروا منها كما ينفر الإنس من الوحش ؛ وقد منعت هذه السياسة الأعراب من الغارة والتلصص ، فتواطئوا على عصيان الأمير ، وتشاكوا لما يجدونه من صعوبة الاستخذاء إليه ، وأطمعهم حلمه عنهم ، فتعززوا وتحالفوا ، وأكثروا من الغارات والجايز وفرسانا ، واسترسلوا في غيهم ، فوجب تأديبهم ، والضرب على أيديهم ، وردهم إلى الطاعة ؛ فسار إليهم — حيث كانوا في مروج «سلمية» بين الفرات وحلب — بجيش وخيل :

تُثيرُ على « سَلَمْيَةَ » مُسبطِرًّا ... تَناكَرُ تحتَه لولا الشِّعارُ(١)
عَجَاجًا تَعثُرُ العِقبانُ فيـــه ... كأنَّ الجوَّ وَعْثٌ أو خَبَارُ(٢)
وظلَّ الطعنُ في الخَيلينِ خَلْسًا ... كأنَّ الموتَ بينهما اختصارُ(٣)
فلَزَّهمُ الطِّرادُ إلى قتالٍ ... أحدُّ سلاحِهم فيه الفرارُ(٤)
مَضَوْا مُتسابِقي الأعضاءِ فيه ... لأرؤسِهم بأرجُلِهم عِثارُ(٥)
يَشُلُّهـــمُ بكلِّ أقبَّ نَهْدٍ ... لفارسِه على الخيلِ الخِيارُ(٦)

---

(١) مسبطرا : أي غبارا ممتدا . تناكر : تتناكر مضارع محذوف التاء ، أي لا تتعارف والضمير للخيل والمراد الفرسان .

(٢) عجاجا : غبارا وهو بيان لمسبطرا . العقبان : جمع عقاب ، وهذا الطائر من فصيلة النسر كالحدأة . وعث : الوعث من الأرض — الأرض الرملة التي تغيب فيها القوائم . خبار : (بفتحتين) الخبار من الأرض — الأرض الرخوة .

(٣) خلسا : اختلاسا وهو سرعة اختطاف الشيء خفية .

(٤) لزهم الطراد إلى قتال : ألجأهم إليه وقربهم منه .

(٥) اللام في قوله (لأرؤسهم) للاختصاص أو التعليل ، على ما يأتي في البيان .

(٦) يشلهم : يطردهم . أقب : الأقب من الخيل الضامر البطن . نهد

وكلُّ أصمَّ يَعسِل جانباه　　على الكعبين منه دمٌ ممار(١)

يُغادِر كلَّ مُلتفتٍ إليه　　ولَبّتُهُ لثعلبه وِجار(٢)

إذا صرَفَ النهارُ الضوءَ عنهم　　دَجا ليلان : ليلٌ والغُبار(٣)

وإن جُنْحُ الظلام انجابَ عنهم　　أضاءَ المشرفيّةُ والنّهار(٤)

يُبَكّي خلفَهم دَثْرٌ ، بُكاهُ

رُغاء ، أو ثُؤاجٌ ، أو يُعار(٥)

غَطَا بالعِثيَر البيداءَ حتى　　تحيّرتِ المَتالي والعِشار(٦)

ومرّوا بالجَباة يَضُمُّ فيها　　كِلا الجيشين من نَقْعٍ إزار(٧)

وجاءوا الصَّحْصَحانَ بلا سروج　　وقد سقطَ العِمامةُ والخِمار(٨)

---

(١) أصم : أي رمح أصم وهو الصلب غير الأجوف . يعسل : يضطرب . الكعبان : عقدتان في الرمح يركب في أحدهما السنان وفي الآخر الزج . دم ممار : سال مراق .

(٢) يغادر: يترك . لبته : أعلى صدره والضمير للملتفت . ثعلبه: المراد به ما دخل من الرمح في السنان والضمير للرمح . وجار : الوجار في الأصل بيت الضبع والثعلب ونحوهما شبه به اللبة حين يغيب فيها ثعلب الرمح . وفي التعبير بالثعلب والوجار تورية لطيفة .

(٣) دجا : أظلم .

(٤) جنح الظلام : جانبه . انجاب : انكشف . المشرفية : أي السيوف .

(٥) دثر : مال كثير . رغاء : صوت الإبل . ثؤاج . صوت الغنم . يعار : صوت المعزى ويطلق على صوت الغنم أيضا .

(٦) غطا الشيء (ثلاثي متعد من باب رمى وعدا) مثل غطى مشددا بمعنى ستره وواراه وهو المستعمل هنا ، ويستعمل لازما لعدة معان تجدها في المعجم . العثير : الغبار . المتالي : جمع متلية وهي الناقة يتلوها ولدها . العشار : جمع عشراء وهي التي دنت ولادتها .

(٧) الجباة : اسم ماء . نقع : غبار .

(٨) الصحصحان : هنا اسم صحراء في منطقة القتال .

وأُرهقتِ العذارى مُردَفاتٍ ... وأُوطئتِ الأُصَيْبِيَةُ الصِّغارُ (١)

وقد نُزِحَ الغُوَيْرُ فلا غُوَيْرٌ ... ونِهْيَا والبُيَيْضَةُ والجِفارُ (٢)

وليس بغيرِ تَدْمُرَ مُستغاثٌ ... وتدمرُ — كاسمها — لهمُ دَمارُ

أرادوا أن يُديروا الرأيَ فيها ... فصبَّحهم برأيٍ لا يُدارُ

وجيشٍ كلما حاروا بأرضٍ ... وأَقبَلَ أَقبلَتْ فيه تَحارُ (٣)

يَحُفُّ أغرَّ لا قَوَدٌ عليـــه ... ولا دِيَةٌ تُساقُ ولا اعتذارُ (٤)

تُريقُ سيوفُهُ مُهَجَ الأعادي ... وكلُّ دمٍ أراقتْهُ جُبارُ (٥)

فكانوا الأُسْدَ ليس لها مَصالٌ ... على طيرٍ وليس لها مَطارُ (٦)

إذا فاتوا الرماحَ تناولتهم ... بأرماحٍ من العطشِ القِفارُ

يرون الموتَ قُدّاماً وخَلْفاً ... فيختارون والموتُ اضطرارُ

إذا سَلَكَ السماوةَ غيرُ هادٍ ... فقتلاهم لعينيـــه مَنارُ (٧)

---

(١) أرهقت : كلفت ما فيه مشقة . العذارى : الأبكار جمع عذراء . مردفات : جمع مردفة وهي التي أركبت خلف الراكب . أوطئت : جعلت موطئا للخيل . الأصيبية : تصغير أصبية وهو جمع قلة لصبي .

(٢) الغوير ونهيا والبييضة والجفار : أسماء مياه .

(٣) حاروا : بمعنى تحيروا .

(٤) يحف : يحيط والضمير للجيش : أغر : سيداً شريفا يعني سيف الدولة . القود : القصاص . الدية : ثمن الدم .

(٥) تريق : تسفك . المهج : جمع مهجة وهي الروح ودم القلب . جبار : هدر لا قود فيه ولا دية

(٦) مصال: مصدر ميمي لصال بمعنى صولة وصاولة . مطار : مصدر ميمي لطار . والبيت في صفة الأعادي على ما ترجحه .

(٧) السماوة : من بوادي الشام . منار : علم ينصب في الطريق للهداية .

وَلَو لَم تُبقِ لَم تَعِشِ البَقايا   وَفي الماضي لِمَن بَقِيَ اعتبار

إذا لَم يُرعِ سَيِّدُهُم عليهم   فَمَن يُرعي عليهم أَو يَغار (١)

تُفَرِّقُهُـــم وإيّاهُ السجايا   وَيَجمَعُهُم وإيّاه النِّجار (٢)

وَمالَ بِها على أَرَكٍ وعُرْضٍ   وأَهلُ الرَّقَّتَينِ لَها مَزار (٣)

وأَجفَلَ بالفُراتِ بنو نُمَيرٍ   وزَأْرُهُمُ الذى زأروا خُوار (٤)

فَهُمْ حِزَقٌ على الخابور صرعى   بِهِمْ مِن شُرْبِ غَيرِهِم خُمار (٥)

فَلَمْ يَسْرَحْ لَهُمْ في الصبح مالٌ   ولم تُوقَد لهم بالليل نار (٦)

حِذارَ فَتًى إذا لم يَرْضَ عنهم   فليس بنافعٍ لهمُ الحِذار

تَبيتُ وفودُهم تَسْري إليه   وجَدْواه التى سألوا اغتفار (٧)

فَخَلَّفَهُم بِرَدِّ البيض عنهم   وهامُهُمُ له مَعَهُمْ مُعار (٨)

وهُم مِمَّن أَذَمَّ لَهُم عليـــه   كريمُ العِرقِ والحسبُ النُّضار (٩)

---

(١) يرعى عليهم : يرحمهم ويكف عنهم . وسيدهم : يعنى به سيف الدولة .

(٢) السجايا : الطباع . النجار : الأصل .

(٣) أرك وعرض : بلدان قريبان من تدمر . الرقتين : مثنى الرقة ، كانتا بلدا على الفرات ، وتسمى إحداهما الرقة والأخرى الرافقة .

(٤) أجفل : أسرع وذهب فى الأرض أى هرب . زأرهم : زئيرهم والزئير صوت الأسد . خوار : صوت البقر .

(٥) حزق : جماعات واحدها حزقة . الخابور : من نهيرات الفرات . صرعى : جمع صريع بمعنى مصروع . خمار (بالضم) بقية من السكر .

(٦) المال (هنا) : الأنعام .

(٧) الوفود : جمع وفد ، والوفد الجماعة الوافدون على ذى الشأن لأمر اتفقوا عليه . جدواه : عطيته ومنحته .

(٨) خلفهم : استبقاهم . البيض : السيوف . هامهم : رءوسهم . معار : أى عارية . وله ومعار . خبران لهامهم .

(٩) أذم لهم عليه كريم العرق : أى صيرهم العرق الكريم فى ذمامه أى فى رعايته ، والعرق : الأصل . الحسب : ما يعد من مآثر الآباء والأجداد . النضار : الخالص .

فأصبح بالعواصم مستقراً وليس لبحر نائله قرار(١)

وأضحى ذكره في كل أرضٍ تُدارُ على الغناء به العُقار(٢)

تخِرُّ له القبائلُ ساجداتٍ وتحمَدُه الأسنّةُ والشّفار(٣)

كأنّ شُعاعَ عينِ الشمس فيه ففي أبصارِنا عنه انكسار

فمَن طلَبَ الطعان فذا «علي» وخيلُ الله والأسَلُ الحِرار(٤)

يراه الناسُ حيثُ رأته كعبٌ بأرضٍ ، ما لِنازِلها استتار

يوسِّطه المفاوزَ كلَّ يومٍ طِلابُ الطالبين لا الانتظار(٥)

تَصاهلُ خيلُه متجاوباتٍ وما مِن عادة الخيل السِّرار(٦)

بنو كعب وما أثّرتَ فيهم يدٌ : لم يُدْمِها إلا السِّوار(٧)

بها من قطعِه ألمٌ ونقصٌ وفيها من جلالته افتخار(٨)

---

(١) العواصم : مجموعة من القرى حاضرتها أنطاكية : نائله : عطائه .

(٢) العقار : الخمر .

(٣) الأسنة : جمع سنان حد الرمح والسيف : الشفار : جمع شفرة حد السيف .

(٤) علي : سيف الدولة . الأسل الحرار : الرماح العطاش ، والحرار جمع حران وهو العطشان .

(٥) المفاوز : جمع مفازة وهي الصحراء سميت بها تيمنا بالفوز فيها . وألف « لا » في قوله (لا الانتظار) تقرأ ساقطة ؛ حفاظا على الوزن .

(٦) تصاهل : مضارع حذفت تاؤه . متجاوبات : يجيب بعضها بعضا . السرار : الإسرار أي الكلام سرا .

(٧) يد : أي كيد على التشبيه البليغ ، واليد هي الجارحة . لم يدمها : لم يجعل دمها . السوار : حلية المعصم ...

(٨) بها وفيها : أي باليد . قطعه وجلالته : أي السوار . والجلالة : الفخامة .

لَهُمْ حَقٌّ بِشِرْكِكَ فى نِزارِ
وأَدنَى الشرك فى أصلٍ جوارُ(١)

لعلَّ بنيهمُ لِبنيكَ جُنْدٌ فأوّلُ قُرَّحِ الخيلِ المِهارُ(٢)

وأنتَ أَبَرُّ مَنْ لو عُقَّ أفنَى وأعفَى مَن عُقوبتهُ البَوارُ(٣)

وأقدرُ مَن يُهيِّجُه انتصارٌ وأحلم مَن يُحلِّمُهُ اقتدارُ(٤)

وما فى سَطوةِ الأربابِ عَيبٌ ولا فى ذِلّةِ العُبدانِ عارُ(٥)

فى هذه الأبيات يذكر الشاعر خيل سيف الدولة تثير غباراً كثيفاً ، يجعل فرسانها تتذاكر ولا تتعارف لولا شعار الجيش الذى به يتعارفون ، ويجعل الجو كالأرض اللينة الرخوة حيث تجد العقبان فيه أرضا تظنها للمشى فاذا هى تعثر فيها . وفى هذا المعترك تبادل الفريقان الطعن والضرب اختلاسا حتى كأنهما يختصران الطريق إلى الموت ، وطارد سيف الدولة هؤلاء العصاة حتى ألجأهم إلى قتال ميئوس من انتصارهم فيه ، فما كان لهم إلا أن لجئوا إلى الفرار ، وهو — فى سبيل التمسك بهم — أحد سلاح يتقون به أبدانهم ، فمضوا يجدون فى الهرب

---

(١) الشرك : مصدر شرك — الاشتراك والشركة : نزار : جد العرب . جوار : أى رعاية الحرمة .

(٢) قرح الخيل : كبارها ، والمهار : صغارها . وواحد الأول قارح والثانية مهر ، ولا يسمى الفرس قارحا إلا إذا نبتت أسنانه جميعاً .

(٣) أبر : تفضيل من البر وهو إحسان الصلة . عق : من العقوق وهو العصيان . أعفى : تفضيل من العفو وهو الصفح . البوار : الهلاك .

(٤) أقدر : تفضيل من القدرة وهى القوة وتدبير الأمر وقياس الشىء بالشىء والتمكن منه وكذلك الاقتدار . يهيجه : يثيره ويحركه . أحلم : تفضيل من الحلم (بالكسر) وهو الأناة والعقل . يحلمه : أى يصيره حليما .

(٥) السطوة : القهر بالبطش والصيال . الأرباب : جمع رب ومن معانيه السيد . العبدان : جمع عبد .

ويجفلون ، وكأنما يسابق بعض أعضائهم بعضا فى الهرب والإجفال ، تعثر أرجلهم من أجل إنقاذ رءوسهم(١) ، وسيف الدولة – أو جيشه – يشلهم بكل فرس ضامر نهد ، لفارسه الخيار فى اختيار طريقة الشلل ، ويشلهم بكل رمح صلب يضطرب جانباه الأعلى والأسفل من إعماله ، فيسيل الدم على كعبى سنانه وزجه من كثرة الطعن ، ويترك فى نحر كل مطعون جرحا غائرا كأنه وجار لثعلبه .

وهم فى هذا المعترك يدجو عليهم ليلان : ليل السكون والعجاج الثائر ، ويضىء لهم نهاران : نهار السكون والسيوف البوارق ، وفيه ساقوا أنعامهم تتصايح خلفهم من الإعياء والتعب وكأنها تبكى ، فالإبل تبكى رغاء ، والغنم تبكى ثؤاجا ، والمعز تبكى يعارا ، وقد أثارت بالبيداء غباراً غطاها ، حتى تحيرت مثاليها ومشارها على الرغم من حدة أبصار النعم(٢) ، وأدركهم الجيش عند « الجباة » فاشتملهم جميعا الغبار الثائر فيما يشبه الازار ، وكأنى بهم يتسابقون للوصول إلى هذا الماء ، ومر الشاغبون إلى « الصحصحان » مضطربين ، فجاءوها وقد انحلت سروج خيولهم ، وسقطت عمائم رجالهم ، وسقطت خمر نسائهم ، ولحق عذاراهم الرهق بما كلفن من الإرداف خلف الرجال على الخيول ، وديس صبيانهم الصغار تحت سنابك الخيل ، ووردوا مياه هذه الصحراء ، فوجدوها قد نزحت ، فقصدوا « تدمر » يظنونها حصنهم من الجيش الزاحف ، ومياههم لادارة الرأى ، وخاب ظنهم ، إذ صارت دماراً لهم ، حين صبحهم بها الجيش ، فقلب عليهم خططهم ، وصاروا كلما حاروا بأرض حارت هذه الأرض بالجيش الزاحف(٣) . وهو جيش يحف قائده الأغر سيف الدولة ؛ فاذا أراق دما لم يلزم قودا ، ولا دية ، ولا اعتذاراً ،

---

(١) فاللام فى قوله (لأرؤسهم) للتعليل . وعلى اعتبارها للاختصاص يكون المعنى أن الرءوس تعثر بالأرجل ولم يعهد عثور الرأس ، ولو فرضنا الرأس يتدحرج لمكان العثور للرجل لا له .

(٢) وفى رواية (تحيرت) بالبناء مبنيا للمفعول ، أى حتى أدركها الجيش فتحير منها المثالى والمشار .

(٣) فهم يحارون فى الأرض لسعتها وشدة فزعهم ، والأرض تحار فى الجيش لكثرته ووفرته فهو يزحم منها .

لأنه لا سلطان لأحد عليه ، ولهذا يريق دماء أعاديه ، فتذهب جباراً وهدراً .

هؤلاء العصاة كانت لهم في الماضي صولة وبطش فلما غضب عليهم سيف الدولة ضعفوا . وصور ذلك بأنهم كانوا في مثل جراءة الأسود ، وفي مثل قدرة الطير على الطيران بخيلهم ، فلما غزاهم سيف الدولة لم تعد لهم هذه الصولة والقدرة [1] . فاذا فاتوا رماحه ونجوا منها بالهرب هلكوا في القفار من العطش ، فقام العطش في قتلهم مقام الرماح ، فهم يرون الموت قدامهم وخلفهم ، فيختارون إلى أحين . وليس ذلك اختيارا في الحقيقة لأن الموت يضطر إليه ولا يختاره أحد ، فاذا سلك أحد بادية « السماوة » حيث لقوا حتفهم قامت جثث قتلاهم بها مقام المنار لمن يهتدي من ضلاله ، وهذا يدل على ضراوة المعركة ، وكثرة ما قتل الجيش منهم ، وتفرق أشلائهم . ولولا أن سيف الدولة أبقى على بعضهم ، رحمة منه ومنا ، لم تعش البقايا ، فكان فيمن هلك منهم عبرة لمن بقي ، وكأنما لم يستأصلهم سيف الدولة فأبقى على بقية منهم ؛ إرعاء عليهم ؛ والسيد يرعى على رعيته ، لقرابتهم منه ، وإن اختلفوا وإياه في الطباع والسجايا .

مال سيف الدولة بخيله على بلاد الفرات ، فأجفل منه بنو نمير ، ظنا منهم أنه يطلبهم ، وكانت بهم جراءة كجراءة الأسد ، فآثروا الفرار كما تفر البقر ، فصاروا بددا على نهر « الخابور » سكارى من خوف ما يحل بهم ، وهم لم يذنبوا ، وإنما

---

(١) وذهب بعض الشارحين إلى تشبيه فرسان سيف الدولة بالأسود وتشبيه العصاة بالطير ، وذهب آخرون إلى العكس . والمعنى على رأي الأولين أن فرسان ــ الأسود ــ لا يشينهم عدم إدراكهم العصاة ، لأن هؤلاء أسرعوا في الهرب إسراع الطير في الطيران ، فهذا كالاعتذار من تخلف الفرسان من اللحاق بالعصاة ، لأن الأسد على قوته لا يمكنه صيد الطائر والصولة عليه ، إذ لا يطار الأسد . وعلى رأي الآخرين أن العصاة — الأسود — لم تقدر على مقاومة الفرسان ولا وسعهم الهرب منهم ، لأن هؤلاء الفرسان أسرع جريا منهم — كالطير — يدركونهم أينما ذهبوا ، والأسود على شدة بطشها لا تستطيع السطو على الطير لأنه يفوتها ولا تقدر على الطيران أمامه فتفوته . وما ذهبنا إليه هو ما ذهب إليه ابن جني ...

أذنب غيرهم ، فخافوا أن يصيبهم ما أصاب المذنبين ، ولخوفهم لم تسرح أنعامهم ، ولم توقد نيرانهم ؟

حذار فتى إذا لم يرض عنهم فليس بنافع لهم الحذار

وجاءت وفودهم تسرى إليه يستغفرونه ، فغفر لهم واستبقاهم بأن رد عنهم سيوفه وأعارهم منه رءوسهم ، فهي ملك له تركها معهم على سبيل العارية ، وأذم لهم عليه كرم أصله وخالص حسبه

فأصبح بالعواصم مستقرا وليس لبحر نائله قرار
وأضحى ذكره في كل أرض تدار على الغناء به العقار
تخر له القبائل ساجدات وتحمده الأسنة والشفار
كأن شعاع عين الشمس فيه ففي أبصارنا عنه انكسار

وبعد أن لم يستطع أن يتملأ منه ، إجلالا له وإعظاما ، كما قال الفرزدق : « ويغضي من مهابته » ، عاد إلى الطعان فقال كمن يهدد : هذا علي سيف الدولة ، وهذا طعانه ، وهذه خيله التي نذرها لإقامة حدود الله ورعاية شريعته ، وهذه أسله الحرار ورماحه العطاش إلى دماء العصاة والمارقين ، وهذا هو — حيث رأته كعب المارقة — يقتفي المارقين ، ويتصدى لهم ويجتاز الصحارى يتطلبهم ولا ينتظر أن يأتوه ليقاتلهم ، وليس من شأنه أن يباغت عدوه ويخفي عنه قصده ، وإنما هو لقوته واقتداره يعلن عن أمره ، ويكشف عن خط سيره ، فتتصاهل خيله متجاوبات من غير سرار .

ويعرج الشاعر على صلة ما بين كعب وسيف الدولة من القرابة ، وكيف أنه زين لهم ، وبه يفخرون ، وإن لحقهم منه أذى ، كاليد زينتها سوارها ، وبه تتحلى ، وإن أدماها . ويستعطفه عليهم ؛ باشتراكهم معه في القربى والنسب ، وبحقهم عليه من الجوار ورعاية الحرم ، ويحثه على العفو عنهم بالرجاء في أن

يصلح أبناؤهم جداً لأبنائه ، وإنه لأحق الناس بالبر والصلة عند العقوق ، وبالعفو عند القدرة على العقوبة ، وبالحلم عند الاقتدار على الانتقام ، فاذا كان لا بد من تنظيم العلاقة بين الحاكم والمحكومين فللحاكم الطاعة والسطوة وعلى المحكومين الخضوع والانقياد ، وما فى ذلك عيب وعار ، فهو السيد وهم العبدان .

وما فى سطوة الأرباب عيب ولا فى ذلة العبدان عار

القسم الثالث : وصفه المعارك التى خاضها سيف الدولة مع الروم ، ولم يقدر له أن ينتصر عليهم .

فى سنة ٣٣٩ هـ نهض سيف الدولة للقاء الروم ، وصحبه المتنبى فى غزوته ، وشهده فى « سمندو » يصف الجيش ويعرضه ، فأنشده جيميته التى مطلعها :

لهذا اليوم بعد غد أريج ونار فى العدو لها أجيج(١)

وفيها ثقة من النصر ، ومدح لسيف الدولة بما هو أهل له من الشجاعة ، وتهديد للروم بالحرب والدمار والاستئصال واستهانة بما يلقى المسلمون المحاربون فى سبيل الله ، وتحريض لهم على صدق الحملة .

وسار سيف الدولة ، فعبر نهر « آلس » وهبط على مدينة « صارخة » فأحرق ربضها ، وعلى « خرشنة » فأقام فيها أياما ، ففتحها ، وغزا ما حولها ، ثم عبر « آلس » راجعاً ، فلما أمسى ترك سواد الجيش ، وسرى فى كوكبة حتى جاز خرشنة ، وانتهى فى الظهيرة إلى « بطن لقان » فلقى فيه « الدمستق — قائد الجيش الرومانى » فى ألوف من الخيل ، ونشب القتال بين الفريقين ، فانهزم الدمستق ، ووقع فى الأسر نيف وثمانون من بطارقته ورجاله ، وعاد سيف الدولة

---

(١) أريج : رائحة طيبة . أجيج : اشتعال . ومعنى البيت : أن هذا اليوم له بعد قليل أنباء سارة تسر الأصدقاء ، ونار حرب مشتعلة تلهب الأعداء .

إلى سواد جيشه ، فصادفه العدو على رأس عقبة — تعرف بقاطمة الأثنار — وبعد مناوشات وكبه العدو ، فجرح من فرسانه جماعة ، ونزل سيف الدولة على « نهر بردى » ، فأخذ العدو عليه الطريق ، فعدل عنها متياسراً في طريق جانبية ولحقه العدو من خلفه آخر النهار ، فقاتل من دون الهزيمة إلى العشاء ، وتحاجز الفريقان عندما اشتملهم الظلام ، وانحاز سيف الدولة إلى سند الجبل يطلب سواد الجيش ، ووقع تحت عقبة — قريبة من بحيرة الحدث — فوقف وقد أخذ العدو الجبلين من الجانبين ، وجعل سيف الدولة يستنفر الناس فلم ينفر أحد ، ومن نجا من العقبة نهاراً لم يرجع ، ومن بقى تحتها لم تكن فيه نصرة ، وتخاذل الناس وكانوا قد ملوا وأشفقوا من المصير ، فأمر سيف الدولة بقتل الأسرى ، وانصرف ، واجتاز المتنبي آخر الليل بجماعة من المسلمين بعضهم نيام بين القتلى من الإعياء والتعب أو متقاومون يرغبون عن الحرب ، وبعضهم أثخنته الجراح فما بقى فيه إلا رمق لا يفيده في رحلة الحياة(١) .

هذه الحرب بأحداثها ووقائعها ، وبعواطفها وأهوالها ، سجلها المتنبي قصة في قصيدته هذه :

غيري بأكثر هذا الناس ينخدعُ
إن قاتلوا جَبُنوا أو حدّثوا شَجُعوا(٢)

أهل الحفيظةِ إلا أن تُجرّبَهم
وفي التجارب بَعْدَ الغيّ ما يَزَعُ(٣)

---

(١) انظر شرح البرقوقي : ٣٢٩/٢ — طبعة المكتبة التجارية .

(٢) هذا الناس : الإشارة بالمفرد على اللفظ . ينخدع : يغتر وهو مطاوع خدعه أي أراد به المكر وختله من حيث لا يعلم .

(٣) الحفيظة : الأنفة والحمية : الغي : الغواية والضلال . يزع : يمنع ويكف .

وما الحياةُ ونفسي بعد ما عَلِمتْ
أنّ الحياةَ كما لا تشتهي طَبَعُ[١]

ليس الجمالُ لِوجـــهٍ صحّ مارِنُه
أنفُ العزيزِ بقطعِ العزِّ يُجتَدَعُ[٢]

أأطرحُ المجدَ عن كتفي وأطلبُه
وأتركُ الغيثَ في غِمدي وأنتجعُ[٣]

والمَشرفيةُ — لازالت مُشرّفةً —
دَواءُ كلِّ كريمٍ أو هي الوَجَعُ[٤]

وفارسُ الخيلِ مَن خفّتْ فوقَّرها
في الدَّرْبِ والدمُ في أعطافِها دُفَعُ[٥]

---

(١) ما الحياة ونفسي : استفهام إنكاري على حد (ما أنت وخالد) أي معه . طبع (بالتحريك) : بمعنى دنس وشين .

(٢) مارنه : ما لان من أنفه . يجتدع : يقطع . .

(٣) الغيث : المطر وأراد منه لازمه من الخصب ورغد العيش : أنتجع : في الأصل بمعنى أطلب الكلأ ثم صار في كل طلب .

(٤) المشرفية : السيوف المشرفية نسبة إلى مشارف الشأم . لا زالت مشرفة : جملة دعائية اعتراضية . ومشرفة : تروى بالبناء للمفعول والفاعل فعلى الأول يدعو لها باستمرار التشريف وعلى الثاني يدعو بألا تكون داء ، ومعنى الجملة إذن لا كانت داء بل كانت دواء .

(٥) فارس الخيل : يعني سيف الدولة . خفت : أي أسرعت هاربة . وقرها : أي ثبتها . الدرب : الطريق والمضيق ويقصد الطريق إلى بلاد العدو . أعطافها : جوانبها . دفع : جمع دفعة وكلاهما بالضم .

وأوحدته وما في قلبه قلقٌ   وأغضبته وما في لفظه قذَع (١)

بالجيش تمتنع الســـادات كلهم

والجيش بابن أبي الهيجاء يمتنع (٢)

قاد المقانب أقصى شربهــــا نهلٌ

على الشكيم وأدنى سيرها سرَع (٣)

لا يعتقي بلدًا مسراهُ عن بلدٍ

كالموت ليس له ريٌّ ولا شبع (٤)

حتى أقام على أرباضِ «خرشنةٍ»

تشقى به الرومُ والصلبان والبيع (٥)

للسَّبْيِ ما نكحوا ، والقتلِ ما ولدوا

والنهبِ ما جمعوا ، والنارِ ما زرعوا (٦)

---

(١) أوحدته وأغضبته : أي تركته وحيدا وغضبان والضمير للخيل . القذع : الفحش والخنى ...

(٢) أبو الهيجاء : عبد الله بن حمدان وهو والد سيف الدولة .

(٣) المقانب : جماعات الخيل ، والواحدة مقنب ويطلق على جماعة الخيل زهاء الثلاثة . نهل : النهل الشرب الأول . الشكائم : جمع شكيمة وهي الحديدة المعترضة في فم الفرس من اللجام . سرع (وزان إبل وعنب) : السرعة .

(٤) لا يعتقي بلدا مسراه : لايعوق بلد مسراه . والمسرى والسرى : السير ليلا .

(٥) أرباض خرشنة : ضواحيها . الصلبان : جمع صليب . البيع : جمع بيعة معبد النصارى ...

(٦) ما : مصدرية ، أو موصولة فتكون في الشطر الأول بدلا من (من) .

تُخْلِي له المَرْجَ منصوباً بصارخةٍ   له المنابرُ مشهوداً بها الجُمَع (١)

يُطمِّع الطيرَ فيهم طولُ أكْلِهم   حتى تكاد على أحيائهم تقع

ولو رآه حَوَارِيُّوهُــــمُ لَبَنَوْا

على مَحبَّتِه الشَّرْعَ الذى شَرَعُوا (٢)

ذَمَّ « الدُّمُسْتُقُ » عينيـــه وقد طلعتْ

سُودُ الغمام فظنُّوا أنها قَزَع (٣)

فيها الكُماةُ التى مفطومُها رَجُـــلٌ

على الجيادِ التى حَوْلِيُّها جَذَع (٤)

تذْرِى « اللُّقان » غُبارا فى مناخرها

وفى حناجرها من « آلِسٍ » جُرَع (٥)

---

(١) المرج : مرعى الدواب . وموضع بعينه فى الشام . صارخة : مدينة هناك . الجمع : أى صلوات الجمع . وتخلى ومنصوبا ومشهودا : أحوال الأولان من فاعل أقام والثالث من صارخة ، والمرج والمنابر والجمع : كلها رفع نائب فاعل لاسم المفعول ، ولم يلحق علامة التأنيث بمنصوبا ومشهودا على وجه .

(٢) حواريوهم : يقصد رجال دينهم ، والحواريون : أصحاب السيد المسيح .

(٣) الدمستق : قائد الجيش الرومانى ومعناه : القائد الأعظم لجيش آسيا) أو (الخادم الأعظم لجيش الشرق) . لقب به (قسطنطين ماليينوس السابع) ملك القسطنطينية وهو المعاصر لسيف الدولة ، ولقب به أيضا (نيقفور فوكاس) إمبراطور آسيا الوسطى وأعظم قواد الجيش الرومانى فى حروب سيف الدولة — راجع كتاب (شعر الحرب فى أدب العرب) الدكتور زكى المحاسنى — ص ٢٥٢ — طبعة دار المعارف بمصر — ١٩٦١ م

القزع : المتفرق من السحاب واحدتها قزعه .

(٤) الكماة : جمع كمى وهو الرجل الشجاع فى سلاحه . الجياد : جمع جواد وهو الفرس؛ حوليها : الحولى منها ، والحولى ما أتى عليه الحول أى العام . والجذع : ما أتى عليه حولان اثنان ..

(٥) اللقان : موضع ببلاد الروم . آلس : نهر هناك وتذرى تطاير ذرا وأوبا =

كأنها تتلقاهم لتسلكهم

فالطعن يفتح في الأجواف ما تسع

تهدي نواظرها — والحرب مظلمة —

من الأسنة نار ، والقنا شمع [1]

دون السهام ودون القر طافحة على نفوسهم المقورة المزع [2]

إذا دعا العلج علجا حال بينهما

أظمى تفارق منه أختها الضلع [3]

أجل من ولد الفقاس منكتف

إذ فاتهن وأمضى منه منصرع [4]

= من باب ربا ويأتيان من باب رمى وأكثر ما يستعمل واويا ، تقول ذرت الريح التراب وغيره أي سفته وأطارته وأذهبته .

(١) فاعل تهدي : نار — ومفعوله : نواظرها — وجملة (والحرب مظلمة) : اعتراضية أو حالية — وجملة (والقنا شمع) : حالية .

(٢) السهام (بالفتح) : حر السموم . القر : البرد : طافحة : مسرعة وتقع حالا . المقورة : في موقع المفعول لاسم الفاعل طافحة ، من الاقورار ومعناه الضمر والتغير والتشنج والسمن ، فالخيل ضامرة أو متغيرة أو متشنجة . المزع (محركتين) : جمع مزوع (وزان صبور) وهو المسرع .

ورواية ابن جني (دون السهام ودون الفر) والسهام جمع سهم والفر الفرار . وعلى هذا يصف الخيل بأنها ركبت الهدر بسرعة فكانت أقرب إليهم من السهام ومن أن يفروا . وعلى الأولى تركبهم الخيل مرتين كل عام في الحر وقبل البرد وكان لسيف الدولة فيهم غزوتان في الربيع وفي الخريف .

(٣) العلج : بعض الكفار وأصل إطلاقه على الرجل الغليظ من كفار العجم . أظمى : أي رمح أظمى وهو الأسمر . منه : أي لأجله وبسببه .

(٤) الفقاس : اسم عائلة أرجيد الدمستق ، وهو تحوير لغوي لكلمة (فوكاس — phocas) وشترك في حرب سيف الدولة من هذه العائلة : (نقيفور فوكاس) وهو الدمستق ، وأبوه (بردس فوكاس) وأخوه (ليون فوكاس) وأخوه (قسطنطين فوكاس) =

وما نجا من شِفار البيض منفلتٌ   نجا ومنهن في أحشائه فزَعُ(١)

يُباشِرُ الأمْنَ دهراً وهـو مُختبَلٌ

ويشرب الخمر حولاً وهو ممتقَعُ(٢)

كم من حُشاشةِ بِطريقٍ تضَمَّنَها

للبـاترات أمينٌ ما له ورَعُ(٣)

يُقاتِلُ الخطوَ عنه حين يَطلبُه   ويَطرُدُ النومَ عنه حين يضطجع

تَغدو المنايا فلا تنفـكُّ واقفةً

حتى يقول لها : عودى ، فتندفع(٤)

= (راجع شعر الحرب في أدب العرب — ص٢٠٧ ، ٢٠٨) . منكتف : مشدود الكتفين يعنى أنه أسير . منصرع : مصروع أى مقتول . والضمير الظاهر في قوله : (فإنهن) يعود على النفوس في البيت الأسبق .

(١) ما نجا : من نجا ، واستعمل ما مكان من . شفار : جمع شفرة وهى حد السيف ونحوه . البيض : السيوف . والضمير في (منهن) يعود على شفار البيض أو على البيض .

(٢) مختبل : اسم مفعول من اختبل ، يقال : خبل الحزن ونحوه فلانا وخبله واختبله جننه وأفسد عقله وجعله في ذهول . ممتقع : (اسم مفعول) من امتقع (مبنيا للمفعول) بمعنى تغير لونه من حزن أو فزع .

(٣) الحشاشة : بقية الروح . البطريق : اسم يطلق على القائد — أو الفارس — الرومانى . تضمنها : ضمنها وتكفل بها . الباترات : يعنى السيوف . الورع : التحرج والتكف عما يحرم ، ويقصد بالأمين عديم الورع . القيد الذى يقيد به الأسير فهو أمين في الظاهر على روحه حتى يسلمه إلى السيف وغير ورع في الحقيقة لأنه يفرط في الأمانة ، أو لأنه يكلف الأسير فايد ما أشار إليه في البيت التالى .

(٤) المنايا : جمع منية وهى الموت . وفاعل يقول ضمير يعود إلى سيف الدولة .

قل للدمستق : إن المسلمين لكم

خانوا الأمير ، فجازاهم بما صنعوا(١)

وجدتموهمْ نياماً في دمائكمُ   كأن قتلاكمُ إياهمُ فجعوا(٢)

ضَعْفَى ، تَعِفُّ الأيادي عن مثالهم

من الأعادي ، وإن همّوا بهم نزعوا(٣)

لا تحسبوا مَن أسرتمْ كان ذا رَمَقٍ

فليس يأكلُ إلا الميّتَ الضَّبُعُ(٤)

هلاّ على عَقَبِ الوادي ، وقد صَعِدتْ

أسْدٌ تمرُّ فُرادَى ليس تجتمعُ(٥)

---

(١) المسلمين (بفتح اللام) : هؤلاء الذين تنازلوا في أرض المعركة رغبة عن الحرب لجاء الروم وأجيزوا ... لهم ، فهم تخاذلوا عن سيف الدولة وخانوه . وأسلمهم للدمستق الذي جازاهم بما صنعوا ، وشرح المتنبي أحوالهم في الأبيات الآتية .

(٢) في دمائكم : في دماء قتلاكم .

(٣) ضعفى : جمع ضعيف . نزعوا : أي عنهم (في الكلام حذف — أي انتهوا عنهم وأعرضوا ...

(٤) رمق : بقية حياة . وفي البيت قصر أكل الضبع على الميتة يريد تشبيه فعل الروم بهؤلاء الأسرى لا يقدمون منهم إلا على الموتى والأحياء كفعل الضبع بفرائسه لا يقع إلا على الجثث الميتة ، وقد عيب المتنبي من هذه الناحية لأن الضبع يفترس الأحياء وربما افترس الشاة فلم تعجبه فتركها إلى ثانية وثالثة ... الخ .

(٤) هلا : أداة تحضيض تحتاج إلى فعل يخص مابعده مظهراً أو مضمراً ، وهو هنا مضمر أي هـلا صبرتم — أو وقفتم أو قاتلتم — على عقب الوادي . وعقب الوادي : عقباته . فرادى : منفردين . وجعلهم كذلك لأنهم شجعان أبطال يقاتل الواحد منهم وحده ولا ينتظر أن ينضم إليه غيره .

تَشقُّكم بفتـــاها كلُّ سَلْهبةٍ
والضربُ يأخذُ منكم فوق مايدَعُ(١)

وإنما عرّض اللهُ الجنـــودَ لـكم
لـكي يكونوا بلا فسْلٍ إذا رجعوا(٢)

فـكلُّ غزوٍ إليكم بعد ذا فلَهُ
وكلُّ غازٍ لسيف الدولة التَّبَعُ(٣)

يَمشِي الـكرامُ على آثار غـــيرهم
وأنت تَخلق ما تأتى وتبتدع(٤)

وهل يَشينُـك وقتٌ كنتَ فارسَهُ
وكان غيرَكَ فيه العاجزُ الضَّرَعُ(٥)

مَن كان فوق محلّ الشمس موضعُهُ
فليس يرفعُه شيءٌ ولا يَضَـــعُ(٦)

---

(١) السلهبة : الطويلة من الخيل ، وفتاها : فارسها . يدع : يترك . ويروى (بقناها) والقنا الرماح والمعنى يشقـكم برماحها كل صاحب سلهبة .

(٢) الجنود : هم جنود سيف الدولة الذين تخاذلوا عنه . الفسل (بالفتح) العاجز الدنىء الذى لا مروءة له وجمعه فسل (بالضم) وكلاهما جائز فى البيت . والضمير فى يكونوا ورجعوا للمسلمين أو لجنود المسلمين وهو مفهوم من السياق . والرواية المشهورة فى البيت (وإنما عرض الله الجنود بكم) وليست تصح فى المعنى ، ومن الجائز معها أن يكون عرض مضمناً معنى ابتلى .

(٣) الفاء فى (فله) مزيدة للتقوية تشبيها لها بجملة الجواب . واللام فى قوله (لسيف الدولة) صلة التبع ، أى وكل غاز تبع لسيف الدولة لأنه أميرهم وسيدهم .

(٤) الخطاب لسيف الدولة فى هذا البيت والأبيات التالية .

(٥) يشينك : يعيبك . الضرع (بفتحتين) : الضعيف .

(٦) فى قوله (ولا يضع) إيجاز بالحذف . والتقدير ولا يضعه شىء .

لَم يُسلِمِ الكَرُّ في الأعقـــاب مُهجَتَهُ

إن كان أسلَمَها الأصحاب والشِّيَعُ(١)

ليتَ الملوكَ على الأقدار مُعطِيَةٌ فلم يكن لدنيءٍ عندها طمع(٢)

رضيتَ منهم بأن زُرتَ الوغى فرأوا

وأن قَرَعتَ حَبِيكَ البيضِ فاستمعوا(٣)

قد أباحكَ غِشًّا في مُعاملةٍ من كنتَ منه بغير الصِّدق تنتفع

الدَّهرُ معتذرٌ، والسيفُ منتظرٌ، وأرضهم لكَ مصطافٌ ومُرتَبَعُ(٤)

وما الجبالُ لِنصرانٍ بحاميـــةٍ

ولو تنَصَّرَ فيها الأعصَمُ الصَّدَعُ(٥)

---

(١) لم يسلم الكر مهجته : لم يخذلها ، والكر : الرجوع الى الحرب مرة بعد أخرى، والمهجة : الروح أو دم القلب أو الدم . الأعقاب : جمع عقب وهو مؤخر كل شيء . الشيع : الأتباع . واسم كان ضمير الشأن .

(٢) الدنيء (بالهمز): الخبيث الماجن وبدون الهمز : الضعيف الخسيس الذي لا غناء عنده

(٣) الوغى : الحرب . الحبك : جمع حبيكة – كسفين وسفينة – وهي الطرائق تكون في السماء كما تكون في الرمل وفي الماء الساكن إذا هبت عليهما الريح فيتجعدان ويصيران طرائق . البيض (بالكسر) : السيوف وحبيكها شطبها وهي خطوط تصنع فيها أشبه بالطرائق . والبيض (بالفتح) جمع بيضة وهي الخوذة من الحديد توضع على الرأس وحبيكها العلامات المصنوعة فيها . وقرع الحبيك دقها وضربها وذلك في الحرب . وضمائر الجمع في البيت مقصود بها الشعراء غير المتنبي .

(٤) مصطاف : منزل الصيف . مرتبع : منزل الربيع .

(٥) نصران : نصراني : الأعصم : الوعل في إحدى قوائمه بياض . الصدع (بفتحتين): الشاب القوي .

وما تَجِدتُكَ في هَــولٍ تَثَبّتُ به

حتى بَلَوتُكَ والأبطالُ تَمتَصِعُ(١)

فقد يُظَنُّ شجاعاً مَن به خَرَقٌ وقد يُظَنُّ جباناً من به زَمَعُ(٢)

إن السلاحَ جميعُ الناس تَحمِلُهُ

وليس كلُّ ذواتِ المِخلبِ السَّبُعُ(٣)

(هذه القصيدة تنقسم أربعة أقسام(٤)، وقد رتبت هذه الأقسام فيما بينها أحسن ترتيب وأدقه كأن القصيدة رسالة ذات أربعة فصول، ولكنها قصة تبدأ من آخرها، ثم تستأنف من أولها.

في الفصل الأول يصور المتنبي نفسه بعد أن عاد المسلمون إلى حلب محزونا كئيبا كاسف البال، يائسا من الناس، ساخطا على الحياة، لكنه لا يريد أن يستسلم لهذا اليأس وهذا السخط؛ لأنه يجد في نفسه بقية خفية من أمل، محوره أن يعود المسلمون إلى الثأر، وغسل العار عنهم.

والفصل الثاني في حقيقة الأمر نتيجة طبيعية منطقية للفصل الأول؛ ذلك أنه كان يريد من المسلمين أن يغسلوا العار عنهم، فأي حافز لهم أبرع من هذا الوصف الذي صور به انتصارهم في أول الحرب، واستعلاءهم على الروم، واستحواذهم على الأرض حتى أرباض «خرشنة». وهو في أثناء ذلك يصطنع أروع ألفاظ

(١) بلونك: اختبرتك. تمتصع: تتقاتل وتتجالد وتتضارب بالسيوف ونحوها.

(٢) خرق: طيش وخفة. زمع: دهش، وشبه الرعدة تأخذ الانسان إذا هم بأمر من خوف أو نشاط.

(٣) المخلب: ظفر كل سبع من الماشي والطائر، وقيل: المخلب لما يصيد من الطير والظفر لما لا يصيد. واسم ليس ضمير الشأن وبعدها جملة اسمية تقع خبرا لها.

(٤) هذا التقسيم وتفصيله للدكتور طه حسين في كتابه (مع المتنبي) ص ٢٢٩ وما بعدها.

الحرب، وأقدر صورها على إثارة الحفيظة، وإشعار النفس العربية بالبأس والقوة، وبالكرامة والعزة، وبالشمم والإباء.

وفى الفصل الثالث صور الهزيمة دون أن يفت فى أعضاد المسلمين ويشمت بهم ؛ اعترف بالهزيمة فى شىء من الإجمال والغموض، ثم تحول إلى المنتصرين من الروم، فجعل يتهددهم ويتوعدهم. ويذكرهم بما أصابهم من الهزائم، ويتنبأ لهم بما يصيبهم منها فى المستقبل. وهو لا يرى هزيمة المسلمين إلا امتحانا وتمحيصا لهم، وتنقية لصفوفهم من الضعفاء والجبناء.

وفى الفصل الرابع هون الأمر على الأمير، ورفع عنه اللوم، ونزهه عن العار، وجعل المجد كل المجد لهذا الأمير الوحيد الذى انهزم عنه جيشه فثبت للعدو ولم يحم منه نفسه وحدها، وإنما حمى منه الجيش المنهزم أيضا. والأيام دول، والزمان يخطىء ويصيب، وقد أخطأ فى ذات الأمير هذه المرة، وهو مصلح خطأه من قابل. وهل أرض الروم إلا مصطاف الأمير ومرتبعه، فالسيف معتذر إليه، والدهر منتظر أمره، وويل للروم بعد ذلك!).

بدأ الشاعر قصيدته يقول: لا أنخدع بأكثر الناس ولا أغتر بظاهر ما يقولون، وأنا أراهم يجبنون عند القتال ويشجعون عند الحديث، يخيل إليك أنهم أهل الحفيظة والحمية والجلد والإقدام ما لم تجربهم، فإذا جربتهم تكشفت حقيقتهم، وبان عجزهم وغيهم وضلالهم واغترارهم بأنفسهم وهؤلاء هم صحاب - يف الدولة — وفى تجربتهم بعد ما ظهر لك من زيفهم ما يزعك ويمنعك من مخالطتهم والاعتماد عليهم. ما لنفسى إذن والحياة؟ إنى لا أريدها ولا أشتهيها إذا كانت كذلك طبعا ودنسا وشينا وخسة.

وما للمرء خير فى حيـــاة　　إذا ما عد من سقط المتاع[1]

ومالى أركن إلى عز أجدع مقطوع، فإن العزيز متى قطع عزه ذل وصار

---

(١) البيت لقطرى بن الفجاءة، وقد نظره المتنبى.

ىق مهانة من أمره ، كن جدع أنفه ، مع أنه عند التحقيق ليس الجمال فى الوجه الذى لم يجدع مارنه، بل الجمال أن تشهد صاحب الوجه غير ذليل . وإذن لا يجوز لى أن أحاول المجد بالطلب والسؤال وأتنكب حيازته بالسيف والقتال ، فأكون كمن طرح عن كتفه ما يطلبه وترك فى غمده ما ينتجعه ، وقد علمت أن السيوف ما زالت دواء كل كريم على نفسه أو داءه ، فإن أدرك بها بغيته كانت شفاء نفسه، وإن اخترم دون بغيته كان مقتله بهذه السيوف فهى داؤه إلا أنه يكون قدم بين يدى أمره عذره .

وتقل الشاعر الحديث إلى سيف الدولة (فارس الخيل) . فارتفع بوقفته فى المعترك حيث رآها وقفة بطولية ، لا يقفها إلا من كان مثله أفرس الفرسان وأشجع الشجعان ، حين رأى الخيل تخف إلى الهزيمة مفزعة مما تشهد — ويشهد فرسانها — من الدم المصبوب على جوانبها دفعة بعد دفعة ، فوقرها وثبتها فى الدرب (المضيق) إلى بلاد العدو ، وتركته الخيل — وفرسانها — وحيدا — فلم يجزع ولم يقلق ، وإنما وقف وحده رابط الجأش ، وأغضبته الخيل — وفرسانها — بالانخذال عنه ، فلم يفحش القول فيها — وفيهم — وإنما ارتد إلى حلمه ولم يخرجه الغضب عن طوره وإنه إذا كانت السادات والاشراف والسلاطين تمتنع وتقوى بجيوشها ، فإن ابن أبى الهيجاء — سيف الدولة — يمتنع به جيشه ويقوى ؛ ألم تر أنه قاد المقانب — جماعات الخيل [1] — مسرعا بها كعادته فى السير بها ، حتى لكأن أقصى شربها [فى اليوم] مرة واحدة ، تشرب وهى مشكومة ، لأن داعى السرعة لا يسمح برفع الشكائم ، وإن ابن أبى الهيجاء يغزو فيمضى فى غزوه قاتحا لا يعوقه عنه عائق ولا يستوقفه بلد عن السير الى بلد آخر حتى يحقق غرضه من خروجه ، كالموت لا يشبع ولا يروى من كثرة ما يفنى ، فالإفناء مهنة الموت والغزو والفتح مهنة سيف الدولة . ويقول الشاعر : أسرع سيف الدولة بجيشه حتى أقام على ضواحى « خرشنة » فشقى به الروم مقتلين

---

(١) ويقصد السير بالجيش كله إسراعا إلى لقاء العدو وتوجيه الضربة الأولى له .

وشقيت به صلبانهم محطمة وبيعهم خربة مهدمة ،ونـكل بهم وبأهلهم ، وفجعهم في أموالهم وديارهم ، فما نكحوا الا ليسبى نساءهم وأطفالهم ، وما ولدوا الا ليصرع شبابهم القاتلين ، وما جمعوا الأموال والنشب الا لينزعها من أيديهم نهبا ، وما زرعوا وثمروا إلا ليحرق عليهم زروعهم وثمارهم - حتى أخلوا له « المرج » و « سارخة » فنصب منابر الخطابة ، وأقام صلوات الجمع ، وأعلى راية الإسلام . وقد كثر قتلاهم ، حتى وجدت الطير فيهم مطعمها لوقت طويل ، وأغريت بلحومهم وبلحوم من بقى على قيد الحياة ممن نجا من القتل .

واستطرد الشاعر إلى الـكلام عن عدل الأمير وإنصافه وكرمه ، فقال : إنه لو رآه الحواريون — ويقصد رجال الدين المسيحى عموما — لأوجبوا محبته وطاعته فيما يشرعون لأتباعهم من شرع المسيح ، وفيما يحدثونهم به من أمور هذا الدين .

وعاد الشاعر إلى مسيرة الجيش الفاتح ، فقال : إن « الدمستق » طلعت عليه فرق هذا الجيش وكتائبه — واستعار لها سود النعام — فتحير هو ومن معه مما يرون منها وأنـكروا أعينهم — وهم يظنونها طلائع الجيش — واستعار لها القزع — وكأنى بهم خافوا أن يكون وراءها ما هو أكثف منها وأعظم قدراً ، فى هذه الـكتائب والفرق — أو الطلائع إن أردت — الـكماة الشجعان المتسلحون وإن بدوا شبانا ، فما فطموا إلا عن رجولية ، وفيها الجياد القوية الفتية الجذعة وإن بدت صغيرة السن ، إلا أنها — كفرسانها — فصلت عن غذاء وقوة ، فصبيهم عند الوغى رجل ، وحولى خيلهم فيها جذع ، وكلاهما يخب فيها ويضع ، وله فيها شأن أى شأن . وهذه الخيل قد أسرعت الى لقاء العدو أشد الإسراع ؛ ودلل على ذلك بأنها شربت من « نهر آلس » ثم يجف ماؤه فى حلوقها وهى تركض فى « القان » وتجد ترابه فى مناخرها ، وبين « آلس » و « القان » مسافة بعيدة(١) ، وكأن الخيل كانت تسرع لتتلقى الأعداء فتدخل فيهم وتتخذ من

---

(١) وهذه الصورة من مبالغات المتنبى . وقال ابن جنى : الخيل شربت قليلا لعلمها بما يطلب فى الركض ، وهكذا تفعل كرام الخيل .

أجسادهم طرقا، ويفتح طعن الفوارس في أجوافهم من الجراحات ما تسع الخيل[١]، وهذه الخيل تهتدى نواظرها عند مثار النقع بالأسنة في رءوس القنا ، فهذه الأسنة لنواظرها كمنار الشمع تضيء لها الطريق ، أو كما قال البحترى واحتذاه المتنبي :

مد ليلا من العجاج فما يـ . . . شون الا بضوء السيوف

وقبل أن تصل اليهم سهام الرماة ، وقبل أن يفروا ـ تهجم عليهم هذه الخيل الثائرة الضامرة ، المزع السريعة . ومما روى عن المتنبي نفسه أنه قال في هذا البيت : لقد طفحت عليهم ـ عدت عليهم مسرعة ـ هذه الخيل وقد صارت أقرب إلى نفوسهم من السهام ومن أن يفروا[٢] . فإذا دعا العلج علجا واستعان به على أمر القتال واستنقاذ نفسه حل بينهما وفرق كليهما من الآخر رمح أظمى أسمر يصوبه رماة الجيش الحذاق ، وانه ـ لمهارة الرماة ـ يفرق بين الضلعين ، فمن باب أولى يفرق بين أمثال هذين العلجين . وقد لقى سادة الروم من الجيش الحذاق رهقا ، ويعترف الشاعر بأنهم ثبتوا ودافعوا دفاعا مجهدا ، ولكن لم يغدهم هذا شيئا ، فوقع في الأسر مستكينا من هو أجل من ولد الدمستق شأنا وأعظم قدراه ووقع صريعا مجندلا من هو أمضى من ولد الدمستق وأشجع ، ومن نجا من البيض وشفارها نجا وفي أحشائه منها نزع كثير ؛ لأنه شهد مضاءها ونفاذها وسفكها الدماء ؛ فهو ـ أى من نجا ـ يعيش بعد نجاته حينا من الدهر وهو مختبل ذاهل مضطرب ؛ لشدة ما لحقه من الفزع ؛ ويظل حولا يشرب الخمر وهو ممتقع متغير اللون ؛ لعله ينسى ، أو يستعيد حيويته التي بددها ذهوله واضطراب أمره . وقد

---

(١) وهذه مبالغة أخرى .

(٢) وهذا على رواية (السهام) جمع سهم و (الفر) بالفاء . وأما على رواية (السهام) بالفتح وهو حر السموم و (القر) بالقاف وهو البرد ـ فيكون المعنى أن سيف الدولة يرسل عليهم خيله قبل الصيف الحار وقبل البرد القارس أى في الربيع وفي الخريف . والرواية التى آثرناها متمشية مع سياق الوصف .

وقع فى الأسر كثير من بطارقة الروم وفرسانهم وقادتهم (١) ، وقيدوا بالقيود ، فكل قيد منها أمين على حشاشة صاحبه ، ضامن للسيوف الهازات أن يسلمها اليه اذا دعت الحاجة الى ازهاقها ، فهو أمين إلا أنه غير ورع ؛ لأنه يفرط فيما اؤتمن عليه . ولأنه يضيق على صاحبه ؛ فإن أراد الخطو منعه من الخطو ولم يمنحه حرية الحركة ، فكأنه يقاتله ، وان أراد النوم حرمه النوم ولم يمكنه من الرقاد فكأنه يطارده عنه .

وبعد هذا يقرر الشاعر أن المنايا جند سيف الدولة لحصاد العدو ، فهى تأتمر بأمره ، فما تزال واقفة مستعدة لحصادهم تنتظر اشارته ، فإن قال لها : عودى الى العدو اندفعت نحوهم ، تؤدى مهمتها فيهم .

وانتقل الشاعر إلى حديث عن أسرى المسلمين ، فزعم — لغرض فى نفسه — أن هؤلاء إنما كانوا من ذوى النفوس الخسيسة ، فاتخذلوا جبنا عن سيف الدولة ، وخانوه ، فأسلمهم سيف الدولة إلى الروم ، مجازاة لهم بما صنعوا من الخيانة ؛ إذ تخاذلوا قتل الروم ، وألقوا أنفسهم بينهم ، فتناوموا تشبهاً بهم ، وكأنهم صرعى من سيوف هؤلاء القتلى ، وهم ليسوا كذلك ، فهم ضعاف خساس ، لو يكون مثلهم فى صفوف الأعادى يصف مقاتلهم عن قتالهم ، ويرفع يده عنهم ؛ لهوانهم ، وإن يهم بهم مقاتلهم يتزع عنهم ويعرض ؛ لما يجد من ضعفهم وخستهم ، فلا تحسبوا — أيها الرومان — من أسرتم كان ذا رمق وبقية من حياة ، وإنما هم أموات — أى كالأموات — من الجبن والعجز ، وأنتم وهم كفاء فى الخسة والدناءة والجبن والعجز ، فوجدتموهم فرائس سهلة ، إذ ما تقدرون إلا على أمثالهم من الموتى ، كما أن الضبع لا تفترس إلا الجثث الميتة (٢) .

---

(١) قيل : إنهم نيف وخمسون .

(٢) راجع الهامش الرابع ص (١٢٨) فقد عيب المتنبى فى إوقوع الضبع على الموتى .

ومن هذه الصورة المخزية انطلق الشاعر يوبخ الروم ويقول : هلا وقفتم على عقب الوادى تقاتلون من صمدوا فيها من فرسان سيف الدولة الأسود فرادى ؟ لا ينتظرون أن يتجمعوا لتلقيهم بأنفسهم ، ولتلقيهم من النصر والغلب ، فهم يندفعون إليكم ، وتشق صفوفكم كل فرس سابحة طويلة[1] بقناها — فارسها[2] — فالضرب يأخذ منكم فوق ما يدع ، لأنه ضرب الأبطال المغاوير القادرين .

وإنما عرض الله الجنود لكم لكى يكونوا بلا فضل إذا رجعوا[3]

فكل غزو يغزوكم سيف الدولة بعد اليوم فهو له مقتصرا ، لأنه كفى الضعاف الفسل العاجزين ، وبقى معه من على شاكلته من الأبطال الصناديد المتمرسين بالغزو ، فهو بطل الأبطال ، وهم له تبع ، ومن تخرم أن يكونوا له تبعا .

بعد هذا جنح الشاعر بالحديث نحو الاعتذار عن سيف الدولة ، ليستل من نفسه مرارة الهزيمة ، ويرفع عنه وزر الملامة ؛ فالشاعر — لهذا — يجلو بعض مآثر الأمير ، ويكشف عن معدن بطولته ، ويقول مخاطبا إياه : إن سواك من الحكام يحذون حذو غيرهم فيما يأتون من مآثر ، أما أنت فتأتى كل مأثرة منشئا لها ومبتدعا ، فلست تقتفى فيها آثار الآخرين . ولقد كنت — أيها الأمير — فارس المعركة ، وبطلها الأوحد ، فلم تك عاجزاً ضرعاً ، إذ كان غيرك هو العاجز الضرع ؛ فلا يشينك ما انتهت إليه المعركة من الانكسار والهزيمة والخذلان ، فإنه :

من كان فوق محل الشمس موضعه فليس يرفعه شىء ولا يضع[4]

---

(١) والفرس الذكر والأنثى ، وقيل الأنثى فرسة .

(٢) وعلى رواية (بقناها) يكون المعنى : يشقكم كل صاحب سابحة بالرماح ، فى العبارة إيجاز ومجاز . والمتنبى معجب بشق الصفوف ، قال فى جوشن (أى درع) :

به وبمثله شق الصفوف وزلت عن مباشره الحتوف

(٣) معناه : عرض الله لكم هؤلاء الجنود الجبناء الأخساء الفسل الذين تخاذلوا عن سيف الدولة ، لئن يرجع المسلمون — إذا رجعوا — إليكم بدونهم .

(٤) والبيت من حكم المتنبى . ومعناه العام : من بلغ الغاية فى الرفعة — وكنى عنه =

وأنت لم تخذل نفسك ، ولم تسلم مهجتك ، بل كررت فى الأعقاب ، وعدت إلى الحرب مرة بعد مرة ، فقاتلت قتالا مجيداً ، فكنت فى منعة من شجاعتك الذاتية ، تدافع نفسك عن نفسك ، بينما أخذل الأصحاب والشيع ، وأسلموا — جبناً — مهجتك لعدوك وعدوهم .

واستطرد المتنبي — كعادته أحيانا — إلى إقحام نفسه فى سياق الكلام ، بالحديث عن صلته والشعراء الآخرين بسيف الدولة(١) ، فقال — يعرض بأنه يسوى فى العطاء بينه وبينهم على الرغم من أنهم لم يبلغوا مبلغه فى الفن الشعرى — أيها الأمير ، ليت الملوك معطية الشعراء عطاياهم على أقدارهم ، ولكنك سويت بين من مدحك ووصف شجاعتك سماعا دون أن يراك فى الوغى ، ودون أن يشهد بطولتك وجرأتك وأنت تقرع جبيك البيض ، وتصول وتجول ، وبين من كان — مثلى — يراك ويشهدك ويباشر معك القتال ، فشعرهم كاذب فيه غش ودخل لأنهم أعدوه للقربى وابتزاز المال ، أما شعرى فصادق ، لأن فيه صورة من الواقع الذى لمسته ، والبطولة التى شهدتها ، والشجاعة التى رأيتها معك رأى العين(٢) .

= بالعلو فوق محل الشمس — لم يكن بحاجة إلى رفعة أكثر ولم يتضع بوضاعة غيره . وفى دلالتنا هذه يقصد الشاعر أن أميره بلغ الغاية فى الجهاد والبطولة ، فليس بحاجة إلى نصرة غيره ولا يتضع بانخذاله عنه . وهذا البيت أبلغ وأقوى فى المبالغة من قول زهير بن أبى سلمى :

لو كان يقعد فوق الشمس من كرم   قوم بأولهم أو مجدهم قعدوا

(١) ومثله قوله فى قصيدة أخرى ، وأحسن فيها التخلص ومدح نفسه :

خليلى إنى لا أرى غير شاعر   فلم منهم الدعوى ومنى القصائد

فلا تعجبا ؛ إن السيوف كثيرة   ولكن سيف الدولة اليوم واحد

ومثله أيضا :

أجزنى إذا أنشدت شعرا ، فإنما   بشعرى أتاك المادحون مرددا

ودع كل صوت غير صوتى ، فإننى   أنا الطائر المحكى والآخر الصدى

(٢) وفى البيت :

لقد أباحك غشا فى معاملة   من كنت منه بغير الصدق تنتفع

قوم آخر ، وذلك بتوجيهه إلى الذين تقاعسوا عن سيف الدولة وانخذلوا منه عند القتال . =

وعاد من استطراده إلى سيف الدولة وحديث الاعتذار عنه ، فجعل الدهر معتذراً إليه مما فعل(١) ، والسيف منتظراً أن يكر على الأعداء ، فأرضهم له مصطاف ومرتبع ، يتنزلها متى شاء ، وما تعصمهم منه جبالها ولا تحميهم من أن يقتحمها عليهم ، وخلص إلى هذا من تصور أن هذه الجبال لا تقدر على حماية الوعول الشوارد من سيف الدولة ، مع أنها مباءتها الطبيعية ، وفيها من المسالك والمدارج والمخابئ ما يمكنها من المراوغة والاعتصام ، وتلاحظ أن تصوره لتنصر القوم تصور لأمر واقع ، أما تنصر الوعول فمن باب التخييل والمشاكلة ، وأراد به تخذيل الروم والفت في أعضادهم ، والتهوين من انتصارهم

وقال للأمير : إنني لم أحمد شجاعتك ولم أمدح بطولتك إلا بعد أن بلوتك واختبرتك في الحرب لدى قتال الأبطال ومجالدتهم بالسيوف ، ولقد يخطئ الظن ، فالأخرق الطائش قد يظن شجاعا ، والمدهوش الذي تأخذه رعدة قد يظن جبانا ، وإنما يتحقق الأمر عند التجربة ، فليس كل من يحمل السلاح بطلا ، كما أنه ليس كل ذي مخلب سبعا مفترسا .

ولهذا ختم القصيدة بهذا البيت الحكيم :

إن السلاح جميع الناس تحمله وليس كل ذوات المخلب السبع

القسم الرابع : وصف المعارك التي خاضها سيف الدولة مع الروم ، والتصر فيها عليهم .

= فإنهم ادعوا أنهم أظهروا من شجاعة كذوبا وجرأة مزيفة ، وعند الامتحان انقلع منهم بالجبن والانخذال .

ويجوز أن المتنبي قصد التعريض بالمتخلفين فقال : من غشك بتخلفه عنك فقد أباحك أن تجازيه بالغش عندما تعامله — وجعل عمل سيف الدولة غشا لأنه جزاء الغش من باب المشاكلة — فأنت إذا نفعت منهم بغير صدق اللقاء فلك أن تنالهم بغير المودة الصادقة .

(١) وانظر في هذا إلى قول أبي تمام . « جاءت إليه صروف الدهر تعتذر » .

وقد صحب المتنبي سيف الدولة فى حروبه مع الروم ، منذ الغزاة التى دارت دائرتها على سيف الدولة . وأنشد فيها المتنبي عينيته التى تركناها الآن . وفى(١) سنة أربعين وثلثمائة نهض سيف الدولة للثأر من الروم ، يغسل عنه وعن المسلمين وضر الهزيمة التى أصابتهم فى العام الماضى ، ونمى إلى المقاتلين مع سيف الدولة أن العدو كثير ، فهابوه ، وتقدم الأمير إلى شاعره ، من أجل أن يثبت قلوبهم ، ويحرضهم على القتال ، فأنشده وأنشدهم نونيته التى مطلعها :

تزور ديارا ما نحب لها مغنى   ونسأل فيها غير سكانها الإذنا

ثم اندفع بهم سيف الدولة كأنه السيل ، فا كتسح العدو ، وأمعن فى الغزو يريد « خرشنة » ، ولكن الشتاء أقبل وسقط الثلج فعاق التقدم ؛ وا كتفى الأمير بما أحرزه من النصر ، فـآب ظافراً ، وأنشده المتنبي داليته :

عواذل ذات الخال فى حواسد   وإن ضجيع الخود منى لماجد

وفى أوائل سنة إحدى وأربعين وثلثمائة زحف سيف الدولة على « مرعش » فأزال الروم عنها ، ومدحه المتنبي بقصيدته :

فديناك من ربع وإن زدتنا كربا   فإنك كنت الشرق للشمس والغربا

وفى سنة اثنتين وأربعين وثلثمائة عبر سيف الدولة الفرات ، وأمعن فى بلاد الروم حتى أغار على «ملطية» ، ولما قفل غانماً وانتهى إلى « آمد » بلغه أن الروم أغاروا على « أنطاكية » فخف إليهم ، وأغذ فى السير ، حتى لحقهم قافلين عند « مرعش » فأوقع بهم ، وأسر بعض قوادهم ، وغنم منهم ، وأنشده المتنبي فى هذه الوقعة لاميته :

ليالى بعد الظاعنين شكول   طوال وليل العاشقين طويل

---

(١) راجع شروح الديوان ، وكتاب طه حسين : مع المتنبي — ص ٢٢٤ ومابعدها .

ولما جاء عيد الأضحى فى هذه السنة أنشده المتنبي وهما على فرسيهما بميدان حلب داليته التى مطلعها :

لكل امرئ من دهره ما تعودا
وعادات سيف الدولة الطعن فى العدا

وفيها حديث من الوقعة السابقة ، وفرار الدمستق ، وأسر ابنه :

لذلك سمى ابن الدمستق يومه مماتا ، وسماه الدمستق مولدا

وفى سنة ثلاث وأربعين وثلثمائة نهض سيف الدولة بعد فراغه من ثورة الكلابيين إلى ثغر « الحدث » عازما على استرداده من أيدى الروم وإعادة بنائه. وعلم الروم بمسيره ، فأسرعوا فى جيش ضخم ، جلبوه من أعماء دولتهم ، والتقى الجيشان ، واحتربا ، ودارت الدائرة على الروم ، وأقام سيف الدولة فى الثغر دهراً ، واحتفل بانتصاره ، وأنشده المتنبي من أجل ذلك ميميته .

على قدر أهل العزم تأتى العزائم وتأتى على قدر الكرام المكارم

وفى سنة خمس وأربعين وثلثمائة هم الروم بالغارة على « آمد » فنهض إليهم سيف الدولة ، فلما علموا بمقدمه عادوا أدراجهم ، ولكن سيف الدولة تبعهم حتى لقيهم على « تل البطاريق » ، وهزمهم ، ثم وجد نفسه وجيشه محوطين فى الدروب ، فقاتل قتالا عظيما حتى انتصر ، وترك الروم آلافا من القتلى والأسرى ، وأنشده المتنبي فى هذا نونيته :

الرأى قبل شجاعة الشجعان هو أول وهى المحل الثانى

وآخر ما أنشده المتنبي بحلب قصيدته الميمية :

عقبى اليمين على عقبى الوغى ندم ماذا يزيدك فى إقدامك القسم

وقصتها أن البطريق أقسم أن يبارز سيف الدولة فى الدرب ، واتخذ لذلك عدته ، ثم خاب ظنه ، وانهزم أمام إصرار المسلمين على الانتصار .

ونكتفي بعرض قصيدته الميمية (على قدر أهل العزم تأتي العزائم) والنونية (الرأي قبل شجاعة الشجعان) فهما تمثلان ما استقر عليه فن المتنبي في وصف المعارك الحربية التي انتصر فيها سيف الدولة على الروم(١) .

١ – القصيدة الأولى : في مناسبة انتصار سيف الدولة في موقعة « الأحيدب » ، وبنائه ثغر « الحدث » سنة ٣٤٣ هـ .

وكان سيف الدولة سار إلى ثغر « الحدث » لاسترداده من « الدمستق » قائد جيش الروم ، الذي استولى على الثغر دون حرب ، وأوقع فيه الفتنة ، وأراد أن يفتن أهله عن دينهم ، وقامت بين الروم والمسلمين وقعة عظيمة ، اشتد فيها الخطب ، وساءت ظنون المسلمين ، لولا شجاعة سيف الدولة التي مكنته من الحملة على صفوف الروم حملة مباغتة ، فقتل منهم خلقاً كثيراً ، ودفع « الدمستق » إلى الهرب ، وأسر سيف الدولة صهر « الدمستق » وابن بنته . ثم أقام سيف الدولة زمناً ، يشرف على بناء « الحدث » ، وعند اكتمال البناء نصب حفلا لذلك ، أنشده فيه الشعراء مدائحهم ، وفي هذا اليوم أنشد المتنبي قصيدته ، يسجل فيها أحداث المعركة ، ويعلي – كعادته – من شأن ممدوحه ، وما أبداه من ضروب البسالة والنضال المقدس(٢) .

قال المتنبي :

على قَدْرِ أهلِ العزمِ تأتي العزائمُ
وتأتي على قدرِ الكرامِ المكارمُ(٣)

---

(١) ولا تقل عنهما روعة قصيدته .

ليالي بعد الظاعنين شكول　　طوال ، وليل العاشقين طويل

وقد أوفاها الدكتور طه حسين حقها من التحليل – انظر (مع المتنبي) ص ٢٣٥ وما بعدها

(٢) انظر يتيمة الدهر للثعالبي بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ١/٢٨ وما بعدها ط . محمود توفيق ١٣٦٦ هـ – ١٩٤٧ م .

(٣) العزم : الجد في الأمر . والعزائم : جمع عزمة وهي العزم . والكرام : جمع =

وتَعْظُمُ في عَيْنِ الصغيرِ صِغارُها ... وتصغُرُ في عينِ العظيمِ العظائمُ (١)

يُكَلِّفُ سيفُ الدولةِ الجيشَ هَمَّه ... وقد عجزتْ عنه الجيوشُ الخضارمُ (٢)

ويَطلبُ عند الناسِ ما عندَ نفسِه ... وذلك ما لا تدّعيه الضراغمُ (٣)

يُفَدّى أتمُّ الطيرِ عمراً سلاحَه ... نسورُ الملا أحداثُها والقشاعمُ (٤)

وما ضَرَّها خلقٌ بغيرِ مخالبٍ ... وقد خُلِقَتْ أسيافُه والقوائمُ (٥)

كريم وكريمة . والمكارم . جمع مكرم ومكرمة (بضم رائهما) وهو فعل المكرم . والمكرم يقتضي النزاهة والعزازة وكل ما هو ضد اللؤم .

(١) صغارها : الضمير يعود على العزائم والمكارم . « وأل » في العظائم بديل من هذا الضمير .

(٢) يكلف : من التكليف ، وهو الأمر بما يشق . همه : هنا بمعنى همته . ويطلق الهم أيضا على الحزن وعلى ما اهتم به الرجل في نفسه . الخضارم (بفتح الخاء وتخفيف الضاد) : جمع خضرم (بكسر فسكون فكسر) وهو في الأصل : الكثير العظيم من كل شيء .

(٣) الضراغم : جمع ضرغم (مثال جعفر) وضرغام وضرغامة (بكسر أولها) وهو الأسد ، ويطلق أيضا على الشجاع .

(٤) يفدى — من التفدية — يقال : فداه تفدية أي قال له : جعلت فداك . وأتم الطير عمراً : أي أطولها عمرا وهو النسر ، وأتم من التم والتمام (مثلثين) . الملا (وزان العصا) : الصحراء . وقد يكون جمع ملاة ، والملاة هي الفلاة القفر الحارة . الأحداث : جمع حدث (وزان بطل) الصغير السن . القشاعم : جمع قشعم (وزان جعفر) المسن من النسور وهو المراد هنا ، ويسمى المسن من الرجال قشعما . ويقال للحرب والمنية والداهية : (أم قشعم) لطول عمرها .

(٥) ما ضرها : ما — نافية أو استفهامية للنفي . خلق : الخلق في الأصل مصدر خلق وهو بمعنى قدر أو صنع أو أبدع . مخالب : جمع مخلب كمنبر وزنا ومعنى ، ويطلق على ظفر السباع والطير الجارح . القوائم : جمع قائمة وهي هنا مقبض السيف ، ويسمى أيضا القائم .

هل « الحَدَثُ » الحمراء تعرفُ لونها
وتعلم أيّ الساقِيَيْن الغمائمُ (١)

سَقَتْها الغمامُ الغُرُّ قبل نُزُولِه   فلما دنا منها سقتها الجماجم (٢)

بناها فأعلى ، والقنا تقرعُ القنا ،   وموجُ المنايا حولها متلاطم (٣)

وكان بها مثل الجنون فأصبحتْ   ومن جُثَثِ القتلَى عليها تمائم (٤)

طريدة دهرٍ ساقها فَرَدَدْتَها
على الدِّين بالخَطِّيِّ والدهرُ راغم (٥)

تُفِيتُ الليالي كلَّ شيء أخذتَه   وهُنّ لما يأخُذن منك غوارم (٦)

---

(١) الحدث : الثغر الذي اقتتل عليه سيف الدولة والروم . الغمائم جمع غمامة مثال سحابة وزنا ومعنى . أو الغمامة هي السحابة البيضاء .

(٢) الغر (بالضم) : جمع قياسي لأغر وغراء ، وتوصف بها الغمام إذا كانت شديدة المطر أو بيضاء ، وبياضها من البرق الصادر عنها . الجماجم : جمع جمجمة (بضم الأول والثالث) وهي العظم فيه الدماغ .

(٣) القنا : جمع قناة وهي الرمح . المنايا جمع منية — فعيلة من المنى بوزن العصا — كلاهما بمعنى الموت . متلاطم : من المجاز أن تقول : تلاطمت الأمواج والتطمت إذا ضرب بعضها بعضا ، وأصل المادة (اللطم) ، وهو الضرب على الوجه أو الخد بالكف مبسوطة ، وهو يقتضي الاضطراب ....

(٤) تمائم : جمع تميمة ، ويطلقها العرب على العوذة يتوقون بها مس الجن ، وكانوا يصنعونها من خرزة رقطاء (سوداء بيضاء) ينظمونها في سلك يعقد في العنق .

(٥) طريدة : فعيلة بمعنى مفعولة : ما طردته من صيد أو غيره ، وتقول : طردته أي نفيته عني . الخطي : الخط مرفأ السفن في (البحرين) ، وكان سوقا مشهورة لبيع الرماح فنسبت إليها . راغم : من الرغم وهو الكره والقسر والقلة والتراب ، ويقال في المجاز : رغم أنفه ، وأنفه راغم ، إذا ذل ، كأنه ألصق بالرغم أو الرغام أي التراب .

(٦) تفيت : مضارع أفات ، وهو متعد لمفعولين ، يقال : فاته الأمر أي ذهب عنه ، وأفاته إياه غيره أي أذهبه عنه ، والمفعولان في البيت هما الليالي وكل شيء . غوارم : جمع قياسي لغارمة — فاعلة من الغرم والغرامة : ما يلزم أداؤه ، وغالبا ما يستعمل في أداء الديون ، ويقال : فلان مغرم أي مثقل بالدين وعليه غرم ومغرم .

إذا كان ما تنويه « فعلا مضارعا »
« مضى » قبل أن تُلقَى عليه « الجوازم »

وكيف يرجّى الرومُ والروسُ هَدمَها
وذا الطّعنُ آساسٌ لها ودعائمُ (١)

وقد حاكموها والمنـــايا حواكمٌ
فما مات مظلومٌ ولا عاش ظالمُ (٢)

أتوك يجُرّون الحديدَ كأنهـم سَرَوا بجيادٍ مالَهُنّ قوائمُ (٣)

إذا بَرَقُوا لم تُعرَفِ البيضُ منهُم
ثيابُهمُ مِنْ مِثلها والعمائمُ (٤)

---

(١) آساس : وزان أفعال جمع أس (مثلثة) وأسس (مثال بطل) وأساس ، وهو أصل البناء وأصل كل شيء . دعائم : جمع دعامة ودعام (بكسر الدال) وهو في الأصل السناد الذي يستمسك به البيت كي لا يميل . ومن المجاز : هو دعامة قومه ، لسيدهم وسندهم ، وهذا من دعائم الأمور أي مما تماسك به ، وفلان ذو دعم أي ذو قوة .

(٢) حاكموها . يقال : حاكمت فلانا إلى الحاكم دعوته إليه وخاصمته ، وحاكمته إلى الله أو إلى القرآن دعوته إلى حكمه ، ومثل هذا : حاكمته إلى القانون ، والمنايا حواكم : جمع حاكمة ؛ اسم الفاعلة من حكم ، والحكم القضاء ، والحاكم القاضي ومنفذ الحكم .

(٣) سروا : من السرى وهو سير الليل ، ويقال في فعله : سرى وأسرى واستري. جياد : جمع جواد وهو الفرس ، وأصله وصف له فسمي به لأنه يطلب جيدا رائعا في شكله وعدوه . قوائم : قوائم الدابة أرجلها ، والواحدة قائمة .

(٤) برقوا : برقت السماء (من باب قعد) بروقا وبرقانا أي لمعت ، ومنه البرق ، وبرق الشيء برقا وبريقا وبرقانا أي لمع ، وبرق النجم أي طلع ، ومن المجاز : برقت المرأة وأبرقت تحسنت وازينت . (ومن باب فهم وفرح) : عمي تحير حتى لا يطرف أو دهش فلم يبصر . البيض : هنا جمع أبيض وهو السيف وأصله وصف له . العمائم : جمع عمامة وهي ما يلف على الرأس والمغفر والبيضة (أي الخوذة ـ وهي من الحديد) .

خميسٌ بشرق الأرض والغرب زَحْفُهُ
وفي أُذُن الجـــوزاء مِنهُ زمازمُ (١)

تجمّعَ فيـــه كلُّ لِسْنٍ وأمّةٍ
فما تُفهِمُ الحُدّاثَ إلاّ التراجمُ (٢)

فلله وقتٌ ذَوَّبَ الغشَّ نارُه
فلم يبقَ إلا صارمٌ أو ضُبارِمُ (٣)

تقطّعَ مالا يَقطَعُ الدرعَ والقنـــا
وفرَّ مِن الأبطال مَن لا يُصادمُ (٤)

---

(١) خميس : الخميس الجيش ، وسمي خميسا لأنه خمس فرق : المقدمة والقلب والميمنة والميسرة والساقة . زحفه : مشيه ، والزحف المشي فيه ثقل وبطء . الجوزاء : أحد أبراج السماء ، وهي تتوسط السماء وتقع فيها الشمس في أواخر الربيع . زمازم : أصوات مبهمة لا تفهم .

(٢) لسن : (بكسر فسكون) واللسن اللغة والكلام واللسان . أمة : الأمة (بالضم) من معانيها : الجنس ، والجيل من كل حي (كالأم) والإمام ، والرجل الجامع للخير ، وقوم الرجل . الحداث : جمع قياسي لحادث بمعنى متحدث . التراجم : جمع ترجمان (بضم التاء والجيم أو فتحهما أو فتح وضم وهذه أجوده) وهو المفسر للكلام واللغة . وقد اتفق اللغويون على أصالة الميم في (ترجم) واختلفوا في أصالة التاء أو زيادتها .

(٣) ذوب : يقال : ذوبه وأذابه جعله يذوب أي يسيل . الغش (بالكسر) في الأصل الغل والحقد والاسم من غش بمعنى أظهر له خلاف ما يضمر أو لم يمحضه النصح ، وبالضم : الرجل الخائن . صارم : سيف قاطع ، ويطلق على الماضي الشجاع ، والجمع صوارم (وستأتي) ضبارم (بضم ففتح) : الرجل الجريء على الأعداء ، والأسد .

() روى (تقطع) ففاعله « ما » وروى (تقطع) ففاعله ضمير الوقت : الدرع : من الحديد (مؤنثا ومذكرا) : القميص من الحديد ينسج حلقاً حلقاً ويلبسه المحارب . يصادم : يدافع . وثلاثيه (صدم) من باب ضرب .

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ
كأنك في جفن الرّدى وهو نائمُ[1]

تمرُّ بك الأبطالُ كَلْمَى هزيمةً
ووجهُك وضّــاحٌ وثغرُك باسمُ[2]

تجاوزتَ مقدارَ الشجاعةِ والنُّهى
إلى قول قومٍ : (أنت بالغيب عالم)[3]

ضممتَ جناحيهم على القلبِ ضمةً تموتُ الخوافي تحتها والقوادم[4]

بضربٍ أتى الهامات والنصرُ غائبٌ
وصار إلى اللّبّات والنصرُ قادم[5]

---

(١) الردى (مفردا) : الهلاك — وهو المقصود هنا ، وجمعا : مفرده الرداة وهي الصخرة ...

(٢) كلمى : جمع قياسي لكليم مثل جرحى وجريح معنى وقياسا . هزيمة فعيلة بمعنى مفعولة ، وحق التاء الإسقاط ، والهزيمة الاسم من هزم الجيش العدو فهو هازم أي كسرهم. وضاح : مبالغة من الوضوح ، والوضاح الأبيض اللون والنهار والرجل الحسن الهسام ومن المجاز : له الحسب الوضاح . ثغرك : يطلق الثغر على الفم أو الأسنان أو مقدمها وهو المراد هنا ، كما يطلق على موضع المخافة من مداخل البلاد وعلى ما يلي دار الحرب . باسم : فاعل من بسم ، والبسم أقل الضحك وأحسنه كالابتسام والتبسم ، ويسمى الثغر مبسما .

(٣) تجاوزت : تجاوز المكان وجازه وجاوزه وأجازه بمعنى قطعه ، وتجاوز الشيء وجاوزه تعداه. النهى (مفردا) : العقل ، ويكون أيضا جمعا لنهية (بالضم) وهي العقل . الغيب : في الأصل كل ما غاب عنك .

(٤) الجناحان : ميمنة الجيش وميسرته ، والقلب : فرقته المتوسطة . الخوافي : ريشات تخفى إذا ضم الطائر جناحيه وواحدتها خافية . القوادم : الريشات الظاهرة في مقدم الجناح وواحدتها قادمة .

(٥) الهامات (وكذلك الهام) : جمع هامة وهي في الأصل الرأس ورأس كل شيء ورئيس القوم ، ومن معانيها : الطائر المسمى « الصدى » وهو من طير الليل . اللبات : جمع لبة وهي المنحر وموضع القلادة من الصدر .

حقَرْتَ الرُّدَيْنِيَّاتِ حتى طَرَحْتَهَا
وحتى كأنَّ السيفَ للرُّمحِ شاتمُ (١)

ومَنْ طَلَبَ الفتحَ الجليلَ فإنما
مفاتيحُه البيضُ الخِفافُ الصوارمُ (٢)

نَثَرْتَهُمُ فوقَ « الأُحَيْدِبِ » نَثْرَةً
كما نُثِرَتْ فوقَ العروسِ الدراهمُ (٣)

تَدُوسُ بكَ الخيلُ الوُكُورَ على الذُّرا
وقد كَثُرَتْ حولَ الوُكُورِ المطاعمُ (٤)

تظنُّ فراخُ الفُتْخِ أنَّكَ زُرْتَهَا   بأُمَّاتِها وهي العِتاقُ الصَّلادِمُ (٥)

---

(١) الردينيات : الرماح الردينيات منسوبة إلى امرأة تسمى (ردينة) كانت تصنعها هي وزوجها . طرحتها : رميتها وأبعدتها .

(٢) الجليل : العظيم والكبير ، ويسمى المسن جليلا . الخفاف : نعت البيض وهي السيوف وهي جمع خفيف ، والسيف خفيف في يد السياف .

(٣) نثرتهم : نثر الشيء (من بابي كتاب وضرب) نثرا ونثارا رماه متفرقا ، ومن باب جلس بمعنى عطس ، ويكون للدواب خاصة .

(٤) تدوس : داس فلان الأرض دوسا إذا شدد وطأه عليها بقدمه . الخيل : جماعة الأفراس ويسمى الفرس خائلا ؛ لأنه يختال وحينئذ يجمع على أخيال وخيول . الوكور : جمع وكر وهو عش الطائر وإن لم يكن فيه . الذرا : جمع ذروة (بالضم أو بالكسر)، وذروة كل شيء أعلاه . المطاعم : جمع مطعم اسم مكان أو مصدر طعمه (وزان سمعه) طعما وطعاما أي أكله .

(٥) فراخ : جمع فرخ ، وهو ولد الطائر ، ويطلق على كل صغير من الحيوان أو النبات ، كما يطلق على الرجل الذليل المطرود لضعفه وعجزه ، وعلى الزرع المتهيئ للتفتح ، وعلى مقدم الدماغ . الفتخ : جمع فتخاء ، وهي العقاب اللينة الجناح . أماتها : أمهاتها . يقال الأم : الأمة والأمه والجمع أمات وأمهات . وقد قيل : إن أمهات هي الأصل ، ومن رأى « ابن =

إذا زَلِقَتْ مَشْيَتُها بِطونُها كما تَتَمَشَّى في الصَّعيدِ الأراقمُ (١)

أفي كل يوم ذا « الدُّمَشْقِيُّ » مُقْدِمٌ
قَنَاةً على الإقدام للوجـــهِ لائمُ (٢)

أيمسكِ ريحَ الليث حتى يذوقـــه
وقد عرفتْ ريحَ الليوثِ البهائمُ (٣)

وقد فجعته بابنـــهِ وابنِ صهرِه
وبالصِّهرِ حَمْلاتُ الأميرِ الغواشمُ (٤)

= جني » أن الهاء زائدة والأصل عنده أمات . العتاق : من الخيل النجائب ومن الطير الجوارح وواحدها عتيق ، الصلادم : جمع صلدم (بكسر فسكون فكسر) وهو الصلب والقديد الحافر ...

(١) زلقت : يقال زلقت القـــدم (من باب تعب) لم تثبت حتى سقطت . مشيتها : يقال مشى يمشي مشيا ومشى تمشية وتمشى تمشيا بمعنى مر . الصعيد : وجه الأرض ترابا كان أو غيره ، ويطلق على التراب وعلى القبر . الأراقم : جمع أرقم وهو أخبث الحيات وأطلبها للناس أو ما فيه سواد وبياض منها أو هو ذكر الحيات (وتسمى الأنثى رقشاء) .

(٢) مقدم : اسم الفاعل من أقدم ، تقول : أقدم على الأمر وأقدم في الحرب شجع ، لائم : اسم الفاعل من لام لوما وملاما وملامة ، واللوم العذل .

(٣) ريح (هنا) . بمعنى الرائحة ، ومن معاني الريح الهواء بين السماء والأرض ، والغلبة والرحمة ، ومن المجاز : ذهبت ريحهم أي دولتهم ، والريح مؤنثة والياء قلب عن الواو بدليل تصغيرها على (رويحة) ، وقد تذكر على معنى الهواء ، وقال ابن الأنبارى : الريح مؤنثة وكذلك سائر أسمائها ما عدا الإعصار فإنه مذكر . الليث : الأسد وجمعه ليوث ، يذوقه : يختبر طعمه . البهائم : جمع بهيمة وهي كل ذات أربع قوائم على الأرض أو في الماء ، أو كل حي لا يميز ...

(٤) فجعته : أوجعته ، أو الفجع أن يوجع الإنسان بما يعز عليه أو يرزأ فيه . الصهر (بالكسر) : القرابة ، ويسمى صهراً زوج بنت الرجل وزوج أخته وكل الأختان . حملات =

مضى يَشْكُرُ الأصحابَ في فَوْتِهِ الظُّبا

بِمَا شَغَلَتْهَا هامُهُمْ والمَعاصِم(١)

ويفهم صوتَ المشرفيةِ فيهم

على أن أصوات السيوفِ أعاجم(٢)

يُسَرُّ بما أعطاكَ لا عَنْ جَهالةٍ

ولكنَّ مغنوماً نَجَا منكَ غانم(٣)

ولستَ مليكاً هازماً لِنظيرِه

ولكنَّك التوحيدُ لِلشِّرْكِ هازم(٤)

= جمع حلة وهي الكرة في الحرب ، وأسكن من الجمع لإقامة الوزن . القواشم : جمع قياسي لقاشمة ، والقاشمة الحرب كالمشوم من باب المجاز ، وأصل غشم بمعنى ظلم .

(١) فوته : مصدرفات : يقال : فاته الأمر فوتا وفواتا ذهب عنه ، وفاته سبقه ، وفاته بكذا سبقه به وهو فوت رمحه وفوت يده أي بحيث يراه ولا يصل إليه . الظبا (واوى) : جمع ظبة (مثال ثبة) وهي حد السيف أو السنان ونحوه . المعاصم : جمع معصم وهو اليد وموضع السوار .

(٢) المشرفية : صفة السيوف . وفي القاموس المحيط مشارف الشام قرى من أرض العرب تدنو من الريف ومنها السيوف المشرفية بفتح الراء ، وفي غيره أن السيوف المشرفية نسبة إلى موضع في اليمن . وقد رأينا أن صاحب القاموس المحيط لم يخطىء ، فقد أقام في اليمن نحوا من عشرين عاما . أعاجم . جمع أعجم وهو عند العرب غيرهم ، ومن لا يفصح كالأعجمي والأخرس ...

(٣) يسر : مضارع مبني للمفعول من السرور وهو الفرح . جهالة : الجهالة والجهل ضد العلم ، وفعله من بابه سمع . مغنوم وغانم : مفعول وفاعل من غنمه : أصابه غنيمة وفاز به بلا مشقة . نجا : خلص .

(٤) نظيره : مثيله وشبيهه ، التوحيد : يقصد به (الإسلام) ، الشرك : يقصد به (الكفر) ...

تَشَرَّفُ « عدنانٌ » به لا « ربيعة »
وتفتخرُ الدنيـــا به لا « العواصم »[1]

لكَ الحمدُ في الدُّرِّ الذي لِيَ لفظُهُ
فإنّكَ مُعطيـــهِ وإنّيَ ناظم[2]

وإنّي لتعدُو بي عطاياكَ في الوغَى
فلا أنا مذمومٌ ولا أنتَ نادم[3]

علَى كلِّ طيارٍ إليهـا برِجْلِه
إذا وقعتْ في مسمعيه الغماغم[4]

(١) تشرف : مضارع أصله تتشرف ، حذفت تاؤه من تشرف بالشيء بمعنى شرف به أي عز به وفضل . عدنان : أبو معد الجد الأعلى لقريش . ربيعة : هو ابن نزار بن معد ابن عدنان ، وإلى ربيعة ينتسب سيف الدولة . تفتخر : من الافتخار وهو التمدح بالخصال كالفخر . الدنيا : فعلى من دنا وهي نقيض الآخرة ، وإذا نكرت جاز صرفها . العواصم (هنا) : قلاع وحصون من أعمال حلب حيث إمارة سيف الدولة .

(٢) الحمد : الشكر والثناء والرضا والجزاء وقضاء الحق . وقد يقال : إن الحمد غير الشكر ، فالحمد يقتضي تعظيم الممدوح وخضوع المادح ويكون في مقابلة الإحسان ، والشكر لا يكون إلا في مقابلة الصنيع . الدر : جمع درة وهي اللؤلؤة العظيمة ، ويشبه بها الشعر .

(٣) تعدو : أي تسرع . عطاياك : العطايا جمع عطية وهي ما تعطيه فعيلة من العطا والعطاء وهو النوال السمح . الوغى (وزان الفتى) : الجلبة والأصوات ، ومنه وغى الحرب وقال ابن جني : الوعى (بالمهملة) الصوت والجلبة ، و (بالمعجمة) الحرب نفسها . نادم : اسم الفاعل من ندم بمعنى أسف وحزن أو فعل شيئاً ثم كرهه فهو نادم وندمان .

(٤) طيار : مبالغة في الطائر ، ويقصد به الفرس السريع الجري ، ويقال : فرس طيار : ماض حديد الفؤاد . مسمعيه : أي أذنيه . الغماغم : جمع غمغمة وهي أصوات الأبطال عند القتال ، وأصوات الثورة عند الذعر ، والكلام الذي لا يبين .

ألاَ أيها السيفُ الذى لستَ مُغْمَداً
ولا فيكَ مرتابٌ ولا منكَ عاصم[1]

هنيئاً لِضربِ الهامِ والمجدِ والعُلا
وراجيكَ والإسلامِ أنَّكَ سالمُ[2]

ولِمْ لا يَقِى الرحمنُ حَدَّيْكَ ما وَقَى
وتَفْلِيقُهُ هامَ العِدَا بِكَ دائمُ[3]

بدأ[4] الشاعر قصيدته بمقدمة عن أقدار الناس، وما يكافئها من عزائم ومكارم، فذوو الهمم العوالى والعزائم المواضى — أمثال سيف الدولة — تصغر فى أعينهم كبار الأمور وعظائمها، لأن طموحهم متسع الآفاق، بعيد الآماد، يهون معه كل صعب، وتذل كل مخاطرة، وذوو الصغار ضعاف الهمم، ولذا تكبر فى أعينهم توافه الأمور وصغارها، لأن آمالهم لا تمتد بهم إلى أكثر من مكانهم.

---

(١) لست مغمدا : يقصد أنه مستعد للحرب دائما والغمد (بالكسر) جفن السيف، وسيف مغمد ومغمود موضوع فى غمده أو مجعول له غمد. مرتاب : اسم فاعل من ارتاب بمعنى شك، وارتاب به اتهمه، والاسم الريبة. عاصم : اسم فاعل من عصم بمعنى منع ووقى

(٢) هنيئا : أصل الهنء ما أتاك يسيرا بلا مشقة ولا عناء، وطعام هنىء : سائغ ولذيذ. المجد : العز والشرف. العلا (بالضم) جمع عليا مثل كبرى و كبر، والعليا فى الأصل خلاف السفلى، والعلاء (كسماء) الرفعة. راجيك : الذى يرجوك اسم الفاعل من الرجاء وهو التأميل والإرادة وضد اليأس. سالم : اسم فاعل من السلامة وهى فى الأصل البراءة من العيوب.

(٣) لم : استفهام، والميم ساكنة للوزن. يقى : يحفظ ويصون. تفليقه : من الفلق وهو الاضطراب والانزعاج. العدا (كإلى) : المتباعدون والغرباء كالأعداء، والواحد (عدو)، ويستعمل العدو للواحد والجمع والذكر والأنثى، وقيل يثنى ويجمع ويؤنث. دائم : اسم فاعل من الدوام بمعنى الثبات، وهو يطلب الاستمرار والبقاء وعدم الانقطاع.

(٤) راجع للمؤلف كتاب (نصوص مختارة من العصر العباسى الثانى) ص ٥ وما بعدها — مطبعة الرسالة — ١٣٨٨ هـ/١٩٦٨ م.

وهذا سيف الدولة — بطل الأمة المغوار — يكلف جيشه العظيم ما تعجز عنه الجيوش الكثر ؛ يكلفه أن يثير ، ويغزو ، ويفتح البلاد ، ليحقق ما تطمح إليه همته ، وليحافظ على مجد الدولة الإسلامية ، ويصون أطرافها ، ويحمي حدودها ، وهو — لما ركب في طبعه من إيثار — يطلب أن يكون الناس نظائره في الإقدام والبأس ، وذلك أمر يندر أن يخطر في بال الشجعان الصناديد ، ولقد بلغ سيف الدولة وجيشه من الشجاعة والبسالة حدا يجعل أحداث النسور وقشاعمها تفدي سلاحه ؛ لأنه يكفيها المؤنة ، فما يضرها أن تخلق — أو لو خلقت — بغير مخالب ، فقد ضمن الجيش رزقها رغدا ، حيثما حل .

ثم تحدث عن « الحدث » التي حاصرها سيف الدولة في أوان المطر ، وكانت السحائب البيض ذوات البرق قد أمطرتها ، قبل نزول سيف الدولة ، فلما دهمها أعمل جيشه في الروم قتلا وسفكا وذبحا ، فسالت دماؤهم في ربوعها ، فما تدري لاضطرابها بأي الأوبين سقيت . وشمر سيف الدولة في الحال عن ساعد العمل ، فأخذ يبنيها ، والقتال قائم ، وموج المنايا حول « الحدث » متلاطم ، وكان الروم قد أشعلوا فيها نار الفتنة ، وأرادوا أن يصرفوا أهلها عن دينهم ، وأشاعوا فيها الخراب والهدم ، قبل مقدم سيف الدولة ، فلما أسال جيشه دماءهم ، ونشر في أنحائها جثث قتلاهم ؛ سكنت « الحدث » وكانت هذه الجثث بمثابة التمائم التي أسهمت في سكون الفتنة ، وساعدت في عودتها إلى حظيرة الإسلام ، بقوة السلاح ، على الرغم من الدهر .

وبعد هذا حيا الشاعر سيف الدولة ، يذكر مقدرته على عصى الأمس أمام الليالي ، فسيف الدولة أقدر عليها ، فهو يسلبها ، وهي لا تستطيع أن تسلبه وهو يبدد كل شيء يأخذه منها ، وهي دائما تدين لقدرته وفضله ، فتغرم ما يدينها به . وقد بلغ من مقدرة سيف الدولة أنه إذا نوى شيئا أنفذه وأنجزه وعجل به ، قبل أن تحول القيود دون إنفاذه ، أو تعترض سبيل إنجازه .

وجاءت هذه التحية أشبه بالجملة الاعتراضية ، وسط الحديث عن « الحدث » . وعاد إلى « الحدث » يتحكر على الروم — ومن إليهم من أجناس الدولة الرومانية الشرقية (البيزنطية) كالروس والألمان والصقالبة . وغيرهم — أن يؤملوا هدمها ، بينما غارة سيف الدولة ، وما أعمله فيهم من ضرب وطعان ، دعامات تردها إلى الإسلام ، بعد أن كادت تعصف بها نقماتهم ، وكان قد بلغ من أحوال الروم ومن إليهم أنهم أرادوا تخريب « الحدث » ؛ ليقطعوا على المسلمين أمل العودة إليها ، فكأنما كانت خصما بعثا كونه إلى المنايا ، فقضت الحدث المظلومة بأن تعيش ، وعلى هؤلاء الظلمة أن يلقوا جزاء ظلمهم : المصير الذي أرادوه للحدث ولأهلها .

وقد كان جيش الروم ، ذو الفرق الخمس ، كثيفا ، ذا عتاد ضخم ، وعدد كثير ، من كل جنس .

ويقول المتنبي : إن المعركة كانت مناط الاختبار ، فأفنت السلاح والفاس ، ولم يثبت ولم يبق إلا كل صارم بتار ، يقطع الدروع والرماح ، وكل رجل شجاع ضبارم ، بينما يقف سيف الدولة في حلبة الوغى محاربا باسلا ، وقفة لا يهاب فيها الردى ، ولا يبالي ، يشهد في سرور هزيمة أعدائه ، وهم يلعقون جراحهم ، وفي هذا يتخيله واقفا في جفن الردى والردى نائم بل إنه ليجاوز هذه الجرأة وهذا الثبات إلى ما قيل : إنه — أي سيف الدولة — مطلع على الغيب ، عالم بنتيجة المعركة التي يخوضها .

ولقد كان من بطولة الممدوح أن ضم جناحي جيش عدوه على قلبه في سرعة خاطفة ، وعدته في ذلك السيوف الحذف الصوارم ؛ عدة من يطلب الفتح الجليل ، فأطاح برءوسهم ، وفرق أشلاءهم ، فوق جبل « الأحيدب » قريبا من « الحدث » ، طعاما للطير الجائع ، وساق خيله فوق الجبل كل مساق .

ومع ذلك كانت فراخ العقبان — فيما صوره الشاعر — فرحة بزيارة

الخيل بحصانها أمهاتها . وفي هذه الصورة من ناحية أخرى دليل على أن الخيل مدربة على سرعة الحركة .

وينحو الشاعر على « الدمستق » قائد جيش الروم ، ويذكر النحس الذي يلازمه في معاركه أمام سيف الدولة ، ويتهكم به ، ويسخر منه ، وقد ذاق مرارة الهزيمة ، وفجع في ابنه وصهره ، إذ يجعله شاكراً ما أنعم به أصحابه عليه ، حين داسوا دونه ، وشغلوا جيش سيف الدولة عنه ، وقدموا رءوسهم وأياديهم وغيرها غنائم لجيش المسلمين ، وغنم « الدمستق » بنجاته بهدنه . والشاعر يتخيله فاراً يلوم قفاه وجهه على إقدامه السالف غير معتبر بما لقيه هو وأهله من هزائم وبما لمس من بطولة سيف الدولة وبأسه . وكأن الدمستق يذكر ريح هذه البطولة وما إليها حتى يذوقها . فإذا ذاقها شغل بالهرب تاركاً أصحابه يلقون مصيرهم وينالون شكره على نجاته .

وفي النهاية يقـــدم الشاعر لسيف الدولة التهنئة بانتصاره لدين الإسلام ، وهزمه للـكفر ، وانتصاره انتصاراً يشرف العرب كلهم ، وتفتخر به الدنيا كلها ، والحديث عن فضله على الشاعر بمـا يأتي من عظائم الأمور ، تـكون مدداً لمعاني شعره ، وبما يمنح من العطايا والهبات ، التي لا يفتأ يمنحها حتى في ساعات الشدة التي تدمي الـكريم كرمه . ثم تهنئة لسيف الدولة المسلول الماضي اليقظ بسلامته ، وتهنئة للنصر والمجد والعلا والإسلام ومن يرجوه بهذه السلامة . والدعاء والابتهال إلى الله أن يقي سيف الدولة ويصونه دائماً ، بقدار ما ينتصر للاسلام ويقلق أعداءه .

وأنت تلحظ خلو القصـيدة من المطلع الغزلي ؛ لأن سيف الدولة الممدوح مستعد لتقبل مديحـه ، ومهيأ بتأثير ما يقيه من حفلات انتصاره على عدوه ، لسماع ما ينشده فيه الشعراء مديحاً وتهنئة . وليس سيف الدولة بحاجة إذن إلى

من يرقق إحساسه ، ويشوقه ، وخاصــة إذا كان المتنبي منشــده . كذلك كان سيف الدولة « الشاعر » لديه استجابة طبيعية لــكل شعر جيـــد . وهو سمح بطبعه قد أغرق شعراءه بهباته وعطاياه ، وعلى رأسهم المتنبي .

وهذه القصيدة من قصـائد المتنبي التي تحتفظ بمستواها من القوة اللفظيـة من البداية إلى النهاية .

وإذا كان المتنبي له من ثقافته اللغوية ما يسمح له باستخدام مفرداته ، التي احتلفنا في القصيدة على كثير منها ، فإننا نرى أن هذه المفردات كانت يسيرة على قائلها ، ولا تحوج سامعيها إلى التوقف ، في سبيل التماس النظائر من المعاني ، أو الشروح ، وبخاصة إذا كان هؤلاء السامعون من أمثال سيف الدولة أمير حلب ، العربي الصميم ، وحاشيته وهذا يدل أوضح دلالة على أن اللغة تحيا بالاستعمال وتندثر بالإهمال .

ومن الناحية الفكرية تأتي القصيدة صادقة في التعبير عن فكرة الشاعر ، والتي أوحى بها هذا الجو الحربي ، الذي انخرط فيه الشاعر : كرفيق لولي نعمته سيف الدولة وكحربي يعتز بمروءته ، ويحس بغضه للأعاجم ، ويرى في حروب سيف الدولة رفعة لدولة الإسلام ، وخفضا لدولة الشرك ، وكشيعي يخلع على سيف الدولة صفة العلم بالنيب ، وكفارس يتعطش إلى الضرب ، ويتلذذ برؤية الدماء ، وأشلاء الأعداء .

فهذا ولي نعمتـه — على طول القصيدة — بطل مغوار ، ولا كالأبطال ، ولــكن المتنبي لا ينسى عطاياه ، وهي عطايا لا يقطعها عنه الممدوح ، حتى في الموقف الذي ينسى ذكرها .

وها هو ذا المتنبي — كعربي — يهزأ بالدمستق ، وينــكر عليه عدم اعتباره بهزائمه وفجائعه ، ثم ينــكر عليه أن يــكون نظيراً لسيف الدولة في الملك ،

فإنما هو – أى الدمستق – يمثل الشرك . وانتصار سيف الدولة عليه انتصار التوحيد أى الاسلام على الشرك ، وليس انتصار ملك على ملك :

ولست مليكاً هازماً لنظيره   ولكنك التوحيد للشرك هازم

ومن قبل رأى المتنبي في (الحدث) مثل الجنون ، فأصبحت سالمة ناجية على يدى سيف الدولة ، مردودة على الدين الحق ، رغم أنف الدهر :

طريدة دهر ساقها فرددتها   على الدين بالخطى والدهر راغم

والمتنبي – فيما يقال – كان متشيعا ، وسيف الدولة من العلويين ، ولهذا لا يجد الشاعر غضاضة في وصف أميره بعلم الغيب :

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم : أنت بالغيب عالم

فهذه العصبية المذهبية هى داعية المتنبي إلى الغلو في مدح سيف الدولة ، ونسبته – بعد أن جاوز به مقدار الشجاعة والعقل – إلى علم الغيب ومعرفته ، وهى فكرة شيعية معروفة ، نسبها بعض غلاة الشيعة إلى « على » ، ثم جاء من خلعها على أبنائه أو أولياء الأمر من العلويين من بعده (١)

والمتنبي من المولعين بالإفراط في المبالغة ، والخروج فيه إلى الاحالة ، كما رأينا . (٢)

أما تعطش المتنبي إلى رؤية ما تنجلى عنه المعارك من دماء وأشلاء ، ففى مواضع من القصيدة : فدماء القتلى تسيل بحيث تغير لون (الحدث) وتحيلها « حمراء » ، لكثرة ما جرت الدماء فيها ، فاختلطت بماء السماء وغطت جوانبها . والشاعر يجعل المنايا بحرا زاخراً ، له موج يتلاطم حول القلعة . ثم يجد الراحة

---

(١) راجع مقدمة كتاب (أدب الشيعة) لعبد الحسيب طه حميدة . الطبعة الأولى (١٩٥٦) والطبعة الثانية (١٩٦٨) . مطبعة السعادة بمصر .

(٢) ومثل ذلك قوله :

وأعجب منك كيف قدرت تنشا   وقد أعطيت في المهد الكمالا
وأقسم لو صلحت يمين شيء   لما صلح العباد له شمالا
يا من نلوذ من الزمان بظله   أبداً ، ونطرد باسمه إبليسا
هنيئا لأهل الثغر رأيك فيهم   وأنك حزب الله صرت لهم حزبا
وأنك رعت الدهر فيها وريبه   فإن شك فليحدث بساحتها خطبا

فى تعليق جثث القتلى كموذات وتمائم، تسكن النفوس، وتهدى الثائرات، ويخذهم إلى المنايا؛ لتحكم بين الروم و (الحدث) ، ويحتفل بنثر أشلاء الروم على جبل (الأحيدب) ملتذا بذلك التذاذ أهل العروس بنثر الدراهم من فوق رأسها فى حفل زفافها .

وجاءت حكم الشاعر فى هـذه القصيدة كسائر حكمه فى أشعاره ، حكما « مستبطنة » بمعنى أنها لا تصدر عن المنطق وحده ، وإنما تصدر عن منطق صقلته التجربة البشرية . تقرأ مطلع القصيدة فما تلبث إلا أن تسلم بتفاوت أقدار الـكرام وذوى العزم ، وتفاوت إراداتهم بقدر ما يطمحون إليه وينهضون به ، وتسلم بأن ضعاف الهمة يصادفون الصغير عظيما ، وكبار الهمة يصادفون العظيم صغيرا ؛ لأن الأولين قد صغرت أقدارهم ، فهم يقنعون بقليل ، والآخرين قد اتسعت مراميهم ، فهم ينشدون المجد ذا سعة .

وتقرأ قوله :

ومن طلب الفتح الجليل فإنما مفاتيحه البيض الخفاف الصوارم

فتراه يعطيك مثالا لما ينبغى أن يكون عليه طالب المعالى ، فأداته إليها يجب أن تـكون كفيلة بتحقيق مراميه . وهذا سيف الدولة طالب الفتح الجليل فكانت أدواته السيوف المرهفات القواطع ، وكانت — فى وقته — أعظم آلات الحرب والقتال .

وفى القصيدة معان وصور ، تكاد تـكون فريدة ، وإن لم تخل من أن يقال فيها . ونذكر منها الأمثلة الآتية :

(أ) وكان بها مثل الجنون ، فأصبحت ومن جثث القتلى عليها تمائم

فيه تصوير لما أصاب قلعة (الحدث) من اضطراب ، بسبب استيلاء الروم

عليها ، وجهدهم فى فدية أهلها من دونهم ، فأشبه هذا الجنون ، ولما كان الجنون يعالج فى وقته بالتميمة ، يحسبها نه لونا من ألوان السحر ، سمح لدى المتنبى أن يعالج نظير الجنون بنظير التميمة، وهو — كما يذكر — جثث القتلى من الروم عاقها سيف الدولة على أبواب القلعة .

وأبو تمام سبق إلى هذا المعنى بقوله :

تكاد عطاياه يجن جنونهـــا   إذا لم يعوذها بنغمة طالب .

(ب) يفدى أتم الطير عمرا سلاحه   نسور الملا : أحداثها ، والقشاعم

وما ضرها خلق بغير مخالب   وقد خلقت أسيافه والقوائم !

فيه معنى يمكن أن يهتدى إليه أصحاب الملاحظة ، حين يلاحظون تحويم الطير فوق مظان مطعمها ، وهو معنى متداول ، منذ قال الأفوه الأودى :

وترى الطير على آثارنا   رأى عين ثقة أن ستمارا

وقال النابغة الذبيانى :

إذا ما غزوا بالجيش حلق فوقهم   عصائب طير تهتدى بعصائب

جوانح ، قد أيقن أن قبيله   إذا ما التقى الجمعان أول غالب

أخذه أبو نواس فقال :

تتأيا الطـــير غـــزوته   ثقـــة بالشبع من جزره

وقال مسلم بن الوليد :

قد عوّد الطير عادات وثقن بها   فهنّ يتبعنه فى كل مرتحل

وقال أبو تمام :

وقد ظللت أعقاق أعلامه ضحا   بعقبان طير ، فى الدماء نواهل

أقامت مع الرايات حتى كأنها   من الجيش إلا أنها لم تقاتل

فكل من الأفوه الأودى والنابغة ومسلم وأبى تمام يحرك طيره، وأبو نواس يجمله ينتظر، والمعنى أن الطير تفيد من غزوات الممدوح مطعمها ورزقها، وهذا هو أيضا ما ذهب إليه المتنبي في بيته، ولكنه أضاف إلى المعنى جديدا في تصويره التندية، فجعل الطير مستمدة الدفاع والنضال اعترافا بالجميل لصاحبه، بينما نفى أبو تمام عنها ذلك في معرض الظن بأنها من صفوف الجيش، والظن أدنى شأنا من التقرير الذى لجأ إليه المتنبي، وكذلك زاد المتنبي فيه — أو إنكاره — حاجة ضعاف النسور إلى مخالبها؛ لأنها ضمنت رزقها، يأتيها رغدا من كل مكان يطؤه جيش الممدوح.

(ح) وقفت، وما في الموت شك لواقف، كأنك في جفن الردى، وهو نائم

تمر بك الأبطال كلمى، هزيمة، ووجهك وضاح، وثغرك باسم

معنى هذين البيتين يكرره الشاعر ويعيده، ومن ذلك قوله في آخرة قصائده.

صدمتهم بخميس، أنت غرته، وسمهريته، في وجهه غمم

فكان أثبت ما فيهم جسومهم يسقطن حولك، والأرواح تنهزم(١)

ومن ناحية التصوير: يصور سيف الدولة في ساحة الحرب شجاعا، باسما مشرقا، لثقته من النصر على عدوه.

وقد قيل (٢): إن سيف الدولة قد عاب البيتين بأن شطرى كل منهما لا يلتئمان، وقد كان ينبغي عنده أن يقول المتنبي:

---

(١) الخميس: الجيش. غرته: المقدم فيه على سبيل التشبيه بالغرة وهى في الأصل البياض في جبهة الفرس. السمهرية: الرماح. غمم: أى كالغمم وهو كثرة الشعر واسباله على الوجه.

(٢) يتيمة الدهر الثعالبى ١/٢١ وما بعدها.

وقفت ، وما فى الموت شك لواقف ، ووجهك وضاح ، وثغرك باسم
تمر بك الأبطال كلمى ، هزيمة ، كأنك فى جفن الردى ، وهو نائم

ولكن المتنبى دافع عن شعره بأن الثوب لا يعرفه البزاز معرفة الحائك ، لأن البزاز يعرف جملته وتفاريقه ، لأنه هو الذى أخرجه من الغزلية إلى الثوبية .

وقال : « لما ذكرت الموت فى أول البيت أتبعته بذكر الردى — وهو الموت نفسه — ليجانسه ، ولما كان وجه الجريح المنهزم لا يخلو من أن يكون عبوسا ، وعينه من أن تكون باكية ، قلت : ووجهك وضاح وثغرك باسم ؛ لأجمع بين الأضداد فى المعنى ، وإن لم يتسع اللفظ لجميعها » .

(د) مضى يشكر الأصحاب فى فوته الظبا . . . الأبيات الثلاثة

فيها تبدو فكرة التهكم بالدمستق قائد جيش الروم ، الذى أفلت ناجيا بجلده ، فهو يشكر أصحابه الذين شغلت بهم سيوف سيف الدولة وأصحابه ، وكان صوت هذه السيوف لغة لم يفهمها إلا ذلك القائد ، الذى فرح بنجاته وسلامته ، بعد أن قدم جيشه وماله طعمة للحرب وغنيمة للمنتصر .

وهذه الفكرة التهكمية عينها بما يصحبها من تصوير يجلوها ، يكررها المتنبى فى أكثر من موضع :

— لعلك يوما — يا دمستق — عائد فكم هارب مما إليه يؤول
نجوت بإحدى مهجتيك جريحة وخلفت إحدى مهجتيك تسيل

— سراياك تترى ، والدمستق — هارب ،
وأصحـــابه قتـــلى ، وأمواله نهـــى

أتى « مرعشا » يستقرب البعد مقبلا وأدبر — إذ أقبلت — يستبعد القربا

(هـ) تفيت الليالى كل شىء أخذته وهن لما يأخذن منك غوارم

إذا كان ما تنويه فعلا « مضارعاً »

« مضى » قبل أن تلقى عليه « الجوازم »

فكرة البيتين أن سيف الدولة ذو قدرة نافذة فائقة ، ويصوره الشاعر أعلى من الزمان قدرة وشأناً ، فسيف الدولة يصاحب الليالى ، ولا تستطيع هى أن تسلبه، بل إنه يديمها ، وهى لديه غارمة ، وسيف الدولة ينفذ ما ينويه ، ويعجل بفعله فى الحال ، قبل أن تعترضه القيود التى تحول دون إنفاذه ، وفى هذه ينقل خيال الشاعر من مصطلحات علم « النحو » ويصطنعها ، فيشبه أمر ممدوحه النافذ بالفعل المضارع ، وهو فى طبيعة وقته صالح للحال والاستقبال ، ولكنه فى خيال المتنبى قد « مضى » ، أى تحول بالإنفاذ إلى وقت الماضى ، قبل أن تلقى عليه الجوازم ، وخاصة الجوازم الشرطية ، أى أن الممدوح يتحرك لفعله قبل أن يقال له مثلا : لتفعله (أمراً) ، أو لا تفعله (نهيا) . أو لم تفعله (نفيا أو انكارا) . (أو لما تفعله) نفيا موصولا بالحاضر . أو إن تفعله تحصل على كذا وكذا ، أو إن ترد أن تحصل على كذا وكذا تفعله (واقعا فى شرط قيداً أو نتيجة) .

وللمتنبى أخيلة . يأخذها من : النحو ، والصرف ، والبلاغة ، والمنطق ، والفلسفة ، وعلم الكلام ، والفقه ، والحساب ، والفلك ، والتاريخ ، تطالع قارىء ديوانه بين الحين والحين .

ومن اصطناعه لمصطلحات النحو قوله مماثلا فى المعنى ما نحن بصدده :

يفزع الجبار من بغتاته   فيظل فى خلواته متكنفا

أمضى إرادته «فسوف» له «قد»   واستقرب الأقصى «فثم» له «هنا»

فـ « سوف » للاستقبال ، و « قد » للمضى ومقاربة الحال ، فكأنه يقول: إذا نوى الممدوح أمراً فكأنما يسابق نيته(١) .

---

(١) يتيمة الدهر ١/١٨٣ .

(و) نثرتهم فوق الأحيدب نثرة ... كما نثرت فوق العروس الدراهم

فيه خيال يستمده من مظاهر التحلي ، وهو كما نرى جاء على سبيل التشبيه ، تشبيها أقرب إلى وصف ما يقع منه إلى الرقة أو الحلاوة ، التي قد يوحي بها المشبه به .

— عيب على المتنبي إكثاره من ذكر « ذا » في كثير من شعره ومنه قوله في القصيدة :

— وكيف يرجي الروم والروس هدمها
و « ذا » الطعن آســـاس لها ودعائم

— أفي كل يوم « ذا » الدمستق مقدم
قفــاه على الإقـــدام للوجه لائم

و « ذا » فيما ينقل « الثعالبي » عن « القاضي الجرجاني » ضعيفة في صنعة الشعر ، ودالة على التكلف وأنت لا تجد منها في عدة دواوين جاهلية حرفا ، والمحدثون أكثر استعانة بها ، لكن في الفرط والندرة ، أو على سبيل الغلط والفلتة (١) .

ونحن لا نرى هذا الصنيع أمرا مطردا ؛ فإن « ذا » ـ وكذلك أشباهها ـ مقبولة غير مرفوضة إذا جاءت في موضعها من الشعر ، ووافقت محلها الذي تليق به .

والبيت الآخر (أفي كل يوم ...) معيب عند « الثعالبي » بسبب « ذا » ولسنا نراه كذلك ، فإن « ذا » هنا إشارة تحقير وتسفيه .

---

(١) المرجع نفسه ١/١٦٣ وما بعدها . والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ص ٢٣ وما بعدها ـ تحقيق أبي الفضل والبجاوي ـ الطبعة الثانية — دار إحياء الكتب العربية — ١٣٧٠ هـ/١٩٥١ م

وفي رأينا أنه ليس ثم لفظ شعري وآخر غير شعري، فأي لفظ أدى إلى إصابة المعنى والعبارة عن إحساس الشاعر، إنما هو لفظ صالح للاستعمال، وليس ينبغي النظر إلى اللفظ مفرداً، بل ينبغي النظر إليه في تركيب عبارته.

٢ — القصيدة الثانية، أنشدها المتنبي في «آمد» عندما عاد إليها سيف الدولة سنة ٣٤٥ هـ، بعد أن انتصر على الروم انتصاراً عظيماً في موقعة «تل البطريق»، ودمر قلاعهم وحصونهم واضطرهم إلى ترك آلاف من القتلى والأسرى، قال المتنبي:

الرَّأيُ قَبلَ شجاعةِ الشجعانِ ... هو أوّلٌ، وهي المحلُّ الثاني (١)
فإذا هما اجتمعا لنفسٍ مِرّةٍ ... بلغتْ من العلياء كلَّ مكانِ (٢)
ولرُبّما طَعَنَ الفتى أقرانَه ... بالرأي قبل تطاعُنِ الأقرانِ (٣)
لولا العقولُ لكان أدنى ضَيْغَمٍ ... أدنى إلى شرفٍ من الإنسانِ (٤)
ولَما تفاضلتِ النفوسُ ودَبَّرتْ ... أيدي الكُماةِ عَوالِيَ المُرّانِ (٥)

---

(١) الرأي: يقصد به العقل أو إعمال الرأي. الشجعان: جمع شجاع وهو الشديد القلب عند البأس، وصفته هذه تسمى الشجاعة.
(٢) المرة (بكسر الميم): أصلها إحكام الفتل، والمراد نفس ذات مرة أي ذات قوة وإباء. والمرة (بضم الميم): من المرارة، والنفس المرة على هذا الصعبة على المعالج. ويروى نفس حرة.
(٣) الأقران: جمع قرن (بالكسر) وهو الكفء في الشجاعة.
(٤) أدنى الأولى من الدون فهي بمعنى أدون وأخس، وقد تهمز فيقال: (أدنأ)، وأدنى الثانية من الدنو فهي بمعنى أقرب.
(٥) الكماة: جمع كمي على غير قياس وهو البطل في سلاحه. عوالي المران: صدور الرماح اللينة، والعوالي جمع عالية.

لولا سَمِيُّ سيوفِه ومَضاؤه … لمّا سُلِلْنَ لَكُنَّ كالأجفان(١)

خاض الحِمامَ بهنّ حتى ما دُرِى … أَمِنِ احتقارٍ ذاكَ أم نِسيان(٢)

وسعَى فقصَّر عن مداه فى العُلا … أهلُ الزمانِ وأهلُ كلِّ زمان(٣)

تخِذوا المجالسَ فى البيوتِ ، وعنده … أنّ السُّروجَ مجالسُ الفتيان(٤)

وتوهموا اللعبَ الوغى . والطّعنُ فى الـ … ـهيجاء غيرُ الطعن فى الميدان(٥)

قاد الجياد إلى الطِّعانِ ولم يَقُدْ … إلا إلى العاداتِ والأوطان

---

(١) سمى السيوف : يريد سيف الدولة . مضاؤه : المضاء فى الأمر النفاذ فيه ومضاء السيف قطعه والمضاء على الشىء كبيع ونحوه إجازته . الأجفان : أغماد السيوف والواحد جفن وغمد .

(٢) الحمام (بالكسر) : الموت . درى : علم وتنص الدواوين على أنه مبنى للمجهول على لغة طيء فهو مفتوح الوسط ولا نص على هذا فيمكن أن يكون مبنيا للمجهول بكسر الوسط وأسكن آخره للوزن ، وعلى كل فمفعوله الأول صار نائب الفاعل ومفعوله الثانى محذوف سدت مسده جملة الاستفهام . ويجوز فى رأينا أن يكون الفعل (درى) مبنيا للمعلوم وفاعله ضمير يعود على سمى السيوف أى سيف الدولة وجملة الاستفهام سدت مسد المفعولين . والإشارة فى (ذاك) لخوض الحمام المفهوم مما سبق .

(٣) مداه فى العلا : غايته فيها ، والعلا جمع عليا مثل كبر وكبرى : الزمان : أى الزمان الحاضر فاللام للعهد الحضورى .

(٤) تخذوا واتخذوا بمعنى ، والضمير فيه لأهل الزمان . عنده : أى فى اعتقاده .

(٥) الوغى والهيجاء : كلاهما من أسماء الحرب . والميدان : المقصود به ميدان اللعب . وجملة (والطعن . . .) كلام مستأنف للتعقيب على ما سبقه .

كل ابن سابقةٍ يُغيرُ بحُسْنِه
في قلبِ صاحبِه على الأحزانِ (١)

إن خُلِّيتْ رُبِطتْ بآدابِ الوغى
فدعاؤها يُغني عن الأرسانِ (٢)

في جَحْفَلٍ سَتَرَ العيونَ غبارُه
فكأنّما يُبصرن بالآذانِ (٣)

يَرمي بها البلدَ البعيدَ مُظَفَّرٌ
كلُّ البعيدِ له قريبٌ ، دانِ (٤)

فكأنّ أرجلَها بتُربةِ « مَنْبِجٍ »
يَطْرَحن أيديَها « بحِصن الرانِ » (٥)

حتى عَبَرْنَ « بأَرْسَناسَ » سوابحاً
يَنْشُرْنَ فيه عمائمَ الفُرسانِ (٦)

---

(١) سابقة : أي فرس سابقة ، وابنها الجواد . وكل نصبا بدل من الجياد في البيت السابق ، ويجوز رفعه خبرا عن ضمير محذوف يعود على الجياد .

(٢) إن خليت : أي الجياد . الأرسان : جمع رسن وهو الحبل — ونحوه — تقاد به الدابة . ...

(٣) جحفل (وزان جعفر) : جيش عظيم ، وفي جحفل في موقع الحال من الجياد .

(٤) مظفر : يريد به سيف الدولة . له : أي في حقه ، في موضع الحال من الضمير في قريب ...

(٥) منبج : من بلاد الشام . وحصن الران : من بلاد الروم ، وبينهما مسيرة خمس ليال .

(٦) أرسناس : نهر ببلاد الروم .

يَغْصُنَ فى مثل المُدَى من باردٍ
يَذَرُ الفُحولَ وهُنّ كالخصيان(١)

والماء — بين عَجاجَتَيْن — مُخلَّصٌ
تتفـــرقان بــه وتلتقيــــان(٢)

ركضَ الأميرُ وكاللُّجين حَبابُهُ
وثَنَى الأعنةَ وهـــو كالعِقيان(٣)

فَتَلَ الحِبالَ من الغدائر فوقَه وبَنَى السفينَ له من الصلبان(٤)

وحَشَـــاهُ عاديةً بغير قوائمٍ
عُقُمَ البُطون ، حوالكَ الألوان(٥)

---

(١) يغصن : يغبن . المدى : السكاكين ، الواحدة مدية . من بارد : بيان للمثل يريد من ماء بارد ، وماء أرسناس بارد جدا . الفحول : جمع فحل وهو الذكر من كل حيوان . الخصيان : : جمع خصى ، وهو الذى سل خصياه .

(٢) عجاجتين : العجاجة الغبرة وإحداها غبرة الفرق الذى عبر والأخرى غبرة الفرق الذى لم يعبر بعد ، أو إحداهما غبرة جيش بنى حمدان والأخرى غبرة جيش الروم . وسئل المتنبى فى ذلك وقت كان هناك ، فأجاب بأنه هكذا شاهده ، وأقول : إن الحركة العنيفة تثير التراب فى الهواء .

(٣) ركض الأمير : أى فرسه (فاعلا) بمعنى عدا وجرى ، و (مفعولا) بمعنى استحثه للعدو ودفعه . كاللجين : كالفضة . حبابه : فقاقيعه أو طرائقه التى تراه على وجه الماء . الأعنة جمع عنان وهو اللجام : وهو كالعقيان : كالذهب والضمير للماء .

(٤) الغدائر : الخصل من الشعر الواحدة غديرة . السفين : جمع سفينة . الصلبان : جمع صليب ...

(٥) حشاه : حشى الماء . عادية : أى سفنا عادية وجعلها عادية لأنه شبهها بالخيل ، وقد أعفاها من القوائم والخيل . عقم : جمع عقيم وهى التى لا تلد . حوالك : جمع حالكة وهى الشديدة السواد ، وسوادها من القار الذى طليت به .

فأتى بما سَبَتِ الخيولُ كأنها
تحت الحسانِ مَرابضُ الغِزلانِ(١)

بَحْرٌ تَعَوَّدَ أن يُذِمَّ لأهلِهِ
من دَهرِهِ ، وطوارقِ الحَدَثانِ(٢)

فتركتَهُ ، وإذا أذمَّ من الوَرَى
راعاكَ ، واستثنى بني حَمْدانِ(٣)

المُخْفِرِينَ بِكُلِّ أبيضَ صارمٍ
ذِمَمَ الدُّروعِ على ذوي التيجانِ(٤)

مُتَصَعلِكِينَ على كثافةِ مُلكِهِم
مُتَواضِعِينَ على عظيمِ الشانِ(٥)

يتقَيَّلُونَ ظِلالَ كلِّ مُطَهَّمٍ
أجَلِ الظليمِ ، ورِبْقَةِ السِّرحانِ(٦)

---

(١) ما سبت الخيول : أى من سبتها وهى النساء اللاتى سباهن فرسان الخيول . مرابض الغزلان : أمكنة مأواها ، وشبه السفن بالمرابض والنسوة بالغزلان .

(٢) بحر : أى هو بحر ويقصد النهر . يذم لأهله من دهره : يجيرهم منه . طوارق الحدثان : ما يطرق منها ، والحدثان : النوائب والصروف .

(٣) أذم من الورى : أجار منهم ، والورى : الخلق . وجملة (وإذا أذم) حالية .

(٤) المخفرين : اسم فاعل من أخفر ، وأخفرته نقضت عهده . ذمم الدروع : عهودها ، والذمم جمع ذمة ، والدروع جمع درع وهو قميص الحديد . وجعل الذمم لها وهى لأصحابها الملوك الذين كنى عنهم بذوى التيجان ، وقد أخفرها بكل أبيض صارم أى بكل سيف قاطع

(٥) متصعلكين ومتواضعين : اسما فاعل يقع كلاهما حالا من بنى حمدان ، وعلى بمعناها بمعنى مع ، ويقع الوصفان حالا من الضمير فى اسم الفاعل قبله . والمتصعلك : المتشبه بالصعاليك ، وهم المتلصصون الذين لا مال لهم .

(٦) يتقيلون : ينامون فى القائلة وهى نصف النهار ، وفى رواية (يتفيئون) أى يستظلون =

خضعتْ لمنصلكَ المناصلُ عَنْوةً
وأذلّ دينُك سائرَ الأديان[١]

وعلى الدُّروب ، وفي الرجوع غضاضةٌ
والسَّيرُ ممتنعٌ من الإمكان[٢]

والطُّرْقُ ضيقةُ المسالكِ بالقَنا
والكُفْرُ مجتمعٌ على الإيمان[٣]

نَظروا إلى زُبَرِ الحديد كأنما
يَصْعَدن بين مَنا كبِ العِقبان[٤]

وفوارسٍ يُحيي الحِمامُ نفوسَها
فكأنها ليستْ من الحيوان[٥]

بأبناء خيلهم ، ونصب ظلال على الروايتين على نزع الخافض . المطهم : الحسن التام الخلق من الخيل . الأجل : المراد به أجل الموت وهو نعت لمطهم . الطائر : ذكر النعام . الربقة : العروة من حبل يشد بها . السرحان (بالكسر) : الذئب .

(١) المنصل (بضم الميم وبضم الصاد أو فتحها) : السيف وجمعه المناصل . عنوة : أي قهراً ..

(٢) الدروب : المداخل إلى بلاد الروم ، وعلى الدروب صلة نظروا في البيت الثالث أو حال من ضميره . والجملتان الباقيتان في هذا البيت والجملتان في البيت التالي أحوال . غضاضة : كل ما ينقص من الإنسان وهو ما يعاب عليه الذل والعار .

(٣) الطرق (بالإسكان وبالتحريك) : جمع طريق . القنا : الرماح . الكفر والإيمان : المراد أصحابهما

(٤) نظروا : الضمير للأعداء واستغنى عن تقدم ذكره بدلالة المقام . زبر الحديد : القطع منه ويريد بها السيوف ، والواحدة زبرة (بالضم) . يصعدن : صعد يصعد رقى يرقى وزنا ومعنى . المناكب : جمع منكب وهو مجتمع رأس الكتف والعضد ، والمناكب في الريش بعد القوادم . العقبان : جمع عقاب وهو هذا الطائر من فصيلة النسور .

(٥) فوارس : عطف على زبر الحديد ، جمع فارس . الحمام : الموت .

مازلتَ تضربهم دِراكاً في الذرا

ضرْباً كأن السيفَ فيه اثنان(١)

خَصَّ الجماجمَ والوجوهَ كأنما ... جاءتْ إليك جُسومُهم بأمان(٢)

فرَمَوْا بما يَرمُون عنه وأدبروا ... يَطَئُون كلَّ حَنِيَّةٍ مِرْنانِ(٣)

يغشاهُم مَطَرُ السحابِ مُفصَّلا ... بمُثقَّفٍ ، ومهنَّدٍ ، وسِنانِ(٤)

حُرِموا الذى أمَلُوا ، وأدرك منهم ... آمالَه مَنْ عاذ بالحِرمانِ(٥)

وإذا الرماحُ شغَلْنَ مُهجةَ ثائرٍ ... شَغَلَتْه مُهجتُه عن الإخوانِ(٦)

---

(١) دراكا : أى لحاقا ومتابعة ، والدراك (وزان كتاب) لحاق الفرس الوحش وإتباع الشىء بعضه على بعض . الذرا : الأعالى ، جمع ذروة وهى أعلى كل شىء ، ويقصد ذرا أبدانهم أى رءوسهم ووجوههم كما صرح فى البيت الآتى .

(٢) خص : الضمير فيه للضرب فى البيت السابق . الجماجم : جمع جمجمة وهى عظم الرأس المشتمل على الدماغ . أمان : أمن واطمئنان .

(٣) فرموا بما يرمون عنه . أى طرحوا القوس التى يرمون السهم عنه ، يقال رمى الشىء وبه ألقاه وطرحه ، ورمى السهم عن القوس وعليه ، والقوس يؤنث ويذكر . أدبروا ولوا أى انهزموا . الحنية : القوس . المرنان : ذات الرنين .

(٤) يغشاهم : يعلوهم ويغطيهم . مطر السحاب : أراد به ضرب الجيش وطعنه ، فشبه الضرب والطعن بالمطر وشبه الجيش بالسحاب . مفصلا : فى الأصل من تفصيل القلادة ، وهو أن يجعل بين كل لؤلؤتين خرزة ، وشبه به إعمال المثقف تارة والمهند تارة والسنان تارة . والمثقف المقوم وهو الرمح . والمهند : السيف منسوبا إلى الهند . والسنان : الزج فى أسفل الرمح .

(٥) أمل : رجا وزنا ومعنى . وفى رواية (عاذ) بالمعجمة ، وعاذ بالشىء امتنع به .

(٦) المهجة : الروح . الثائر : طالب الدم والبيت حكمة فى صفة الروع أو فى صفة سيف الدولة على ما يأتى فى البيان .

هيهات . عاقَ عن العِوادِ قواضبٌ
كَثُرَ القتيلُ بها ، وقَلَّ العاني[1]

ومُهَذَّبٌ أمَرَ المنايا فيهمُ
فأطَعْنه في طاعة الرحمان[2]

قد سَوَّدَتْ شجرَ الجبالِ شعورُهم
فكأنَّ فيـــه مُسِفَّةَ الغربانِ[3]

وجَرَى على الوَرَقِ النجيعُ القـــانى
فكأنه النارَنْج فى الأغصان[4]

إنَّ السيوفَ مع الذين قلوبُهم
كقلوبهن إذا التقى الجمعان[5]

تلقَى الحُسـَـــامَ على جَرَاءة حدِّه
مِثْلَ الجبان بكفِّ كلِّ جبان

---

(١) هيهات : اسم فعل بمعنى بعد ، وفاعله محذوف دل عليه ماسبق أى هيهات عودهم. العواد : مصدر عاود بمعنى عاد . القواضب : السيوف . العانى : الأسير .

(٢) مهذب : عطف على قواضب ، ويريد بالمهذب سيف الدولة .

(٣) كأن فيه : أى فى الشجر . مسفة الغربان : الغربان المسفة أى الواقعة على الشجر ، شبه بها شعورهم التى تعلقت بالشجر . ومسفة من أسف الطائر إذا دنا من الأرض فى طيرانه .

(٤) الورق : ورق الشجر . النجيع القانى : الدم الشديد الحمرة ، والقانى مسهل من القانئ .

(٥) الضمير فى قلوبهم يعود على اسم الموصول ، وفى قلوبهن يعود على السيوف وجعل لها قلوبا على سبيل الاستعارة ومع للمعية والصحبة أو الدلالة على معنى النصر والمعونة ، فالمعنى على الأول أن السيوف بحقيقتها وقلبها إنما تكون مع الشجعان الصلاب مثلها ، وعلى الثانى أن السيوف إنما تنصر الشجعان الذين لا يفزعون فى الحرب .

(٦) تلقى : خطاب . الحسام : السيف القاطع . على جراءة حده : أى معها والمراد بجراءة حده مضاؤه فى الضريبة فعبر عنه بالجراءة لمقابلة الجبان .

رَفَعَتْ بِكَ العَرَبُ العِمادَ وصَيَّرَتْ
قِمَمَ المُلوكِ مَواقِدَ النِّيرانِ(١)

أنسابُ فَخرِهِمُ إليكَ ، وإنَّما
أنسابُ أصلِهِمُ إلى « عدنانِ »

يا مَن يُقَتِّلُ مَن أرادَ بسيفِهِ
أصبحتُ مِن قَتلاكَ بالإحسانِ(٢)

فإذا رأيتُكَ حارَ دونَكَ ناظرِي وإذا مدحتُكَ حارَ فيكَ لساني

بدأ المتنبي قصيدته بكلمة حكيمة فى فضل العقل على الشجاعة والرأى على القوة فإذا هما اجتمعا لإنسان بلغ من العلياء كل مكان . وعنده أن العقل مقدم على الشجاعة ؛ فإن العقل وحــده يهدى صاحبه ، وينير له سبيله ، والشجاعة وحدها قد تورد صاحبها موارد التهلكة ، فإذا اجتمعا لنفس مرة تأبى الذلة والهوان ولا تلين قناتها بلغت هذه النفس أعلى المنازل ، ولربما صلح العقل فى تدبير المكايد للأعداء والتحيل للانتصار عليهم من قبل الاشتباك معهم ودعوتهم للنزال والطعان ، وإنه لولا العقل للانسان ما امتاز على سائر الحيوان ، ولكان أدون ضيغم أقرب إلى الشرف والمجد من هذا الإنسان ؛ لأن قوة الإنسان الجسدية بالغة ما بلغت أقل من قوة هذا الضيغم ، فالإنسان يفضل غيره من الحيوان بعقله، وبالعقل أيضاً يتفاضل بنو الإنسان ، منهم من يؤتى منه حظا موفورا ، ومنهم من يكون حده منه محدوداً ، ومنهم من يعمله لمنفعة ذاتية ، ومنهم من يجعله

---

(١) العماد : جمع عمادة وهى البناية الرفيعة ، ورفع العماد كناية عن الإجادة والعرف . القمم : جمع قمة وهى فى الإنسان رأسه أو أعلاه . المواقد : جمع موقد .

(٢) يقتل (بالتشديد) : يقتل كثيرا . والقتيل بالإحسان : أى المستعبد به العاجز عن شكره ..

فى خدمة البشرية ، ومنهم من يتجه به إلى الخير ، ومنهم من يرصده لإثارة الشر ... فبهذه العقول تتفاضل النفوس وتتفاوت قيمتها ، ولولا العقول أيضاً ما أمكن توجيه الشجاعة والانتفاع منها ، وعبر عن ذلك بتصوير العقل يدبر لأيدى الكماة طرائق الطعان واستعمال عوالى المران .

وخلص من هذا خلوصا جميلا إلى أن سمى السيوف — يعنى سيف الدولة — أعمل فى الحرب عقله ، وأمضى فيها إرادته ، فلولاه ، ولولاه مضاؤه ما أغنت السيوف فى الحرب شيئا ، وما كانت فى عدم الفائدة منها إلا كالأجفان التى كانت فيها قبل أن تسل ؛ فإنما السيف بضاربه ، و « إنما يعمل الساعد لا السيف »[1] .

خاض سيف الدولة الحمام بسيوفه خوضا ، واقتحم الأخطار اقتحاما ، حتى خيل أنه يحتقر الحمام ويزدريه ، أو أنه ينسى الموت ويغفل عنه ، وماذاك إلا انه ينشد مجدا ، تسمو إليه سموا يبلغ به المدى فى العلا ، وقصر عن مثله أهل زمانه وأهل كل زمان غيره . يغمز الشاعر بهذا ملوك المسلمين الذين تقاعسوا عن الجهاد ، وانصرفوا إلى ملاهيهم ، ولم يحركوا ساكنا لغارات الروم ، أما سيف الدولة فقد نهض إلى الجهاد المقدس ، وانصرف إلى الواجب ، وصد غارات الروم ، واقتحم عليهم ديارهم ، فأدبهم ، وظفر بهم ، وذاد عن الإسلام والمسلمين ، وأبلى فى ذلك كله خير البلاء . وهؤلاء الذين يغمزهم الشاعر ويعرض بهم اتخذوا مجالسهم فى البيوت يتنادمون ويتسامرون ويشبعون شهوات حسهم ، وظنوا الحياة لهوا ولعبا ، وتوهموا الحرب كذلك ، فنظروا إليها نظرة هازلة غير جادة ، نظرتهم إلى ميدان اللعب ، أما سيف الدولة فعنده أى فى اعتقاده أن الفتيان ينبغى أن تكون مجالسهم سروج الخيل للغزو والجهاد ، فالحياة جد ، والحرب

(١) هذا مثل قاله عمرو بن معد يكرب الزبيدى حينما تناول منه سيفه (الصمصامة) رجل ظن أنه يستطيع أن يكون بتقلده بطلا ، فلم يقدر على أن يعمل به شيئا .

جد ، وميدان الحرب هو محك الطعان ، وشتان بين طعن المجاهد المحارب وطعن اللاهي اللاعب .

قاد سيف الدولة جياده إلى الطعان في الحرب ، ولم يقدها إلى أمر غريب عليه أو عليها ولا إلى أرض غير مألوفة له أو لها ، وإنما قادها إلى ما هو من عادته أو إلى ما اعتادته منه ، وإلى وطنه لأنه من المعركة في وطن ، أو إلى وطنها لأنها قد ألفت ذلك عنده . وكل جواد من هـــذه الجياد فرس كريم إذا نظر إليه صاحبه سره ورائه فكأنه كان ينثر — مع غارته في الحرب — على الأحزان في قلب صاحبه فيبددها ؛ لأنه يرضيه نظراً ، كما أرضاه فعلا . وهذه الجياد كريمة مؤدبة بآداب الحرب ومتمثلة بالفرسان ، فإن خليت لم تبرح أمكنتها ، وإذا دعيت أجابت ، وانقادت لصوت داعيها وأغنى دعاؤها عن جذبها من أرسانها .

قاد سيف الدولة الجياد في جحفل تكاثف غباره في مسيره ، حتى ستر العيون ، فلا تبصر فيه الخيل مع قوة بصرها ، ولكنها إذا أحست شيئاً نصبت آذانها ، ولكنها تسمع الأصوات فتفعل ما تتطلبه وتقتضيه ، فكأنما تبصر بآذانها . ويرى بها سيف الدولة — الظفر — البلد البعيد يراه قريباً دانيا ؛ لأن له من عزمه مايتيح له هذه الرؤية ، فالبعيد في نظر غيره قريب في نظره ، والبعيد في الواقع قريب أمام عزماته . وإذا كان البلد البعيد في متناول الأمير فإنه كذلك في متناول خيله ، وصور هذا في سعة خطوها وسرعتها ، فهي تكون في « منبج » بالشام فتبلغ بخطوة واحدة « حصن الران » في بلاد الروم — وبينهما كما ذكرنا مسيرة خمس ليال[1]

هذه الخيل عبرت نهر « أرسناس » سابحة مسرعة ، واقتحمته ولم تهب اقتحامه ، وعلى ظهورها فرسانها ، الذين اعتموا للحرب ، فانحلت أطراف عمائمهم ، وتطايرت في الهواء وانتشرت ، ورفرفت فوق النهر . وهذه الخيل وثبت في ماء

---

(١) والمبالغة في هذا واضحة .

هذا النهر البارد جدا ، الذى تحز برودته وتؤلم الأبدان كما تحز المدى (١) ، إلى درجة أن خول الحيوان وذكرانه إذ تسقط فيه لا تلبث أن تخرج منه أشبه بالخصيان ، لأن برودته الشديدة قلصت أعضاءها .

وقع ماء النهر بين عجاجتين أثارهما فريقان من جيش سيف الدولة : فريق كان قد عبر ، وفريق يتحرك للعبور (٢) ، فبدت العجاجتان متصولتين بالنهر عند قاعدتيهما ، متلاقيتين فى سمائه لشدة انتشارهما .

وكان النهر مجاز سيف الدولة إلى بلاد الروم مقبلا على الغزو والفتح ، ومجازه إلى بلاده فى الشام بعد أن أتم الغزو والفتح والنصر ، فعندما ركض الأمير خيله إلى بلاد الروم فى مائه كان ماء أبيض صافى البياض كأنه اللجين الذائب ، وعندما عاد منه بعد الظفر كان قد احمر لونه ، كلون العقيان ، من كثرة ما سال فيه من دماء القتلى والجرحى .

وقد طوى الشاعر أمر القتال والطعان فى البيت طيا ؛ ليفسح للخيال مجال التخيل ، أو ليوحى أن سيف الدولة خطف النصر خطفا وانتزعه انتزاعا ، بعد أن كبد عدوه خسائر جسيمة (٣) .

أمعن سيف الدولة فى الغزو والفتح ، واستولى على بيع كثيرة ، وحمل منها سلبا اتخذها ألواحا وأعوادا للسفائن التى بناها لعبور النهر لدى عودته ، وسبى

(١) وقيل : إن الريح تضرب سطح الماء فتجعله متكسرا أشبه بالمدى . والمعنى الأول أوفق ...

(٢) وقيل : أثار جيش المسلمين عجاجة وأثار جيش الروم عجاجة ، ويصرفنا عن هذا القول أن القتال لم يكن بدأ بعد .

(٣) وسيأتى تفصيله فى قوله (خضعت لمنصلك المناصل .. الأبيات) .

نساء جمل غدائرهن حبالا لهذه السفائن(١) ، وملأ النهر بها – أى بالسفائن – وأجراها فيه ، فكانت له منها جياد وخيل ، إلا أنها لا قوائم لها ؛ لأنها تمخر فى الماء ، وعقم البطون غير ولود ولا منتجة ؛ لأنها جوفاء فارغة ، وذات لون واحد هو اللون الأسود الحالك ؛ لأنها مقيرة بالقار .

حملت هذه السفائن النساء الحسان اللاتى سباهن فوارس الخيل ، وآوت النساء إليها كما تأوى الغزلان إلى مرابضها ، فالنساء كأنها الغزلان ، والسفائن كأنها أرباض الغزلان .

والتفت الشاعر إلى الأمير يقول له : هذا النهر الذى عبرته ؛ واستطعته لفحم، غاديا رائحا ؛ اعتاد منه أهله أن يجيرهم من أحداث الدهر ونوائبه ، وأن يقف حائلا دون غزوهم ، وأن يمثل حدا صنعته الطبيعة لحمايتهم من الوثوب عليهم(٢) هذا النهر تركته — بعد أن قدرت عليه — يجير أهله من الورى إلا من بنى حمدان ؛ لأن عبوره والسيطرة عليه لم يتيسرا إلا لك .

وبنو حمدان هؤلاء بلغوا من القـــوة مبلغ القادرين على إخفار الذمم ونقض العهود ؛ بما أوتوا من كل أبيض صارم . والشاعر لما جعل ملوك الروم فى ذمم دروعهم ، إذ تحصنوا بها وتوقوا بلبسها ، فكأنهم فى خفارتها — جعل إخفار هذه الذمم من وظيفة السيوف الصوارم ؛ لأنها تهتك الدروع ، وتمزق ما تحتها من الأبدان ، فتزهق الأرواح .

وبنو حمدان مع كثافة ملكهم وعظمته وفخامته يتشبهون بالصعاليك الذين لا مال لهم فى الشجاعة والتعرض للغارات وخشونة العيش وشدائد الأسفار ، وهم

---

(١) وهذا تصوير لكثرة ما استولى عليه من الصلبان ومن سبى من النساء ، وإلا فإنه أخذ الصلبان خشبا كبيرا فى بناء السفن ، وما نوى خصل الشعر على أنه تفتل فتل الحبال .

(٢) ومن أجل هذه المعانى كلها سماه الشاعر بحرا أى شبهه بالبحر ، ولو لم يقصد إليها لقال : (نهر) ويستقيم له الوزن .

مع عظم شأنهم وعـــلو جاههم يتواضعون للناس لينا وكرما . ومن تشبيههم بالصعاليك يلجئون إلى ظلال خيولهم عند القيلولة (١) . وهذه الخيول قد عقدت بها آجال النعام وقيود السراحين ، أى أنها إذا طاردتها قتلتها ومنعتها من العدو فكانت قيدا لها ؛ على حد قول امرىء القيس :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل

يفتح الشاعر بعد هذا صفحة جديدة فى الحديث عن عبقرية الشجاعة لدى سيف الدولة ؛ إذ أحيط به من كل مكان ، فصمم على الظفر ، واستمات فى سبيل انتزاع النصر .

وتعجل الشاعر النتيجة ؛ ليبشر بها ؛ فقرر أن أميره بلغ منتـــاه فى الظفر والنصر ، باستناده إلى الشجاعة حين غلب الروم بقوته ، وباعتماده على الحق الإلــهى الذى يقاتل معه حين انتصر لدين الله . والصورة التى عرضها الشاعر هى خضوع مناصل الروم لنصل الأمير عنوة وقهرا ، واستسلام أديانهم لدينه الإسلام مذلة وهوانا

أحيط بسيف الدولة وجيشه على دروب العـدو ، واشتد الأمر بالمسلمين ، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وتعذر عليهم التقهقر رغم ما فيه من غضاضة وعار ، وامتنع عليهم التقدم ؛ لكثرة العدو ، ولأنه سد المسالك دونهم ، بما أشرع من رماح ، واجتمع أهل الكفر على أهل الإيمان ، وتكالبوا فوقهم — حينئذ نظر الروم إلى المسلمين مقنعين فى السلاح مشتملين به فوق خيل كالعقبان فى سرعتها

(١) وعلى رواية (يقايلون) يكون المعنى أنهم يستظلون بأفياء خيامهم عند اشتداد الهاجرة ؛ يريد فى الحالين تشبيههم بأهل البادية فى التبدى وأنهم لا ظل لهم . وقال ابن جنى فى (يقيلون ظلال كل مطهم) : إنهم يقيلون آباءهم السابقين أى يشبهونهم فى الشرف والسبق إليه كالفرس المطهم .

وخفتها إلى الطيران[١] ، نظر الروم إلى فوارس يرون حياتهم في مماتهم ، فالحمام يحيي أنفسهم ، لأنهم باعوها لله ، واشتراها الله منهم بأن لهم الجنة ، « وعدا عليه حقا في التوراة والإنجيل والقرآن »[٢] ثم إنهم أحياء عند ربهم « ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات ، بل أحياء ، ولكن لا تشعرون »[٣] . « ولا تحسبن الذين قتلوا في سـبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون »[٤] . هؤلاء الفوارس الذين يطلبون الشهادة يقبلون على الموت الذي يهب لهم الحياة ، فكأنهم من غير جنس الحيوان ؛ لأن الحيوان لا يحيا بهلاكه .

أصبح المسلمون في قوة من أنفسهم ، مشحونين بعوامل الظفر ، مهيئين لانتزاع النصر ، وما كان عليهم إلا أن يحولوا عزمهم وتصميمهم إلى فعل وتنفيذ، وقد كان . انظر كيف اتجه الشاعر بالخطاب إلى سيف الدولة واصفا عبقريته في الشجاعة وفي صناعة النصر أكثر منه مادحا :

مازلت تضربهم دراكا في الذرا . . . . الأبيات

يقول له : مازلت تضرب الروم ضربا متتابعا في أعالي أبدانهم ، في رءوسهم ووجوههم ؛ ضربا يصير فيه السيف الواحد مثل اثنين ؛ من سرعته ، ومهارة ضاربه[٥] ، ضربا خص الجماجم والوجوه فلا يعمد إلا إليها ؛ فتتساقط الرءوس ،

---

(١) ويجوز القول بأن الروم نظروا إلى سيوف المسلمين ترتفع في الهواء عندما يرفعونها للضرب كأنها تصعد بين مراكب العقبان الطائرة ، ثم لا يجدها الروم إلا فوق رءوسهم .

(٢) سورة التوبة — آية : ١١١ .

(٣) سورة البقرة — آية : ١٥٤ .

(٤) سورة آل عمران — آية : ١٦٩

(٥) أو لأنه ينفذ من المضروب إلى آخر فيقطعه أيضا . أو — كما قال ابن جني — إلك سيف ومعك سيف فالضرب ضرب سيفين .

وتمزق الوجوه ، فيسرع الموت إلى أصحابها ، ضربا لا يقع على الجسوم ، كأن أجسامهم استسلمت لك ، فأنت إليك آمنة من أن تصاب ، ومن أن تتعرض لها ؛ ضربا شديدا اضطر الروم — حتى تتاح لهم النجاة — إلى أن يطرحوا قسيهم التي كانوا يرمون عنها ، ويفروا ، فلما أدبروا جعلوا يطئون هذه القسى التي اطرحوها وتخففوا من أحمالها ، فهم يطئونها على الرغم منهم ، لأنها غير واقعة تحت أبصارهم ، لأن أبصارهم معلقة بما يصبه عليهم جيش المسلمين الكثيف — كثافة السحب — من رجوم ، يتعاورها الرمح والسيوف والسنان ، فجعلت تتساقط عليهم كما يتساقط مطر السحاب متصلا ، فهم يتلقون ما يفتك بهم ويذيقهم الهلاك من بين أيديهم ومن خلفهم ، وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومن أعلاهم ومن أسفلهم . وانتهت المعركة بهزيمتهم ، فباءوا بالخسران ، وبالحرمان مما كانوا يأملون من الظفر بالمسلمين ، إلا أملا واحدا لم يحرموه ، وأدركه منهم من نجا ببدنه وقنع من الغنيمة بالإياب أو الفرار :

حرموا الذى أملوا ، وأدرك منهم　　　آماله من عاد بالحرمان

والمتنبي فى هذا كله يوجه كل سمات البطولة والشجاعة إلى المسلمين ، ويصف قدرتهم على مواجهة المآزق التى دفعوا إليها ، ويصرف ذلك عن الروم الذين انطووا — كما يصرح بعد قليل — على الجبن ، ولم يرزقوا شرف الثبات .

ويعقب على هذا ببيته الحكيم :

وإذا الرماح شغلن مهجة ثائر　　　شغلته مهجته عن الاخوان

والبيت يحتمل أن يصرف إلى الروم ، بتقرير أنهم تخاذلوا عندما أحسوا بالمهلكة فطلبوا الهزيمة فرارا بأنفسهم ، وشغل كل منهم بروحه عن طلب الهم لغيره من إخوته . وتفسير البيت على هذا : إذا شغلت الرماح ثائرا شغل هو بالحفاظ على روحه عن إدراك ثأر القتلى من إخوانه .

ويحتمل البيت أن ينصرف إلى سيف الدولة ، بتقرير أنه شغل نفسه بإخوانه ، ففداهم منهم ، وجعل نفسه لهم فداء . وتفسير البيت إذن : إذا شغلت الرماح مهجة ثائر شغلت سيف الدولة مهجته بإخوانه (١) أو : إذا شغلت الرماح مهجة ثائر مشغول بمهجته عن إخوانه شغل سيف الدولة بالدفاع عن إخوانه هو ولم يتركهم دون أن يقاتل عنهم (٢)

وهكذا الحكم والأمثال تتسع للفهم والتوجيه (٣) .

وبعد هذا يعاود الشاعر القتال في المعركة وقد تكشفت نتيجتها ؛ يقول :

هيهات عود الروم إلى القتال وما أملوا منه ، إذ عاقهم عن ذلك أمران: أمر عرفوه في تصميم سيف الدولة على انتزاع النصر منهم ، وأمر عرفوه من نفوسهم وهو الجبن الذي انطوت عليه أفئدتهم . فقواضب سيف الدولة ورجاله عاقتهم عن العود إلى المحاربة ؛ لأنها نقصت منهم حين كثر بها قتلاهم ، وقل من يجرح منهم ولا يموت فيؤسر ، كما عاقهم هذا المهذب — يعني سيف الدولة — الذي أطاعته المنايا في إهلاكهم ؛ إذ ائتمرت بأمره وارتهنت باشارته ، وهذه الطاعة في الوقت نفسه هي في طاعة الله — سبحانه وتعالى — جهاداً في سبيله وإعلاء لكلمته ، وانتصارا لدينه ، وذيادا عن الإسلام ، والذين يجاهدون يبيعون أنفسهم لله بأن لهم الجنة ، فما يبالون ما يصيبهم في جنب الله ، إلا أنهم يكونون حراصا على محو كلمة الكفر . ولهذا قاتل المسلمون الروم ، ومزقوهم كل ممزق ، وبعثروا مع الريح شعورهم على الأشجار ، فاسودت الأشجار بهذه

---

(١) فجملة (شغلته) جواب الشرط . وعن في قوله (عن الاخوان) بمعنى الباء ، كما قيل في قوله تعالى : « وما ينطق عن الهوى » أي وما ينطق بالهوى .

(٢) فجملة (شغلته) في موقع جر نعت لثائر ، وجواب الشرط محذوف يدل عليه المقام

(٣) ولا نذهب مذهب ابن القطاع في دعوى أن البيت من معانى المتنبي الفاسدة ، وعنده أن ظاهره هجاء وباطنه مديح — راجع شرح البرقوقي : ٤/٣١٥ .

الشعور ، حتى يظنها من يشهدها غربانا قد أسفت بينها ، وأجروا مع السيوف دماءهم على أوراق الشجر، حتى احمرت هذه الأوراق ، فصارت لحمرتها كأنها النارنج معلقا بأغصانه .

والسيوف إنما يتحقق فعلها مع الشجعان الذين يقوون على مواجهة المخاطر ، ولا يفزعون في الحرب إذا التقى الجمعان ، فلقلوبهم صلابة ومضاء كما أن السيوف صلبة ماضية . وإذا لم يكونوا كذلك لم تنفعهم السيوف شيئا ، لأنهم جبناء ، ولا قيمة للسيف في كف الجبان ، فمضاء السيف — وسماه جراءة — من جراءة صاحبه ، ونبوه في الضريبة — وجعله جبنا — من جبن صاحبه .

كانت للمعركة نتائجها ، وألم المتنبي ببعض منها فيما سبق : انهزم الروم عن جبن ، ولم يستطيعوا الثبات أمام جراءة سيف الدولة ، وأمام عبقريته في انتزاع النصر منهم . وبقى من هذه النتائج ما يسوقه الشاعر مساق المديح في أربعة الأبيات الأخيرة ، يقول الشاعر مخاطبا سيف الدولة : ارتفع شأن العرب ، وشادوا بك مجدهم ، وقاتلوا الملوك ، فقطعوا رءوسهم ، وجعلوا جماجمهم مواقد للنيران (١)

وإن العرب ينتسبون إليك في الفخر بما حازوا من شرف ومجد ، وإن كانوا ينتسبون من جهة آبائهم إلى عدنان . ورأى الشاعر أميره يقتل من أراد بسيفه ولا يفلت منه أحد . فتذكر قتلا من نوع آخر وقع على الشاعر ، تذكر إحسان أميره إليه إحسانا يعجز هو عن شكره ، فجمل نفسه — والمتنبي لا ينسى نفسه في شعره — من قتلاه بالإحسان .

وها هو ذا يرى المتنبي أميره جلوسا ، فيروعه ما يرى منه ومن جلالته ،

---

(١) وهذه مبالغة في الاستهانة بالروم . وقال الواحدي : المعنى قاتلوا الملوك وأوقدوا على رءوسهم نيران الحرب .

وتأخذه الحيرة ، فيقف دهشا ، ويبصر خلائقه وسيرته ، فإذا أراد أن يمدحه ويمدحها تحير لسانه فما يدرى ما يقول فيه وفيها ، إجلالا له ولها .

هذه القصيدة — كما سبق القول — آخر ما أنشأه المتنبي في حروب سيف الدولة . وأشرنا في ثنايا البيان إلى كثير مما تضمنه فكرا وصورا . . . . بيد أن فيها جوانب تستحق التنويه بها والتنبه إليها ، وهي :

(١) الحكمة التى بدئت بها القصيدة ، وبثت فى تضاعيفها ، منتزعة من الجو الحربى الذى أملى القصيدة .

(٢) وصف النهر والسفن ، ونقلها بالتصوير والخيال إلى البيئة الصحراوية أو نقل هذه البيئة إليهما .

(٣) التحدث بغدرة بنى حمدان على نقض العهود وإخفار الذمم .

(٤) تشبيه بنى حمدان بالصعاليك ووصفهم بالصعلكة ، « وهو وصف فيه جدة وجرأة ، لأن الصعاليك — كما هو معروف — كانوا من فتيان العرب وشجعانهم الذين اشتهروا بالفروسية وسرعة العدو ، وكانوا يغيرون على القبائل الغنية ، فيغنمون ويسلبون ، ولكنهم لا يحتفظون لأنفسهم إلا بالقليل ، ويوزعون الباقى على الفقراء من العرب . وكانت نزعتهم نزعة اشتراكية عادلة ثائرة على نظام الطبقات الذى كان منتشرا بين العرب فى الجاهلية وصدر الإسلام . على أن المتنبى حين وصف الحمدانيين بالصعلكة إنما استعار لهم شجاعة الصعاليك وما امتازوا به من صفات البطولة دون السلب والنهب ، فإن سلبوا ونهبوا فإنهم يسلبون الأعداء وينهبون الروم .

وهم — لشدة تصعلكهم — لا يكادون يتركون ظهور جيادهم إلا لكى يقيلوا فى ظلالها ، ثم لا يلبثوا أن يمتطوا صهواتها ، فتعدو بهم عدو النعام ، وتجرى بهم جرى الذئاب (١) » .

---

(١) مصطفى الشكعة : فنون الشعر فى مجتمع الحمدانيين — ص ٤١٧ .

(٥) المبالغة كلما كانت ممكنة .

هذا . وقد بدا من المتنبي إعجابه بالسيف من بين أدوات القتال : فالمتنبي يعلي من شأنه ، ويغالي في قدره ، ويجعله الفيصل في الحرب ، والمحتكم في النزال ، والصدوق في الحملات ، والعارف بالعدو حتى يستأصله . وقد أطال وصفه في مطالع قصيدته التي يمدح بها أبا بكر علي بن صالح الروذباري الكاتب بدمشق ، حيث يقول :

كفرندي فرندُ سيفي الجُرازِ ... لذّةُ العينِ عُدّةٌ للبِرازِ (١)

تحسَبُ الماءَ خُطّ في لهَبِ النا ... رِ أدقَّ الخطوطِ في الأحرازِ (٢)

كلما رُمتَ لونَهُ منَعَ النا ... ظرَ موجٌ كأنه منك هازي (٣)

ودقيقٌ قذَى الهباءِ أنيقٌ ... متوالٍ في مستوٍ هزهازِ (٤)

ورَدَ الماءَ ، فالجوانبُ قَدْراً ... شربتْ ، والتي تليها جوازي (٥)

---

(١) الفرند : جوهر السيف وهي الخضرة تردد فيه ، وهو لفظ دخيل معرب . واستعار الشاعر لنفسه فرندا على سبيل تشبيهها بالسيف وهو قصد مضاءه ، ثم عكس فشبه فرند السيف بفرنده . الجراز (بالضم) : القاطع . البراز : مصدر بارز برازا ومبارزة وهو مقابلة الأقران في الحرب والدخول معهم في نزال وقتال .

(٢) الأحراز : جمع حرز وهو العوذة التي تكتب فيها الرقية . والعادة جرت بتدقيق الخطوط فيها .

(٣) هازي : هازيء سهل الهمزة ، وهو الساخر . والمراد بالموج تردد اللمعان في متن السيف على سبيل الاستعارة .

(٤) دقيق : أي فرند دقيق وهو معطوف على موج في البيت السابق . قدى (بالدال المهملة) بمعنى مقدار ، وروى قذى (بالذال المعجمة) وهو في الأصل ما يقع في العين . الهباء : ماتراه في ضوء الشمس اذا نفذ الضوء من موضع ضيق . أنيق : حسن . متوال : متتابع . مستو : أي متن مستو . هزهاز : متلون مضطرب .

(٥) قدرا : أي مقدارا وهو مفعول شربت مقدم . جوازي : جوازيء سهلا ، والجوازيء جمع جازئة وهي في الأصل البقرة ونحوها تجتزيء ـ أي تكتفي ـ بالرطب عن الماء .

خلّقته حمائلُ الدهر حتى هي محتاجةٌ إلى خرّاز(١)

وهو لا تلحقُ الدماء غراريـــــه ، ولا عِرضَ مُنتضيه المخازي(٢)

يا مُزيلَ الظلام عنّي ، وروضي

يومَ شُربي ، ومَعقِلي في البَراز(٣)

واليماني الذي لو أسطعتُ كانتْ مُقلتي غِمدَهُ مِن الإعزاز(٤)

إنّ بَرْقي — إذا بَرَقْتَ — فَعالي

وصليلي — إذا صَلَلْتَ — ارتجازي(٥)

لمْ أحمّلكَ مُعلَماً هكذا إلا لضَرْب الرقاب والأَجْوازِ(٦)

ولقَطعِي بكَ الحديدَ عليها فكِلانا لجنسه اليومَ غازي(٧)

---

(١) الحمائل : جمع حمالة وهي ما يحمل به ، والحمالة للسيف علاقته التي يتقلد بها . وفي إضافة الحمائل إلى الدهر مجاز . .

(٢) غراريه : غرارى السيف ، وللسيف غراران اثنان أي حدان كل حد من جهة كل صفحة . العرض : النفس والحسب وما يمدح من الانسان ويذم . منتضيه : منتضى السيف اسم فاعل من انتضى بمعنى سل . ويقصد الشاعر نفسه . المخازي : الفضائح — جمع مخزاة وهي مايخزى به الانسان أي يذل ويلحقه الهوان منه .

(٣) البراز (بالفتح) : الصحراء وما إليها من الفضاء الواسع لا سترة به .

(٤) اليماني : نسبة إلى اليمن ساعية بالتخفيف ، وهو في موضع المنادى ، وهو جائز عند الكوفيين بدون صلة ، أما البصريون فيحتمون الصلة (أيها أو هذا) . اسطعت : استطعت

(٥) يقال : برق الشيء برقاً وبريقاً وبرقاناً لمع ، والسيف بارق وبراق . الفعال (بالفتح) : الفعل الحسن . الصليل : الصوت . الارتجاز : قول الرجز .

(٦) معلما : حال من نائب الفاعل والمعلم الذي يجعل لنفسه في الحرب علامة يعرف بها . وفي رواية (ولم أحملك) بتحريك ميم لم ووصل همزة الفعل بنيا للمعلوم . الأجواز : جمع جوز وهو الوسط ويقصد أوساط الرجال .

(٧) لقطعي : عطف على (لضرب الرقاب) عليها : أي على الرقاب والأجواز وما عليها هي المغافر والدروع .

يقول الشاعر : إن سيفى القاطع يشبهنى بالمضاء ، وهو حسن فى رأى العين ، وهو العدة لمبارزة الأقران ، ويشبه بريقه اللهب ، وتشبه آثار الفرند فيه أدق الخطوط فى الأحراز – العوذات تكتب فيها الرقى – فكلما حاولت أن تعرف لونه لم تستطع ، ومنع نظرك من الاستقرار عليه رونقه الذى يتردد فيه وكأنه الموج ، فكأنه هازىء ساخر ممن ينظره ، كما يمنع النظر من الاستقرار عليه فرنده الدقيق دقة الهباء[1] ، فرنده الأنيق الحسن المعجب ، المتتابع الخطوط فى متن مستو متلون مضطرب ، يتردد فيه ماؤه ويتراءى . وهذا السيف قد أشربت جوانبه – يقصد شفرتيه – عند صنعه مقدارا من الماء يلزمهما ، أما ما يليها من متنه فلم يشرب ماء ؛ ليكون أثبت عند الضرب به فلا ينقصف .

ويعترف بأن سيفه سيف قديم ، قد أخلق الدهر حمائله ، حتى احتاجت إلى الطراز لتجديدها وإصلاحها ، فلما كثر حاملوه بطول الدهر وتداولت الأيدى عليه كان كأن الدهر حامل له .

وهو سيف لا يملق الهم بحديه لرقته وصقاله ، أو أنه لسرعة قطعه يسبق الدم فلا يتلطخ به ، وإذا انتضاه ضاربه أبلى به بلاء حسنا ، ولم ينب عن الضريبة ، فلا يخزى ، ولا يلحقه معه هوان ، وإنما يلحقه الافتخار والشرف الرفيع .

ثم التفت إلى سيفه يخاطبه خطاب من يعقل : أنت ضيائى الذى أستصبح ببريقه يوم يشتد الغبار فيصير كالظلام ، وأنت لى يوم شرب الدماء – أى يوم الحرب – كالروض الذى أشرب عليه الراح[2] ، وأنت معقلى الذى أحتمى به وأذود به عن نفسى فى الصحراء والخلاء ، وأنت السيف اليمانى الذى لو استطعت لجعلت عينى له غمدا ، من إعزازى له وإبقائى عليه وقدره عندى .

---

(١) وعلى رواية (قفى الهباء) يكون الفرند مشبها بالقذى يتطاير إلى العين فيمنعها النظر ...

(٢) والسيف يوصف بالخضرة ، ولذا شبهه بالروض .

ويقارن ما بين سيفه ونفسه فيطاوله : إذا كان لك البرق فإن لى برقا مثل برقك هو قنالى ، وإذا كان لك الصليل فإن لى صليلا مثل صليلك هو إنشاد الأراجيز .

ويقول له : لم أحملك فى الحرب للزينة ، وإنما أحملك لأقتل بك الأعداء ، وأضرب بك رقابهم وأوساطهم ، وأقطع بك ما عليها من حديد ، من المغافر والدروع ، فأنا أغزو الناس ، وأنت تغزو الحديد ، « فكلانا لجنسه اليوم غاز » .

وإذا كان المتنبى جعل سيفه لا يعلق به الدم فقد جعل سيف ممدوحه شجاع ابن محمد الطائى المنبجى مكتسيا بالدم حتى جمد عليه وصار كالغمد له ، فهو يرى مسلولا كأنه مغمد ، ويرى ريان من الدماء فلو مج ما سقى به من دماء الأعادى لجرى منه مثل بحر مزبد ، وذلك حيث يقول :

يبس النجيع عليه وهو مجرد   من غمده ، وكأنما هو مغمد
ريان ، لو قذف الذى أسقيته   لجرى من المهجات بحر مزبد(١)

فى الجزء الثانى نتناول — بمشيئة الله تعالى — أوصاف : الحيوان ، المجالس ، أدوات الرفاهة واللعب ، أماكن الرفاهة والنزهة والرحلة ، أراذل الناس ، الحلى ، الشيب ، الشعر والأدب .

---

(١) النجيع : الدم . مجرد : مسلول . مغمد : موضوع فى الغمد بحر مزبد : أى مائج يقذف بالزبد ، وهو هذا الشىء الذى يبدو كالرغوة .

المصادر والمراجع

(أ)

ديوان المتنبي ، بشروحه :
ـ شرح الواحدي : طبعة برلين ١٨٦١ م .
ـ شرح العكبري (التبيان في شرح الديوان) تحقيق مصطفى السقا وآخرين .
ـ شرح اليازجي (العرف الطيب في شرح ديوان أبي الطيب بيروت ـ تموز ١٣٠٥ .
ـ شرح البرقوقي (شرح ديوان المتنبي) التجارية .
ـ شرح محمد إعزاز علي ـ طبعة هندية ـ ١٣٨٣ هـ .

(ب)

ـ ابن الأثير : المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ـ المطبعة البهية ـ ١٣١٢ هـ .
ـ البديعي : الصبح المنبي عن حيثية المتنبي ـ مكتبة عرفة بدمشق ـ ١٣٥٠ هـ
ـ الثعالبي : يتيمة الدهر ـ بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ـ طبعة محمود توفيق ـ ١٣٦٦ هـ ـ ١٩٤٧ م .
ـ زكي المحاسني : شعر الحرب في أدب العرب ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٦١ م .
ـ طه حسين : مع المتنبي ـ ط ٩ ـ دار المعارف بمصر .
ـ عباس حسن : المتنبي وشوقي ـ النهضة المصرية ـ ١٣٧٠ هـ ـ ١٩٥١ م .

- عبد الحسيب طه حميده : أدب الشيعة ـ ط ٢ ـ السعادة بمصر ـ ١٩٦٨ م
- عبد الوهاب عزام : ذكرى أبي الطيب ـ دار المعارف بمصر ـ ١٩٥٦ م
- القاضي الجرجاني : الوساطة بين المتنبي وخصومه ـ تحقيق محمد أبي الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي ـ ط ٢ ـ دار إحياء الكتب العربية ـ ١٣٧٠ هـ - ١٩٥١ م .
- محمد السعدي فرهود : نصوص مختارة من العصر العباسي الثاني ـ مطبعة الرسالة ـ ١٣٨٨ هـ ـ ١٩٦٩ م .
- مصطفى الشكعة : فنون الشعر في مجتمع الحمدانيين ـ الأنجلو المصرية ـ ١٣٧٨ هـ ـ ١٩٥٨ م .

الفهرس

	الصفحة
مقدمة	٥
حياة المتنبى	٩
الفصل الأول : — وصف المرأة	١٦ ـ ٥١
قبلتها ودموعى مزج أدمعها	٢١
• غصن على نقوى فلاة نابت	٢٢
• لولا ظباء عدى ما شغفت بهم	٢٣
• كم قتيل كما قتلت شهيد	٢٤
• بانوا بخرعوبة لها كفل	٢٧
• أريقك أم ماء الغمامة أم خمر	٢٨
• أظبية الوحش لولا ظبية الأنس	٣٠
• ترشفت فاها سحرة فكأننى	٣١
• لحاها الله إلا ماضييها	٣٢
• لجنية أم غادة رفع السجف	٣٤
• هام الفؤاد بأعرابية سكنت	٣٦
• بأبى الشموس الجانحات غواربا	٣٧
• سفرت وبرقعها الفراق بصفرة	٣٩
• كأنها قدت إذا انفتلت	٤٠

• لبسن الوشى لا متجملات ٤١

• حسان التثنى ينقش الوشى مثله ٤٢

• ذكرت به وصلا كأن لم أفز به ٤٣

• مطاعة اللحظ فى الألحاظ مالكة ٤٤

• لعينيك ما يلقى الفؤاد وما لقى ٤٤

• من الجآذر فى زى الأعاريب ٤٦

الفصل الثانى : — الوداع والرحيل والفراق ٥٢ ـ ٧٥

• أبلى الهوى أسفا يوم النوى بدنى ٥٤

• كفى أرانى ويك لومك ألوما ٥٥

• أهلا بدار سباك أغيدها ٥٧

• حشاشة نفس ودعت يوم ودعوا ٥٨

• ملامى النوى فى ظلمها غاية الظلم ٦٠

• أركائب الأحباب إن الأدمعا ٦١

• ليت الحبيب الهاجرى هجر الكرى ٦٣

• بقائى شاء ليس هم ارتحالا ٦٤

• أراها لكثرة العشاق ٦٦

• مبيتى من دمشق على فراش ٦٨

• أيدرى الربع أى دم أراقا ٦٩

• ولم أر كالألحاظ يوم رحيلهم ٧٠

• ترى عظما بالبين والصد أعظم ٧١

• فارقتكم فإذا ما كان عندكم ٧٤

الفصل الثالث : - الصيد والطرد ٧٦ - ٩٦

• ومنزل ليس لنا بمنزل ٧٨

• وشامخ من الجبال أقود ٨٤

• وطائرة تتبعها المنايا ٨٦

• سار لصيد الوحش في الجبال ٨٧

الفصل الرابع : - وصف المعارك والحروب ٩٧ - ١٨٦

• أحاد أم سداس في أحاد ٩٩

• بعيرك راعيا عبث الذئاب ١٠٣

• طوال قنا تطاعنها قصار ١١١

• غيري بأكثر هذا الناس ينخدع ١١٢

• على قدر أهل العزم تأتي العزائم ١٤٧

• الرأي قبل شجاعة الشجعان ١٦٤

• كم قتيل كما قتلت شهيد ١٨٣

رقم الإيداع بدار الكتب ١٨٨٠ / ١٩٧١

مطبعة الرسالة
٥ شارع [illegible] عابدين